

شيروود أندرسن

واينسبرغ، أوهايو

ترجمة: أسامة منزلجي

سلسلة روايات عالمية «١٣»

لوحة الغلاف : ماري كلود صفر

الاشراف الفني : زهير الحمو

واينسبرغ أوهايو

سلسلة روايات عالمية «١٣»

شيروود أندرسن

واينسبرغ، أوهايو

ترجمة: أسامة منزلجي

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق
١٩٨٦

العنوان الاصلي للكتاب :

THE VIKING CRITICAL LIBRARY

SHERWOOD ANDERSON

Winesburg, Ohio

TEXT AND CRITICISM

EDITED BY JOHN H. FERRES

واينسبرغ ، أوهايو = Winesburg , Ohio /
تأليف شيروود اندرسون ؛ ترجمة أسامة
منزلجي . ـ ط ١ . ـ دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٨٦
. ـ ٣٠٤ص ؛ ٢٥سم . ـ (روايات عالمية ؛ ٣١) .

١ ـ ٨٢٣ أم أ ن د و ٢ ـ العنوان ٣ ـ اندرسون
٤ ـ منزلجي ٥ ـ السلسلة

الايداع القانوني : ع ٢٦٦ / ٣ / ١٩٨٦

شيروود أندرسن وشركاه

نظـرة سـريعة

سأحاول قدر الامكان من خلال الصفحات القليلة القادمة أن أبين مركز شيروود أندرسن ومؤلفه « واينسبرغ ، أوهايو » داخل انجاز الأدب الأميركي ، وقت صدور الكتاب وفي الوقت الحاضر . فهناك الكثيرون من النقاد ممن رفع من شأن أندرسن وكتابه إلى حد المبالغة ، وثمة من سخر من أسلوبه أصلا وأنكر عليه صفة الأديب المبدع بل حتى جرده من أية موهبة في الكتابة ، وفي وقت من الأوقات قال عنه هيمنغواي بأنه ليست لديه أفكار يقدمها .

إن أندرسن لم يبدأ أديباً أبداً ، ولا اهتم بأي مجال من مجالاته ، بل قطع الأربعين سنة الأولى من حياته رجل أعمال وتاجراً ناجحاً نوعاً ما . ويبدو أنه أنفق قدراً كبيراً من طاقته ، وهدر من قوته العقلية والجسدية لاحراز مكانة مادية وتجارية جيدة مما أوصله وهو في تلك السن ، وبعد أن حقق المركز والحيز الاجتماعي المرموق ، وبعد أن تزوج وأنجب أطفالا ، إلى انهيار عصبي وعقلي كانا بمثابة انذار بالخطر جعله يدرك فجأة أنه انما كان طوال كل تلك السنين يهرب من قدر يحاول خنقه بقوة في داخله .

وكما فعل هنري ميللر من بعده قرر أن يترك كل شيء حققه خلفه ، كما يفعل الشهداء والأبرار ، من متاع الدنيا ويسخر نفسه للكتابة والأدب . لقد أحب هنري ميللر شيروود أندرسن الانسان قبل الفنان ، وكان يرى أن انجاز الانسان الأعظم وتحفته الأولى والأخيرة هي حياته وطريقة قيادته لها . وكان ميللر حين يريد أن يبرز فرادة كاتب يقيسها بمقدار العذاب والمعاناة اللتين يلاقيهما . وكم من أسماء بارزة في مجال الأدب

أسقطها من حسبانه (كان يرى أرنست هيمنغواي مجرد كاتب قصص مغامرات ومارك توين يكتب قصصاً للمراهقين) لأن أدبهم لم يكن مقتلعاً من جحيم معاناتهم ، لذا فحين سأله أحدهم ، وقد ذكر ذلك في كتاب جميل حول رحلته إلى جزر اليونان بعنوان (عملاق ماروسي) ، من هو أعظم كاتب أميركي عندئذ – عام ١٩٤٠ – فقال انه شيروود أندرسن ، وذكر معاناته كسبب لاختياره له ، ثم ذكر سبباً اخر ذكياً وفكها في نفس الوقت للسائل قائلا « يكفي أنه استطاع أن يجعل حتى البيضة تشعر بالانتصار ! » إشارة إلى مجموعة أقاصيص لأندرسن بعنوان (انتصار بيضة) .

طبعاً نحن لن نتناول ملاحظة ميللر بكثير من الرصانة ، ولكن ، والحق يقال ، لقد بدأ أندرسن في الكتابة من لاشيء ، من الصفر ، حطم أصنام انجازاته الماديةوالاجتماعية، فطلق زوجته وترك أولاده وانطلق إلى تشيكاغو ليمارس الأعمال الصغيرة المهينة ، ويتلذذ بمرارة تشكيل الكلمات والأحاسيس والإنفعالات الإنسانية الدفينة . لقد قرر أن البشر هم شغله الشاغل ، ومحاولة إبراز وإفشاء حماة جهلهم وعقدهم الدفينة هدفه . إننا حتى لانعرف مصادر ثقافته ، فالمراجع لاتذكر أنه قرأ كتباً كلاسيكية مثلا ، أو تتلمذ على أيدي كتاب كبار قبله . ونحن نعرف من سيرة حياته أن تعليمه كان بسيطاً ومتقطعاً في طفولته . من المؤكد أن اندرسن كان أديباً عصامياً ، « أراد » أن يصبح كاتباً ، والشيء المعروف أنه كان يقرأ نتاج زملائه من الأدباء الشبان ، رغم أنه كان أكبرهم سناً ، وفي غربته في باريس تتلمذ على يدي راعيته ومرشدته غرترود شتاين .

كانت غرترود شتاين صاحبة فضل كبير على كوكبة من أبرز عظماء الفن والأدب في ذلك الوقت . كانت صاحبة نظرة خاصة ونظرية في الفن والأدب ، فدعت الأدباء إلى التعامل مع الكلمة ببساطة وفطرة بل حتى ببدائية ، والعود باللغة إلى أصولها . وقد تأثر بنظريتها تلك معظم من تجمهر حولها في غربة فرنسا أمثال أندرسن ، وهيمنغواي ، و ف . سكوت فيتزجيرالد ، وكارلوس ويليام كارلوس وغيرهم . غير أنها هي نفسها لم تنجح في تطويع اللغة وتطويرها حسب نظريتها ، وبقيت كتاباتها محصورة داخل مساحة التلاعب بالألفاظ العقيم ، والمؤسف أن أندرسن أخذ عنها فشلها هذا أيضاً ، فقد استخدم اللغة البسيطة حتى السذاجة ، والبلاهة أحياناً ، وكأنها صادرة عن انسان من الشارع ، أمي ، يكاد يكون محدود الادراك فيتلفظ بجمل لاتبدو شديدة التماسك ، بل ومتنافرة أحياناً بشكل

مضحك ، ويروح يكرر جملا بلا داع . والحقيقة أن مأزق اللغة عند أندرسن لايكمن هنا على وجه الخصوص ، ولكن المزعج جداً فيها أنها بقيت كما هي منذ قصته الأولى عام ١٩١٦ وحتى اخر عمل كتبه . وكان هيمنغواي ، الذي قدمه أندرسن إلى حلقة غرترود شتاين ، معجباً جداً بأسلوبه الذي اعتبر جديداً ثورياً في أول الأمر ، مثل الكثير من نقاد الفترة ، وأصبح بحق بطل الأسلوب الجديد في كتابة القصة القصيرة . لكن إغداقهم الاطراء عليه وصل حد المبالغة حتى أنه هو نفسه كان ينكر ماينسب إليه من عبقرية . ثم أخذ هيمنغواي يضيق ذرعاً من ذاك الأسلوب المتكرر السخيف ، ويتبرم منه علانية . وعندما أصدر أندرسن روايته « الضحك القاتم » أو « الضحك الأسود » عام ١٩٢٥ طفح الكيل عند هيمنغواي وقرر أن لا يسكت على هذه المهزلة بعد الآن ، خاصة وأن النقاد كانوا يرددون طوال الوقت أن هيمنغواي وأندرسن هما تلميذان تخرجا من مدرسة غرترود شتاين ، وأنه هو بالذات متأثر بأسلوب أندرسن بالكتابة ، وكان عندئذ قد أصدر مجموعته القصصية المعنونة « في زماننا » ، فجلس ليكتب كتاباً صغيراً على طريقة المحاكاة الساخرة ، سخر فيه بقسوة بالغة وبشكل خاص من أفكار أندرسن السقيمة وطريقة تناوله لها في قصته الأخير « الضحك القاتم » ، أكثر من سخريته من أسلوبه في الكتابة ، وأنهى الكتاب خلال بضعة أيام .

والآن مادام أسلوب شيروود أندرسن رديئاً إلى هذا الحد ، فأين تكمن روعة وأهمية كتابه « واينسبرغ ، أوهايو » ؟

في الحقيقة أن الأدب الأميركي النثري كان قد دخل ، بحلول نهاية الحرب العالمية الأولى ، مرحلة ثورة جديدة . وقبل بداية الحرب كان مايزال يرتكز على أسس غريبة عن خصوصيته . فأولا ، كان يدين بالكثير للتأثير الأوروبي ، والانكليزي بصورة خاصة ، وكان ذاك الأدب يتصف بالجمود وزيف العواطف والتكلف في العبارة ، التي كانت تنتقى بدقة مملة . ثانياً ، سيطرة التدين المنافق الذي كان يدعو للتشبث بأخلاقيات وتقاليد ومحرمات ومقدسات تشكل سداً يعوق انطلاق حيوية الانسان الأميركي .

عن هذا الأساس ظهرت مجموعة من الأدباء رفضت أن تنقاد للمفاهيم العتيقة في الكتابة فانعزلت نسبياً ، لأنه كان مايزال منفتحاً أمامها مجال التعبير عن نفسها في الدوريات

والصحف الأدبية التي كانت رائجة . وكان بعض هؤلاء الكتاب قد اشترك في الحرب ووجد أنها كانت حرباً قذرة ، أبعد ماتكون عن البطولة ، ثم أنها لم تكن حربهم كأميركيين ، وقد ظهرت مظاهر خيبة الأمل منها في نتاج بعضهم المبكر (في « الجنود الثلاثة » لدوس باسوس ، « والغرفة هائلة المساحة » لكمنغز) .

من العوامل التي خففت على الأديب المنعزل عزلته أن الرأي العام للجمهور كان معه في مسائل التحريمات ، وأهمية الصراحة في الأمور الجنسية ، وحب الحياة والانطلاق .ثم أن لغة أولئك الكتاب لم تكن تختلف كثيراً عن لغة الصحف اليومية . وقد ساهم ماركس وفرويد كثيراً في تشكيل البنية الفكرية الاجتماعية لذلك العصر . وكان هذا بمثابة إعطاء إشارة السماح للكاتب ليكون على سجيته في الإفصاح عن كل مايجول في خاطره ، وينطلق في التعبير عن ذاته ومشاعره التي هي بالتالي مشاعر معظم أناس الفترة .

كان أندرسن واحداً من أولئك الكتاب الرُواد ، بل كان أولهم في الحقيقة ، في تطبيق تلك الدوافع ، وكان كتابه « واينسبرغ ، أوهايو » يمثل ذروة المشاعر العامة ، والمثل الأمثل لما يجب أن تكون عليه القصة شكلا ومضموناً . ومن هنا انهال عليه التقريظ والتكريم من الجمهور والنقاد على السواء ، إلا أنه كان يعبر عن المشاركة العاطفية مع المؤلف أكثر من كونه نظرة موضوعية متوازنة إلى الكتاب وقيمته الحقيقية .

كان كتاب « واينسبرغ ، أوهايو » ثورة وخروجاً عن الكتابة القديمة المنافقة . تناول أحاسيس ومشاكل لم يكن أحد من الجيل القديم ليجرؤ على التلميح إليها قبلا . وعندما نقول إن الكتاب وصاحبه لقيا ترحيباً هائلا فان هذا لايعني على الاطلاق أنه لم يكن هناك من معاوض ، على العكس ، فقد تعرض أندرسن ، كما ذكر في مذكراته ، لتهديد وقذف وسب من جهات متزمتة كثيرة كانت ماتزال لها كلمتها المسموعة عندئذ ، بل ان القبول الحقيقي للكتاب لم يكتمل إلا في مرحلة متقدمة بعد صدوره .

لقد أعاد أندرسن الروح الانسانية إلى القصة الأميركية بعد الحرب العالمية الأولى ، بل إن بعض النقاد يقول أن لاأحد من الكتاب الأميركيين قدم من الحب ، والرحمة ، ودفء القلب بقدر مافعل شيروود أندرسن للقصة الأميركية . وإذا كان أرنست هيمنغواي قد

تبرأ في وقت من الأوقات وأنكر تأثير أندرسن بأسلوب كتابته عليه ، وهذا غير صحيح ، فان وليام فوكنر ظل يعترف طوال حياته بفضل وتأثير وأبوة شيروود أندرسن عليه . طبعاً هذا لايعني أنه ، أو هيمنغواي ، قد تبنى أسلوبه أو أفكاره التي لم يحسن معالجتها أحياناً ، وإنما على الأقل الاعتراف بالفضل والمعروف واجب .

إنني وأنا أقدم هذا الكتاب وهذا الكاتب إلى القارىء العربي إنما أعمل بجهد متواضع أن أنصف كاتباً لايمكن نكران ما أحدث من ثورة في القصة القصيرة الأميركية .

أسامة منزلجي

اب (اغسطس) ١٩٨٤

* * *



كتاب الغرائب

كان الكاتب ، وهو عجوز بشارب أبيض ، يعاني من بعض الصعوبة في ارتقاء السرير . وكانت نوافذ البيت الذي يعيش فيه عالية وهو يرغب بالنظر إلى الأشجار عندما يستيقظ في الصباح . فأتى نجار ليصلح له السرير بحيث يصبح بمحاذاة النافذة

وأثيرت ضجة حول القضية . فالنجار ، الذي كان جندياً شارك في الحرب الأهلية ، أتى إلى غرفة الكاتب وجلس ليتحدث عن إقامة منصّة من أجل رفع السرير . وكان في المكان بعض السيجار ودخّن النجار .

تحدث الرجلان لبعض الوقت عن رفع السرير ثم تحدثا عن أمور أخرى . وتطرّق الجندي لموضوع الحرب . والحقيقة هي أن الكاتب هو الذي جرّه إلى هذا الموضوع . فقد كان النجار ذات مرة سجيناً في سجن (اندرسن فيل) وفقد أخاً له ، مات جوعاً . وكلما تطرّق النجار إلى

هذا الموضوع بكى . وهو ـ مثل الكاتب ، له شارب أبيض ، وحين بكى التوتْ شفتاه واهتز شاربه إلى أعلى وأسفل . وكان منظر العجوز الباكي والسيجارفي فمه مضحكاً . ونُسِيَتْ خطةالكاتب لرفع السرير ، وبعد ذلك نفّذ النجار الأمر بطريقته الخاصة ، وصار على الكاتب ، الذي تجاوز الستين ، أن يساعد نفسه بكرسي حين يرتقي السرير ليلاً .

في السرير تقلّب الكاتب على جنبه ورقد ساكناً . منذ سنين وهو محاصر بهواجس حول قلبه . كان يدخّن بكثرة وقلبه يخفق بسرعة . وخطر على باله أنه سيموت بطريقة غير متوقعة . وكلما لجأ إلى السرير فكر في هذا . ولم يروّعه الأمر . كان تأثيره في الواقع شيئاً خاصاً ليس من السهل شرحه وقد جعله ، وهو في السرير ، أكثر حياة من أيّ وقت آخر . ظل ساكناً تماماً وجسمه عجوز لم يعد له فائدة تذكر ، لكن شيئاً داخله كان شاباً برّمته . كان أشبه بامرأة حامل ، إلا أن مافي داخله لم يكن طفلاً بل شاباً ، لا ، ليس شاباً ، بل امرأة ، شابة ، وترتدي درعاً كفارس . والواقع أنه من العبث أن تحاول كشف مابداخله وهو راقد في سريره العالي ينصت إلى وجيب قلبه . وما يجب معرفته هو بماذا يفكر الكاتب ، أو الشيء الشاب الكامن في داخله .

والكاتب العجوز ، ككل العجائز في العالم ، دارت في رأسه طوال حياته المديدة أفكار كثيرة جداً . وفي يوم من الأيام كان وسيماً تماماً ووقعت العديد من النساء في حبه . ثم أنه ، طبعاً ، عرف أناساً ، أناساً

كثيرين ، عرفهم بطريقة مميّزة حميمة تختلف عن الطريقة التي نعرف بها أنت وأنا الناس . على الأقل هذا مافكّر به الكاتب والتفكير يسعده . وما الداعي للتشاجر مع عجوز حول أفكاره ؟

في السرير رأى الكاتب حلماً ، لم يكن حلماً . وبينما هو يزداد نعاساً ولكن مع احتفاظه بوعيه ، بدأت تتراءى أمام عينيه أشكال . تخيل أن الشيء الشاب الذي لا يمكن وصفه داخله كان يقود موكباً من الأشكال أمام عينيه .

والمثير في كل هذا هو الأشكال المارة امام عيني الكاتب . فكلها أشكال غريبة . كل الرجال والنساء الذين عرفهم طوال حياته أصبحوا أشكالاً غريبة .

وهذه الأشكال لم تكن كلها مرعبة . بعضها مسلٍّ ، والبعض الآخر كاد يكون جميلاً ، وأحدها ، وهو امرأة تخلّصت من شكلها الخارجي ، آذت العجوز بغرابتها . عندما مرت أصدر ضجيجاً شبيهاً بأنين جرو . ولو أنك دخلت الغرفة لاعتقدت أن العجوز يعاني من أضغاث أحلام أو ربما عسر هضم .

ظل موكب الأشكال الغريبة يمر أمام عيني العجوز مدة ساعةٍ ، ومن ثم ، وكأنه عمل مؤلم زحف خارجاً من السرير وبدأ يكتب . فقد ترك أحد الأشكال الغريبة انطباعاً بليغاً في ذهنه وأراد أن يصفه .

عمل الكاتب أمام مكتبه لساعة . في النهاية كتب كتاباً دعاه « كتاب الغرائب » . لم يُنشَر أبداً . لكنني رأيته مرة وترك بي أثراً لا يمحى . في

الكتاب فكرة مركزية واحدة غريبة جداً وبقيت معي دائماً . وتذكّري لها جعلني قادراً على فهم الكثير من الناس والأشياء لم أكن قبل ذلك قادراً على فهمها . والفكرة معقّدة ولكن يمكن تبسيطها على النحو التالي :

إنه في البداية عندما كان العالم فتى ، كانت هنالك أفكار كثيرة جداً ، ولكن بدون شيء اسمه الحقيقة . الانسان هو الذي صنع الحقائق بنفسه وكل حقيقة تتألف من عدد عظيم من الأفكار المبهمة وانتشرت الحقائق في جميع أرجاء العالم وكلها كانت جميلة .

وأدرج العجوز في كتابه قائمة مؤلفة من مئات الحقائق . لن أحاول سردها عليك جميعاً . فهناك حقيقة العذرية وحقيقة الانفعال ، وحقيقة الغنى والفقر ، والاقتصاد والتبذير ، واللامبالاة والتهتك . مئات ومئات من الحقائق وكلها جميلة .

ثم أتى الناس . وكلما ظهر أحدهم اختطف أحد الحقائق ، والأقوياء منهم اختطفوا دزينة منها .

الحقائق هي التي جعلت الناس عجيبين . والعجوز نظرية دقيقة جداً حول القضية . فهو الذي نوّه إلى أنه لحظة يختطف أحد الناس حقيقة ما لنفسه ، ويسميها حقيقته الخاصة ،ويحاول أن يقضي حياته على أساسها ، يصبح عجيباً وتصبح الحقيقة التي يعتنقها زيفاً .

ويمكنك أن ترى بنفسك كيف يكتب العجوز ، الذي أمضى كل حياته في الكتابة وملء الصفحات بالكلمات ، مئات الصفحات حول هذه القضية . ويتضخم الموضوع في رأسه حتى انه يتعرض لخطر التحول

إلى شخص غريب . وأعتقد أنه لم يتحول لنفس السبب الذي لم يطبع لأجله الكتاب . والشيء النضر داخل العجوز هو الذي أنقذه .

أما بخصوص النجار العجوز الذي أصلح السرير للكاتب ، فقد ذكرته فقط لأنه ، وكالعديد ممّن يسمّون بالأناس العاديين جداً ، أصبح أقرب شيء إلى ماهو مفهوم ومحبّب في كل الأشكال العجائبية في كتاب الكاتب .

* * *



يـــدان

على شرفة شبه متهدّمة لبيت صغير الهيكل قائم قرب حافة وادٍ ضيق قرب بلدة واينسبرغ في أوهايو ، مشى رجل عجوز قميء سمين بعصبية جيئة وذهاباً ، وعبْر الحقل الطويل المبذور ببذور البرسيم والذي لم يُنبِت إلا محصولاً كثيفاً من الخردل الأصفر ، تمكن من رؤية الطريق العامة وقد سارت عليها عربة مملوءة بجامعي العلّيق العائدين من الحقول . وجامعو العليق ، فتياناً وفتيات ، يضحكون ويصيحون بصخب . قفز صبي يرتدي قميصاً أزرقاً من العربة وحاول أن يجر معه إحدى الفتيات ، التي راحت تصرخ وتحتج زاعقة ، وأثارت قدما الصبي في الطريق سحابة غبار طافت عبر وجه الشمس الغاربة ، وفوق الحقل الطويل علا صوت أنثوي : « أوه ، ياوينغ بيدلبوم ، سَرِّح شعرك ، إنه ينسدل على عينيك » هكذا أُمِر الرجل الأصلع الذي راحت يداه المرتجفتان تجول على جبهته العارية البيضاء وكأنه يرتّب خصلة من الشعر الشعث .

ووينغ بيدلبوم ، الخائف أبداً والمحاصَر بعصبية وهمية من الشكوك ، لم يفكر في نفسه باعتباره بشكل ما يشكّل جزءاً من حياة البلدة التي

عاش فيها عشرين عاماً . ومن بين كل سكان بلدة واينسبرغ لم يقترب منه إلا واحد . فمع جورج ويلارد ، إبن توم ويلارد ، مالك نُزُل ويلارد الجديد ، كوّن شيئاً أشبه بالصداقة . كان جورج ويلارد مراسلاً في صحيفة واينسبرغ أيغل وأحياناً في الأمسيات يمشي في الشارع الرئيسي إلى بيت وينغ بيدلبوم . والآن بينما العجوز يقطع الشرفة جيئة وذهاباً ، ويداه تتحركان بعصبية ، كان يأمل أن يأتي جورج ويلارد ليقضي المساء معه . بعد أن مرت العربة التي تقلّ جامعي العلايق ، عبر الحقل متخللاً حشائش البرسيم الباسقة مرتقياً سياج سكة الحديد ، أنعم النظر بقلق في الطريق المؤدية إلى البلدة . وبقي لحظة على هذا الوضع ، فاركاً يديه معاً وهو ينظر إلى جهتي الطريق ، ومن ثم ، وقد تملكه الخوف ، عاد راكضاً ليعاود التمشي على الشرفة في بيته .

في حضور جورج ويلارد ، كان وينغ بيدلبوم ، الذي ظل لعشرين عاماً لغز البلدة ، يتخلص من بعض خوفه ، وتبرز شخصيته الغامضة ، الغارقة في بحر من الشكوك ، لتنظر إلى العالم. وبوجود المراسل الشاب إلى جانبه ، كان يتجرّأ على خوض الشارع الرئيسي في وضح النهار أو التمشي متنقلاً على شرفة بيته الأمامية المتزعزعة ، متحدثاً بهياج . وصوته الذي كان منخفضاً مرتجفاً بات حاداً عالياً . والقامة المحنية استقامت . وبحركة ملتوية ، كسمكة عائدة إلى الغدير بمساعدة الصياد ، بدأ بيدلبوم

بالكلام مجاهداً لصياغة الأفكار التي راكمها عقله خلال سنين طويلة من الصمت .

كان بيدلبوم يتكلم أكثر بيديه . الأصابع النحيلة المعبّرة ، النشطة أبداً ، المجاهدة دائماً لتخفي نفسها في جيبيه أو خلف ظهره ، امتدتا إلى الأمام وأصبحتا بمثابة قضيبيّ الكبس لآلية تعبيره .

حكاية وينغ بيدلبوم هي حكاية يدين . نشاطهما الذي لايكلّ ، وكأنه لرفرفة جناحيّ طير سجين ، هو الذي خلع عليه اسمه . وكانت فكرة شاعر مغمور من البلدة . لقد بثت اليدان الرعب في قلب صاحبهما أراد أن يبقيهما مستترتين عن الأنظار ونظر بذهول إلى التعبير الهادىء لأيدي الرجال الذين يعملون إلى جانبه في الحقول ، أو وهم مارّون ، يقودون القطعان الناعسة على الدروب الريفية .

حين كان يتكلم مع جورج ويلارد ، يغلق وينغ بيدلبوم قبضتيه ويضرب بهما الطاولة أو جدران المنزل . كانت الحركة تريحه . إذا باغتته الرغبة بالكلام وهما يسيران في الحقول ، بحث عن جدعة أو لوح علوي من سياج وبكلتا يديه يضربه بعنف وهو منشغل بالكلام وقد استعاد ارتياحه .

وحكاية يدي وينغ بيدلوم تستحق كتاباً كاملاً . عند سردها بتعاطف تخلّف في رجال مغمورين كثيراً من الصفات الغريبة الجميلة . إنه عمل شاعر . في واينسبرغ جذبت اليدان الانتباه بسبب حيويتهمافقط . بهما كان وينغ بيدلبوم يجمع مقداراً يصل إلى مئة وأربعين كوارت من

التوت البري في اليوم . أصبحتا من سماته البارزة ، ومصدر شهرته . جعلتا شخصيته المحيِّرة أكثر عجباً . كانت واينسبرغ فخورة بيدي وينغ بيدلبوم بنفس المقدار الذي كانت به فخورة بمنزل بانكروايت الحجري وفحل ويسلي موير الكستنائي ، وطوني تيب ، الذي فاز بسباق الجري ضمن مسابقات الخريف في كليفلاند .

أما جورج ويلارد فقد أراد مرات عديدة أن يسأله عن يديه . أحياناً كان يطغى عليه فضول شامل . شعر أنه يجب أن يكون ثمة سبب لحيويتهما الغريبة وميلهما للاستتار واحترامه المتزايد لوينغ بيدلبوم هو الذي منعه من تفجير الأسئلة الكامنة أبداً في ذهنه .

وفي مرة كاد يسأله . فقد كانا يسيران في الحقول بعد ظهيرة يوم صيفي وتوقفا ليجلسا على ضفة يغطيها العشب . وكان وينغ بيدلبوم قد قضى بعد الظهيرة وهو يتحدث كما قد يتصور المرء . توقف قرب سياج ، وبينما هو يضرب كأنه نقّار خشب عملاق على اللوح العلوي راح يصرخ في وجه جورج ويلارد ، مديناً نزعته ليتأثر كثيراً بالناس من حوله . وصرخ « أنت تحطم نفسك . لديك ميل لتكون منفرداً ولتحلم وتخاف الأحلام . أنت تريد أن تكون كالآخرين في البلدة هنا ، تسمعهم يتكلمون وتحاول أن تقلدهم » .

على الضفة المغطّاة بالعشب حاول من جديد أن يقنعه بوجهة نظره . أصبح صوته ناعماً ومحرّكاً للذكريات ، وبإشارة رضى ينطلق في حديث جوّال طويل ، متحدثاً كمن ضاع في حلم .

ومن الحلم رسم وينغ بيدلبوم صورة قدّمها لجورج ويلارد . في الصورة رجال يعيشون من جديد في نوع من عصر رعوي ذهبي . وفي أرجاء بلد أخضر منبسط انتشر شبان نظيفو الأعضاء ، بعضهم راجل ، وآخرون يمتطون ظهور الخيل . جاء الشبان حشوداً ليجتمعوا عند قدميّ رجل عجوز جلس تحت شجرة في حديقة صغيرة جداً وهو يحدثهم .

وهاج الوحي في كيان وينغ بيدلبوم . ولأول مرة نسي يديه . وببطء تسللتا ممتدتين واستقرتا على كتفي جورج ويلارد . وطغى على صوت المتحدث شيء جديد جليّ . « عليك أن تحاول نسيان كل ماتعلمت» قال العجوز « عليك أن تبدأ بالحلم . من الآن فصاعداً عليك أن تغلق أذنيك دون الأصوات الهادرة » .

صمت وينغ بيدلبوم عن الكلام ، ونظر طويلاً وبجدّ إلى جورج ويلارد . وتوهجت عيناه . ومن جديد رفع يديه مداعباً الصبي ثم اجتاحت وجهه نظرة رعب .

وبحركة متشنجة من جسمه ، قفز وينغ بيدلبوم واقفاً على قدميه وحشر يديه عميقاً داخل جيبيّ بنطاله : وظهرت الدموع في عينيه « يجب أن أعود إلى البيت . لم يعد بوسعي التحدث معك » قالها بعصبية .

ودون أن ينظر خلفه ، أسرع العجوز منحدراً إلى أسفل التل وعابراً أحد المروج ، تاركاً جورج ويلارد مرتبكاً مذعوراً وهو على المنحدر المغطى بالعشب . نهض الصبي برعشة خوف واقفاً واتخذ سبيله إلى البلدة . فكّر « ثمة خطب ، لكني لاأعرف ماهو . ليديه علاقة بخوفه مني ومن كل الناس » .

وكان جورج ويلارد على حق . دعونا نالقي نظرة سريعة على قصة اليدين . فربما أثار حديثنا عنهما الشاعر الذي سيحكي القصة العجيبة الخفية عن التأثير الذي كانت اليدان بالنسبة له رايتيّ الوعد الخفاقتين .

في صباه كان وينغ بيدلبوم أستاذ مدرسة في بلدة من ولاية بنسلفانيا . لم يكن عندئذ معروفاً باسم وينغ بيدلبوم ، بل عرف بالإسم الأقل رخامة وهو أدولف مايزر . وكان تلاميذ المدرسة يحبون أدولف مايزر .

وقد خُلِق أدولف مايزر ليكون أستاذاً للشبان الصغار . كان أحد أولئك الرجال النادرين الذين لا يُفهَمون إلا قليلاً ويسيطرون بقوة فائقة الرقة تمرّ كأنها ضعفٌ محبّب . هذا النوع من الرجال لا يختلفون في شعورهم نحو الأولاد المسؤولين عنهم عن أرقّ النساء في حبهم للرجال .

ومع ذلك لم يُفهم هذا منهم إلا بفظاظة . هنا يقتضي الأمر شاعراً . مع أولاد مدرسته كان أدولف مايزر يتمشى مساء ، أو يجلس ليتحدث إليهم حتى الفجر على درج بناء المدرسة تائهاً في شبه حلم . وتذهب يداه هنا وهنالك تداعب أكتاف الأولاد ، تعبث بالرؤوس الشعثة . وحين يتكلّم يصبح صوته رقيقاً موسيقياً . كانت المداعبة موجودة هنا أيضاً : وبشكل ما كان الصوت واليدان ، والربت على الأكتاف وملامسة الشعر جزءاً من جهد الأستاذ ليحمل حلماً إلى العقول الفتية . كان يعبّر عن نفسه بالمداعبة الموجودة في أصابعه . كان أحد الذين انتشرت فيهم القوة التي تخلق الحياة ، ولم تتمركز . وبتأثير ملاطفة يديه خرج الشك والجحود عن عقول الفتيان وبدأوا يحلمون أيضاً .

ثم وقعت المأساة ، فقد أُغرِم صبي نصف عاقل من المدرسة بالأستاذ الشاب . في سريره ليلاً يتخيَّل أشياء لاتُحكى وفي الصباح يذهب ليسرد أحلامه على إنها حقائق . وسقطت من شفتيه المندليتين إتهامات شائنة ، غريبة . وسرَت في أنحاء بلدة بنسلفانيا رعشة . وفي الحال تحولت الشكوك الخفية المبهمة التي سكنت رؤوس الرجال حول أدولف مايزر إلى عقائد .

ولم تترَّيث المأساة . واستُدعي الأولاد المرتجفون من أسرَّتهم . « لقد أحاطني بذراعيه » قال أحدهم « كانت أصابعه تعبث بشعري دائماً » قال آخر .

وبعد ظهيرة أحد الأيام تقدَّم رجل من البلدة ، يدعى هنري برادفورد ، يدير حاناً ، من باب المدرسة . وبعد أن نادى على أدولف مايزر ليخرج إلى ساحة المدرسة راح يضربه بكلتا قبضتيه . وبينما براجمه القاسية تحفر في الوجه المذعور لأستاذ المدرسة ، أخذ غضبه يستعر أكثر فأكثر . وتناثر الأولاد هنا وهناك يصرخون من الفزع كحشرات مضطربة « سأعلِّمك كيف تضع يديك على والدي ، أيها الوحش » هكذا زمجر صاحب الحان ، الذي بدأ يرفس الأستاذ ، بعد أن تعب من ضربه .

وطرد أدولف مايزر من بلدة بنسلفانيا في تلك الليلة . فقد أتت عصبة من الرجال يحملون المصابيح إلى باب البيت الذي يقطنه وحده وأمروه أن يرتدي ملابسه ويخرج إليهم . لقد قرروا شنق أستاذ المدرسة ، لكن شيئاً ما في هيئته ، وكونه ضئيلاً جداً ، وأشيب الشعر ، ومثيراً الشفقة مسَّ قلوبهم وتركوه يهرب . وبينما هو يركض هارباً في الظلام

ندموا على ضعفهم وهرعوا يقتفون أثره ، مطلقين السباب وهم يرمون العصي وكرات ضخمة من الطين على الشكل الذي راح يصرخ ويسرع في ركضه أكثر فأكثر داخل الظلام .

وعاش أدولف مايزر في وابنسبرغ وحده مدة عشرين عاماً . ولم يكن يتجاوز الأربعين لكنه بدا في الخامسة والستين . وحصل على اسم بيدلبوم من صندوق البضائع رآه في محطة للشحن وهو يركض خلال بلدة في شرقي أوهايو . كانت له عمة في واينسبرغ ، وهي امرأة عجوز بأسنان سوداء تربي دجاجاً ، ظل يعيش معها حتى توفيت . وبقي مريضاً مدة عام بعد تجربة بنسلفانيا ، وبعد شفائه صار يشتغل عاملاً مياوماً في الحقول ، يتحرك بذعر وهو يجاهد لإخفاء يديه . ورغم أنه لم يفهم كنه ماحدث شعر أنه يجب وضع اللوم على يديه . وتتاقل آباء الأولاد حديث اليدين مرة بعد مرة . « إحتفظ بيديك لنفسك » هكذا زمجر صاحب الخان وهو يرقص غضباً في باحة المدرسة .

على شرفة منزله القائم قرب الوادي الضيق ، تابع وينغ بيدلبوم تجواله جيئة وذهاباً إلى أن أختفت الشمس وضاعت الطريق الواقعة بعد الحقل بين الظلال القاتمة. دخل إلى بيته واقتطع بعض شرائح الخبز ودهنها بالعسل . وبعدما مرّت دمدمة قطار المساء الذي جرّ معه القاطرات المشحونة بحصاد النهار من التوت البري واستعاد صمت الليل الصيفي ، خرج ثانية ليمشي على الشرفة . وفي الظلام تمكن من رؤية اليدين وكانتا هادئتين . ومع أنه كان لايزال تواقاً لحضور الشاب ، وهو بمثابة الوسط

الذي عبّـر بواسطته عن حبه للانسان ، بات التوق من جديد جزءاً من وحدته وانتظاره . أضاء وينغ بيدلبوم مصباحاً ، وغسل الأطباق القليلة الملوثة من أثر وجبته البسيطة ، ونشر سريراً نقالاً قرب ستارة هي الباب المؤدي إلى الرواق ، واستعد لخلع ثيابه قبل الإيواء إلى النوم . على الأرض المنظّفة جيداً قرب الطاولة انتثرت بضع فتات من الخبز الأبيض ، وبعد أن وضع المصباح على المقعد الواطىء بدأ يلملم الفتات ، وحملها إلى الفم واحدة إثر أخرى بسرعة لاتصدّق . وسط بقعة الضوء القوية تحت الطاولة ، بدا الشكل المنحني كقسيس منهمك في أداء صلاة لكنيسته . الأصابع المرتجفة المعبِّرة ، تومض وهي تمتد وتتراجع عن الضوء ، يمكن للمرء أيضاً أن يخطىء فيظنها أصابع لمتديّن متعصّب وهي تجري مسرعة من عقد إلى آخر من عقود مسبحته .

* * *



حبيبات الورق

كان عجوزاً بلحية بيضاء وأنف ويدين ضخمتين . قبل الفترة التي سنعرفه خلالها بزمن طويل ، كان طبيباً ينتقل على فرس منهك من بيت إلى بيت خلال شوارع واينسبرغ . بعد ذلك تزوج فتاة معها نقود .

فقد ورثت مزرعة كبيرة خصبة بعد وفاة والدها . كانت الفتاة هادئة ، طويلة ، سمراء ، وبدت لكثير من الناس جميلة جداً . وتساءل الجميع في واينسبرغ لماذا تزوجت من الطبيب . وبعد سنة من الزواج ماتت .

كانت براجم يدي الطبيب كبيرة بصورة غير عادية . وحين يطبق يديه تبدو كعنقودين من كرات الخشب غير المدهون . بحجم حبات جوز مثبتة معاً بقضبان من الفولاذ . كان يدخن بغليون حجري وبعد وفاة زوجته صار يجلس طوال النهار في مكتبه الفارغ قرب النافذة المغطاة بشراك العنكبوت ولم يعد يفتح النافذة أبداً . ومرة في أحد أيام آب الحارة حاول فتحها لكنه وجدها ملتصقة وعصية على الفتح وبعد ذلك نُسِيَ أمرها .

ونسيت واينسبرغ الرجل العجوز ، ولكن كان في الطبيب « ريفي » بذور شيء شديد الروعة.وأخذ يعمل وحيداً في مكتبه العتيق في بناية هفنر فوق مخزن شركة باريس للاطعمة المجففة ، بلا هوادة ، يبني شيئاً ثم يدمره بنفسه . أشادصروحاً صغيرة للحقيقة وبعد إنشائها قوّضها ثانية لتتوفر لديه حقائق يقيم منها صروحاً أخرى .

والطبيب « ريفي » كان رجلاً طويلاً ظل يرتدي بذلة واحدة طوال عشر سنين . اهترأت عند الكمّين وظهرت ثقوب صغيرة عند الركبتين والمرفقين . في المكتب كان يرتدي مئزراً أبيض بجيبين كبيرين يحشوهما باستمرار بقصاصات من الورق . بعد بضعة أسابيع أصبحت قصاصات الورق كرات صغيرة مدوّرة وقاسية ، وحين يمتلىء الجيبان يفرغ محتوياتهما على الأرض . وطوال عشر سنين لم يصاحب إلا صديقاً واحداً ، عجوزاً آخر اسمه جون سبانيارد يملك مشتلاً للأشجار.أحياناً، وعلى سبيل المزاح ، يأخذ الطبيب العجوز ريفي من جيبه حفنة من كريات الورق ويرميها على صاحب المشتل . « هذا لكي أزعجك ، أيها العاطفي الأحمق العجوز » يهتف ، وهو يهتز من الضحك .

وقصة الطبيب ريفي وتودّده إلى الفتاة الطويلة السمراء التي أضحت زوجته وخلّفت له نقودها هي قصة غريبة جداً . لذيذة ، كالتفاحات الصغيرة الملتوية التي تنمو في بساتين واينسبرغ . في الشتاء يمشي المرء في البساتين والأرض قاسية من الصقيع تحت قدميه . وتكون التفاحات قد قطفت عن الأشجار من قبل القاطفين . وتُوضَع في براميل وتُشحَن

إلى المدن حيث تؤكل في بيوت مملوءة بالكتب ، والمجلات ، والأثاث والناس . على الأشجار لايوجد إلا بضع تفاحات كثيرة العقد نبذها القاطفون . إنها تبدو كبراجم يدي الطبيب « ريفي » . ويقضمها المرء فاذا بها لذيذة . ففي بقعة صغيرة مدوّرة على جانب التفاحة تتجمّع حلاوتها . ويهرع المرء متنقلاً من شجرة إلى شجرة فوق الأرض المتجمّدة يقطف التفاحات الكثيرة العقد ، الملتوية ويملأ جيوبه منها . القليلون فقط يعرفون مدى حلاوة التفاحات الملتوية .

بدأت علاقة الفتاة والطبيب ريفي العاطفية بعد ظهيرة يوم صيفي . كان في الخامسة والأربعين حين بدأ عادته بملء جيبيه بقصاصات الورق التي تصبح كريات قاسية وترمى بعيداً . تكوّنت العادة بينما هو جالس ذات مرة في عربته الخفيفة خلف الحصان الأبيض المنهك يتنقّل ببطء على طول الطرق الريفية . وعلى الأوراق كتبت أفكار ، نهايات أفكار ، بدايات لأفكار .

صنع عقل الطبيب ريفي الأفكار واحدة بعد أخرى . ومن معظمها كوّن حقيقه شمخت جبّارة في عقله وغيّمت الحقيقة على العالم . وأضحت رهيبة ومن ثم خبت وبدأت الأفكار الصغيرة تتشكّل من جديد

أتت الفتاة الطويلة السمراء لترى الطبيب لأنها كانت حبلى وأصابها الرعب . ووصلت إلى هذه الحال بسبب سلسلة من الظروف الغريبة بدورها .

فنتيجة لموت والدها وأمها والأفدنة الغنية من الأرض التي آلت إليها

أخذ طالبو يدها يجرّون في أعقابها بأعداد كبيرة . وطوال سنتين كانت ترى المتوددين إليها كل ليلة تقريباً . عدا إثنين كانا متشابهين . حدّثاها عن الحب وكان في صوتيهما شيء من توق مشبوب وفي عينيهما أيضاً حين ينظران إليها . الإثنان المختلفان كانا متنافرين جداً . أحدهما ، شاب نحيل بيدين بيضاوين ، ابن الجواهري في واينسبرغ ، يتحدث باستمرار عن العذرية . ولم يترك هذا الموضوع طوال وجوده معها . والآخر ، صبي أسود الشعر بأذنين كبيرتين ، لم يكن يقول أي شيء بل يعمل باستمرار على استدراجها إلى الظلام ، وهناك يبدأ بتقبيلها .

ظنّت الفتاة الطويلة السمراء لفترة من الزمن أنها ستتزوج من ابن الجواهري . كانت تجلس ساعات طويلة صامتة تنصت إلى حديثه إليها ثم ينتابها الخوف من شيء ما . بدأت تشعر أن خلف حديثه عن العذرية شبقاً أعظم مما في كل الآخرين . أحياناً بدا لها إنه وهو يتحدث كأنما يضمها بين ذراعيه . تخيّلته يقلّب جسدها ببطء باليدين البيضاوين وهو يحملق به . كانت تحلم ليلاً أنه ينهش جسدها وفكيه يقطران دماً. حلمت بهذا ثلاث مرات ، ثم حبلت من ذاك الذي لم يقل أي شيء ولكن في لحظات من الحب العنيف كان يعض كتفها بحق وتبقى آثار أسنان بادية لأيام .

بعد أن تعرّفت الفتاة الطويلة السمراء على الطبيب ريفي شعرت أنها لاتودّ مفارقته أبداً . ذهبت إلى مكتبه في صباح أحد الأيام ودون أن تتفوّه بكلمة فهم ماذا حدث لها .

كان في مكتب الطبيب امرأة . هي زوجة الرجل الذي يدير مكتبه واينسبرغ . وكجميع أطباء الريف العتيقي الطراز ، يقوم الطبيب ريفي بخلع الأسنان . وكانت المرأة المنتظرة تضع منديلاً على أسنانها وهي تئن ومعها زوجها . وحين خلع الضرس صرخا معاً وسال الدم على ثوب المرأة الأبيض . ولم تنتبه الفتاة الطويلة السمراء على الاطلاق . وبعد أن ذهبت المرأة والرجل ابتسم الطبيب وقال « سأصحبك في نزهة بالعربة إلى الريف » .

وطوال أسابيع عدّة كانت الفتاة والطبيب يتقابلان كل يوم تقريباً . والظرف الذي ساقها إليه كان المرض ، لكنها كانت كمن اكتشف الحلاوة الكامنة في التفاحات الملتوية ، لم تعد تطيق التفكير ثانية في الثمار كاملةالإستدا، ةالتي تؤكل فيبيوت المدينة.فيالشتاءالذيتبع تعرّفها عليه تزوجت من الطبيب ريفي وفي الربيع الذي تلا ماتت . خلال الشتاء قرأ لها غرائب ونهايات الأفكار التي خطّها على نُتَف الأوراق . وبعد أن قرأها ضحك وأخفاها بعيداً في جيبيه لتصبح كريات قاسية مدوّرة .

* * *





كانت اليزابث ويلارد ، أم جورج ويلارد ، طويلة ونحيلة ووجهها موسوم بندب الجدري . ورغم أنها لم تكن تتجاوز الخامسة والأربعين من العمر ، إلا أن مرضاً غامضاً أنضب عنفوان جسدها . أخذت تتجول بتوانٍ في الفندق القديم المضطرب وتنظر إلى ورق الجدران الباهت والسجاد الرث ، وحين كانت تتاح لها فرصة التجول فيه ، كانت تقوم بعمل الخادمة بين الأسرّة المزروعة بالنائمين من الرجال المسافرين الضخام . وزوجها ، توم ويلارد ، نحيل وجميل ، ربع الكتفين ، وذو خطوة عسكرية سريعة ، وشارب أسود عَمِل على أن يلويه بزاوية حادة إلى أعلى ، حاول أن لايشغل نفسه بزوجته . كان يعتبر وجود قامتها الشبحية الطويلة ، تتنقل ببطء بين الغرف ، بمثابة توبيخ له . حين يفكر فيها يتنامى غضبه وحدّته . لم يكن الفندق مُدرّاً للربح ودائماً على حافة الأفلاس وتمنى أن يتخلص منه . وراح يفكر في البيت القديم والمرأة التي قاسمته العيش فيه حين ساءت الأمور وتدهورت . والفندق الذي بدأ فيه حياة

كلها أمل بات الآن مجرد شبح لما يجب أن يكون عليه الفندق . وحين كان يمشي في شوارع واينسبرغ متأنقاً كرجال الأعمال ، كان يتوقف أحياناً ويتلفت بسرعة حوله وكأنه يخشى أن يتبعه روح الفندق والمرأة حتى في الشوارع . ويبقبق دون قصد « اللعنة على هذه الحياة ، اللعنة ! »

وتوم ويلارد مولع بالنقاشات السياسية في القرية ، وظل لسنين عديدة الديموقراطي الأول في مجتمع جمهوري متعصّب . أحياناً كان يقول لنفسه ، لابد أن يأتي يوم يتغير فيه المدّ السياسي لصالحي ، وسنوات الخدمة العقيمة لها قيمتها الكبرى عند منح الجوائز . وراح يحلم بالذهاب إلى المجلس التشريعي بل وبأن يصبح عضواً في الحكومة . وذات يوم حين نهض أحد أعضاء الحزب الشبان في اجتماع سياسي وبدأ يتفاخر بخدماته المخلصة ، تصاعد غضبه وشحب لونه ، وزجر « اسكت ، ياولد » ناثراً غضبه « وماذا تعرف عن الخدمة ؟ وما أنت سوى صبي ؟ أنظر إلى مافعلتُ أنا : كنتُ ديموقراطياً هنا في واينسبرغ حين كانت الديموقراطية جريمة . في السابق كانوا يصطادوننا بالبنادق » .

كان بين اليزابث وابنها الوحيد جورج رباط عاطفي عميق وغير مُعلَن ، أساسه حلم فتاة صغيرة اندثر منذ أمد بعيد . في حضور ابنها كانت رعديدة متحفّظة ، ولكن أحياناً حين يهرع ليقوم بجولة في البلدة ليمارس عمله كمراسل ، تدخل هي غرفته وتغلق الباب من الداخل وتركع عند المقعد ، الذي كان ذات مرة مائدة مطبخ ، قرب النافذة . هناك قرب الطاولة كانت تنخرط في طقس أشبه بصلاة ، أو التماس

توجهه إلى السماوات . كانت تتوق لأن ترى في القمة الصبيانية شيئاً شبه منسيّ يعاد خلقه كان مرة جزءاً من نفسها. كانت تصلّي لهذا الغرض. وهتفت ، وكان تصميمها من العمق بحيث أخذ جسمها يرتجف . وومضت عيناها وضمت كفّيها بقوة « إذا متُّ ورأيته قد صار شخصية تافهة سخيفة مثلي ، سأعود » هكذا أعلنت « أسأل الله الآن أن يمنحني هذا الامتياز . هذا مطلبي . وسأدفع ثمنه . فليبلوني الله . أنا مستعدة لتلقّي أية ضربة تُوقّع بي ولكن فلْيُعطى ولدي أن يعبّر عن شيء ما لأجلنا معاً » . وبعد أن صمتت غير واثقة ، راحت المرأة تجول ببصرها في أرجاء غرفة ولدها . وأضافت بغموض « ولاتدعه يصبح ذكياً ناجحاً أيضاً » .

ظاهرياً كان يبدو أن العلاقة بين جورج ويلارد وأمه رسمية لا معنى لها . حين مرضت صارت تجلس قرب النافذة في غرفتها ، وكان يزورها أحياناً . ويجلسان عند النافذة يطلان على سطح بناء صغير في الشارع الرئيسي . وحين يديران رأسيهما كان باستطاعتهما أن يريا ، من خلال نافذة أخرى ، شارعاً جانبياً يمر خلف مخازن الشارع الرئيسي ويصل نظرهما حتى الباب الخلفي لمخبز أبنر غروف . أحياناً بينما هما جالسان هكذا يتخيلان مشهداً من الحياة الريفية . وعند الباب الخلفي لدكانه يظهر أبنرغروف حاملاً عصا أو زجاجة حليب فارغة في يده . فقد قام بين الخباز وقطة رمادية تخص سيلفستر ويست ، الصيدلي ، عداء مستحكم . ورأى الولد وأمه القطة تدبّ إلى باب المخبز وما لبثت أن

ظهرت يتبعها الخباز ، الذي راح يسب ويلوّح مهدّداً بذراعيه . كانت عينا الخباز صغيرتين وحمراوين وشعره الأسود ولحيته مملوءة بغبار الطحين . أحياناً يحتدم غضبه ويقذف القطة بالعصي ، بشظايا ؛ جاجة مهشّمة ، بل وببعض أدوات تجارته ، رغم أنها تكون قد اختفت . وفي مرة كسر زجاج نافذة في خلفية مخزن سيننغ للخردوات . وفي الشارع الخلفي تقبع القطة خلف براميل مملوءة بالأوراق الممزقة وشظايا زجاجات تحتشد عليها أسراب من الذباب . ومرة حين كانت وحدها ، وبعد أن شاهدت أحد الانفجارات العقيمة الطويلة من ناحية الخباز ، وضعت اليزابث ويلارد رأسها بين يديها الطويلتين البيضاوين وبكت . وبعدها لم تعد تنظر على طول الشارع الخلفي ، بل حاولت أن تنسى النزاع القائم بين الرجل الملتحي والقطة . لقد بدا لها كأنه بروفة لحياتها هي ، مرعبة بحيويتها .

في المساء حين يجلس الصبي في الغرفة مع أمه ، يجعلهما الصمت يشعران شعوراً مزعجاً . ويسود الظلام ويدخل قطار المساء المحطة . وأسفل الشارع تخطو الأقدام رائحة غادية على الرصيف . وفي باحة المحطة بعد مغادرة قطار المساء ، يشمل المكان صمت ثقيل . وقد يحرك سكينر ليسن ، موظف المحطة ، شاحنة على رصيف المحطة . وبعيداً في الشارع الرئيسي يُسمَع صوت رجل ، يضحك . ويُصفع باب مكتب المحطة . ينهض جورج ويلارد يمشي عابراً الغرفة يتلمّس طريقه إلى أكرة الباب أحياناً يرتطم بكرسي ، ويجعله ينجرّ على الأرض . وتجلس المرأة

المريضة ، ساكنة تماماً ، واهنة . يداها ، البيضاوان الشاحبتان ، تتدليان عبر نهايتي ذراعي الكرسي . تقول « أرى من الأفضل أن تخرج وتنضم إلى أقرانك . أنت تلازم البيت كثيراً » مجاهدة لتخفف من ارتباك الفراق « أظنني سأخرج لأتمشى » يجيب جورج ويلارد ، شاعراً بانزعاج واضطراب .

وذات أمسية في تموز ، حين بات الضيوف العابرون الذين جعلوا من نُزُل ويلارد الجديد منزلهم المؤقت نادرين ، وأمست القاعات التي لايضيئها غير مصابيح الكيروسين الخافتة ، غارقة في الكآبة ، خاضت اليزابث ويلارد مغامرة.فقد مرّ على مرضها بضعة أيام ولم يأت ابنها زيارتها وفزعت . وتفجّرت جذوة الحياة الضعيفة المتبقّية في جسدها لهباً بفعل قلقها ، فتركت سريرها ، ولبست ثيابها وهرعت عبر الرواق إلى غرفة ابنها ، وهي ترتجف من مخاوف مبالغ فيها . فثبّتت نفسها بيديها ، وانزلقت بين جدران الرواق المغطّاة بأوراق وهي تتنفس بصعوبة . وصفر الهواء من بين أسنانها . فكّرت كم هي مغفّلة . وقالت لنفسها « إن له اهتماماته الصبيانية . وربما قد بدأ يرافق فتيات في مشاوير المساء »

كانت اليزابث ترتعب من أن يراها أحد الضيوف في الفندق الذي كان والدها يوماً ولاتزال ملكيّته مسجّلة باسمها في دار القضاء . كان الفندق يخسر زبائنه باضطراد بسبب رثاثته ورأت أنها هي أيضاً رثة . كانت غرفتها تقع في زاوية محجوبة وحين شعرت بقدرتها على المشي أخذت تعمل طواعية بين الأسرّة ، مفضّلة العمل أثناء غياب الضيوف

من الداخل . وحين سمعت ابنها يمشي في المكان ويتكلم بنبرة منخفضة ، ابتسمت . لقد كان لدى جورج ويلارد عادة التكلم بصوت عال مع نفسه وكانت أمه تسر كلما سمعته يتكلم هكذا . فقد شعرت أن هذه العادة تقوّي الرباط السري بينهما . وطالما همست لنفسها « إنه يجوس في المكان ؛ يحاول أن يجد نفسه ، إنه ليس أبله بليداً ، إنه شعلة ذكاء . في داخله سرٌ ما يصارع لينمو . إنه الشيء الذي تركته يقتل داخلي » .

نهضت الأم المريضة الراكعة عند الباب في الرواق المظلم وتوجهت ثانية إلى غرفتها . كانت تخشى أن يفتَح الباب ويفاجئها ابنها . ولما وصلت إلى مسافة آمنة وكادت تنعطف عند الزاوية إلى رواق آخر ، توقفت وأحاطت نفسها بكلتا يديها وانتظرت ، محاولة أن تنفض عنها نوبة ضعف تملكتها . وجود الولد في الغرفة جعلها سعيدة . في سريرها ، خلال ساعات وحدتها ، كانت المخاوف الصغيرة التي تتلبّسها تصبح عمالقة . أما الآن فقد اختفت كلها . وهمست بامتنان « عندما أعود إلى غرفتي سأنام » .

لكن اليزابث ويلارد لم تعد إلى غرفتها وتنام . فبينما هي واقفة ترتجف في الظلام فتِحَ باب غرفة ابنها وإذا بوالد الفتى ، توم ويلارد يخرج . وفي الضوء المسلّط على الباب وقف ممسكاً الأكرة بيده وتكلم . وما قاله أغاظ المرأة .

كان توم ويلارد كبير الأمل بأبنه . طالما ظن نفسه رجلاً ناجحاً ، رغم أنه لم يقم بعمل ناجح أبداً . مهما يكن ، حين غادر « نزل ويلارد

الحديد » دون رجعة ، وضمن عدم رؤية زوجته ، راح يختال في مشيته وبدأ يتحرك كأنه أحد أبرز رجالات المدينة . أراد لابنه أن ينجح . وهو الذي دبر لابنه مركزه في صحيفة واينسبرغ ايغل . والآن ، وبنبرة رصانة في صوته ، كان يلقي نصيحته بخصوص سلوك معين « أقول لك ياجورج ، يجب أن تستيقظ . لقد حدثني ويل هندرسن ثلاث مرات بخصوص المسألة . ويقول أنك تمضي ساعات لاتسمع محدثك وتتصرف كفتاة خرقاء . ماذا بك ؟ » تكلّم بحدّة ، وضحك توم ويلارد بطيبة قلب . قال « حسن ، أعتقد أنك ستتغلب على الأمر ، هذا ماقلت لويل . لست أحمق ولا امرأة . أنت ابن توم ويلارد وستبقى . لاأخشى عليك . وما تقوله يوضح كل شيء . إذا كان عمل الصحافة أدخل في رأسك أن تصبح كاتباً فلا بأس . فقط ليتك تستيقظ لتقوم بهذا العمل أيضاً ، هه ؟ »

مشى توم ويلارد في الرواق بنشاط ، ثم هبط الدرج إلى مكتبه . وسمعته المرأة الواقفة في الظلام يضحك ويتكلم مع أحد الضيوف الذي كان يجاهد ليمضي أمسية مملة بالنوم على كرسي قرب باب المكتب . وعادت إلى باب غرفة ابنها . وغادر الضعف جسدها كما المعجزة ، وتقدّمت بخطى ثابتة . وتسارعت ألف فكرة في رأسها . وحين سمعت ازحزحة كرسي وصوت خربشة قلم على الورق ، استدارت وعادت عبر الرواق إلى غرفتها .

وسكن عقل زوجة صاحب فندق واينسبرغ المقهورة تصميم محدّد . وكان التصميم نتيجة سنين طويلة من التفكير الهادىء العقيم . وقالت

لنفسها « والآن ، سأتصرف . ثمة ماهدد ابني ، وسأردّه عنه » . لقد جنت ، لأن حديث توم ويلارد مع ابنه كان هادئاً طبيعياً ، وكان ثمة تفاهم بينهما . ورغم أنها ظلت تكره زوجها لسنين عديدة ، إلا أن كرهها من قبل كان مجرداً تماماً . لقد كان مجرد جزء من شيء آخر تكرهه . أما الآن ، وبعد سماعها الكلمات القليلة عند الباب ، ، أصبح يتجسد الشيء هذا . وفي ظلام غرفتها ضمت كفيها بقوّة وراحت تحملق حولها . ثم توجهت إلى حقيبة قماشية معلّقة بمسمار على الحائط وأخذت منها مقصاً وحملته بيدها كأنه خنجر . وقالت بصوت عال « سأطعنه . لقد اختار أن يكون صوت الشر وسأقتله . وحين سأقتله سينقصف شيء داخلي وسأموت أيضاً . وسيكون تحرراً لنا جميعاً » .

في يفاعتها وقبل زواجها من توم ويلارد ، كانت لاليزابث سمعة مهزوزة في واينسبرغ . وظلت لسنوات كما يقال « مهووسة بالمسرح » وأخذت تتجول في الشوارع مع ضيوف من المسافرين من فندق والدها ، وهي ترتدي ثياباً صارخة وتستحثهم ليحكوا لها عن الحياة في المدن التي أتوا منها . وذات مرة أذْهَلت البلدة حين لبست ثياب الرجال وركبت الدراجة في الشارع الرئيسي .

كان تفكير الفتاة الطويلة السمراء مشوّشاً ، ويضطرم داخلها قلق عظيم ، وقد تبدّى بطريقتين . أولاً كانت تستحوذ عليها رغبة معذّبة للتغيير ، لإحداث حركة كبيرة واضحة في حياتها . وهذا الإحساس هو الذي وجّه تفكيرها نحو المسرح . وحلمت بأنها أنضمت إلى إحدى

الفرق وراحت تتجول في أنحاء العالم ، وترى وجوهاً جديدة باستمرار وتمنح شيئاً من نفسها لكل الناس . وأحياناً في الليل تكاد تخرج عن طورها من كثرة التفكير ، ولكن حين حاولت أن تتحدث في القضية مع أعضاء الفرق المسرحية التي تصل إلى واينسبرغ وتتوقف في فندق والدها ، لم تصل إلى نتيجة . فلا يبدو انهم كانوا يفهمون ماتقصد وحين تتلقى رداً على طريقتها في التعبير عن انفعالها ، يكون بأن يضحكوا . ويقولون « ليس هكذا ، إنه ممل وغير مثير للاهتمام كهذا المكان . ولا فائدة ترجى منه » .

أما حين كانت تتمشى مع الرجال المسافرين ، أو مع توم ويلارد كما باتت تفعل فيما بعد ، فكان الأمر مختلفاً جداً . كانوا يبدون دائماً متفهمين ومتعاطفين معها . وفي الشوارع الجانبية للقرية ، في الظلام وتحت الأشجار ، كانوا يضمون يدها فتشعر أن ثمة شيئاً فيها مجهولاً يتجلى ويصبح جزءاً من شيء مجهول داخلهم .

ثم كان هناك مظهر آخر لقلقها ، حين يتبدى تشعر بالتحرر لبعض الوقت والسعادة . لم تكن تلوم الرجال الذين يرافقونها ولم تلم توم بيلارد من بعدهم . فالأمر كان نفسه كل مرة ، يبدأ بالقبلات وينتهي ، بعد اندفاعات شعورية غريبة متوحشة ، بالهدوء ثم بنشيج الندم . حين كانت تنشج تضع يدها على وجه الرجل وتخطر لها نفس الفكرة . ورغم أنه يكون ضخماً وملتحياً تتخيل إنه أصبح فجأة ولداً صغيراً . وكانت تتساءل لماذا لايبكي هو أيضاً .

وفي غرفتها ، وهي مندسّة في زاوية من زوايا بيت ويلارد العتيق ، أضاءت اليزابث ويلارد مصباحاً ووضعته على طاولة مفروشة موجودة قرب الباب . وخطر ببالها خاطر وتوجهت إلى الخزانة وأخرجت علبة صغيرة مربعة وضعتها على الطاولة . كانت العلبة تحوي مادة للتجميل مع أشياء أخرى تركتها فرقة مسرحية كانت متوقفة في واينسبرغ . وقررت اليزابث أن تكون جميلة . كان شعرها لايزال أسود وكثيفاً جداً ، مجدّلاً ويحيط برأسها . وبدأ المشهد الذي قررت أن تمثّله في المكتب ينمو في رأسها . لن تكون من يواجه توم بيلارد بتلك القامة الهزيلة المتهدّمة ، بل ستكون مفاجأة غير متوقعة . ستكون طويلة بخدين داكنين وشعر ينهمر غزيراً على كتفيها ، يجب أن تُذهل قامتها ، وهي تنزل الدرج ، الكسالى في مكتب الفندق . ستظهر بصمت — وبسرعة مخيفة . ستبدو كنمرة يتهدّد شبلها خطر ، تخرج من الظلال ، تنسل بلا ضجة وهي تمسك بيدها المقص المفعم بالشر .

أطفأت اليزابث ويلارد المصباح الموضوع على الطاولة ، وغصّة في حنجرتها ، ووقفت واهنة ترتعش وسط الظلام . القوة المعجزة التي قوّت جسدها غادرته ، وعبرت الغرفة وكادت تترنح ، فتشبثت بظهر الكرسي الذي قضت عليه أياماً عديدة طويلة تطل منه عبر السقوف القصديرية إلى الشارع الرئيسي لواينسبرغ . وسمعت في الرواق وقع خطوات جورج ويلارد قادمة من الباب . وبعد أن جلس على كرسي بجانب أمه بدأ حديثه « سأغادر هذا المكان . لاأعرف إلى أين أذهب أو ماذا سأفعل لكني سأرحل » .

انتظرت المرأة الجالسة على الكرسي وارتعشت . وأتاها حافز لتقول « أعتقد أن من الأفضل لك أن تجي . ألا تظن ؟ ستذهب إلى المدينة لتجمع نقوداً ، هه ، تظن أن من الأفضل لك أن تصبح رجل أعمال ، أن تكون ألمعياً ذكياً وحيوياً ؟ » وانتظرت وارتعشت .

هزّ الأبن رأسه ، وقال برصانة « أعتقد أني لاأستطيع إفهامك ، لكن آه ، ليتني أقدر . لاأستطيع الكلام حتى مع أبي . اني لاأحاول . لافائدة لاأعلم ماذا سأفعل . أريد فقط أن أرحل وأرى الناس والأشياء » .

حطّ السكون على الغرفة حيث جلس الفتى والمرأة . ومن جديد ، وكما في بقية الأماسي ، ارتبكا . بعد فترة حاول الفتى أن يتكلم . غيبتي لن تكون فقط لسنة أو اثنتين ، ولكن كنت أفكر » ونهض وتوجه إلى الباب « بشيء قاله لي والدي جعلني أفكر جدياً بالرحيل » وأخذ يعبث بأكرة الباب وأصبح الصمت في الغرفة غير محتمل للمرأة . أرادت أن تصرخ بقوة من الفرح بسبب الكلمات التي خرجت من بين شفتي ابنها ، لكن التعبير عن الفرح صار مستحيلاً بالنسبة لها . « أعتقد أنه من من الأفضل أن تخرج إلى أقرانك . إنك تمكث كثيراً في البيت » قالت وأجاب الأبن وهو يخطو بانزعاج خارجاً من الغرفة ومغلقاً الباب « أظن أني سأخرج لأتمشى قليلاً » .

* * *



الفيلسوف

كان الدكتور بارسيفال رجلاً ضخماً بفم متدل يغطيه شارب أصفر . يرتدي دائماً معطفاً أبيض وسخاً ينتأ من جيبه عدد من السيجار الأسود المعروف بالستوغي . أسنانه سوداء وغير متساوية ، وثمة شيء غريب في عينيه ، فجفن عينه اليسرى كان ينتفض ، ينخفض وينغلق فجأة ، وكأن جفن العين ضلفة نافذة وثمة من يقف داخل رأس الطبيب ويعبث بالحبل .

وكان الدكتور بارسيفال مولعاً بالفتى ، جورج ويلارد . وقد بدأ الأمر حين كان جورج يعمل لمدة عام في صحيفة الواينسبرغ ايغل وتم التعارف باسهام تام من جانب الطبيب .

في وقت متأخر من بعد الظهر توجه ويل هندرسن ، صاحب وناشر صحيفة الإيغل ، إلى الحانة توم ويلي . مشى في الزقاق ودلف من الباب الخلفي للحانة وراح يشرب مشروباً مؤلفاً من مزيج من الجن والصودا . وكان ويل هندرسن شهوانياً وقد وصل إلى سن الخامسة والأربعين . وظن أن الجن يجدد شبابه . وكأغلب الشهوانيين كان

يستمتع بالحديث عن النساء ، وقد ظل متلكئاً لساعة من الزمن يثرثر مع توم ويلي . كان صاحب الخان قصيراً ، عريض الكتفين وذا يدين بعلامة مميّزة ، هي وحمة متوقدة ، كانت تجعل وجوه الرجال والنساء تحمرّ أحياناً ، وقد صبغت أصابع توم ويلي وظهر يديه باللون الأحمر . وبينما هو واقف يتحدث إلى ويل هندرسن راح يفرك يديه معاً ، ومع ازدياد استمتاعه بالحديث يصبح احمرار أصابعه قانياً . بدت يداه كأنهما غمستا بالدم ثم جفّ وبات شاحب اللون .

وبينما كان ويل هندرسن واقفاً على البار ينظر إلى اليدين الحمراوين ويتحدث عن النساء ، جلس مساعده ، جورج ويلارد ، في مكتب صحيفة واينسبرغ ايغل ينصت إلى حديث الدكتور بارسيفال .

وقد ظهر الدكتور بارسيفال بعد ذهاب ويل هندرسن مباشرة . حتى كان يمكن الافتراض أن الطبيب كان يراقب من نافذة مكتبه ورأى الناشر يمشي في الزقاق ، ودخل من الباب الأمامي ووجد لنفسه كرسياً ، ثم أشعل أحد سجائر الستوغي ، ووضع ساقاً على ساق ليبدأ الحديث . بدا معتزماً أن يقنع الفتى بصواب اتّباع سلوك معين كان هو نفسه عاجزاً عن تحديده .

« إذا فتحت عينيك جيداً سترى أنه رغم أني أدعو نفسي طبيباً لكنّي لاأحتفظ الا ببضعة مرضى » هكذا بدأ . « وثمة سبب لهذا . انه ليس مصادفة ، وليس لأني لاأفهم في الطب كأي طبيب هنا . أنا لاأريد مرضى . والسبب ، في الواقع ، لايبدو على السطح . انه يكمن في

شخصيتي التي تتصف ، حين تفكر بها ، بالعديد من الانعطافات الغريبة . لاأعلم لماذا أميل إلى التحدث عن الأمر معلك . قد لاأحرّك ساكناً ومع ذلك ستظل على ثقتك بي . أرغب أن أحظى باعجابك ، بحق . لاأدري لماذا . لهذا أتكلم . انه أمر مسل ، هه ؟ » .

أحياناً كان الطبيب يندفع في سلسلة طويلة من الحكايات عن نفسه . وقد بدت هذه الحكايات للفتى حقيقية جداً ومفعمة بالمعنى ، وبدأ يعجب بالرجل السمين القذر المظهر . وبعد الظهيرة ، بعد ذهاب ويل هندرسن ، كان يتطلّع باهتمام قوي لمجيء الطبيب .

كان قد مضى على وجود الدكتور بارسيفال في واينسبرغ خمس سنوات . حين وصل من شيكاغو كان ثملاً وتشاجر مع ألبرت لونغوورث الحمّال ، وذلك حول أحد الصناديق ، وانتهى الأمر بايداع الطبيب سجن القرية . بعد الافراج عنه استأجر غرفة فوق دكان حذّاء في الجزء الأدنى من الشارع الرئيسي ، وعلّق لافتة تعلنه طبيباً . ورغم أنه لم يكن يتردد على عيادته إلا بضع مرضى ومن أفقر الناس ممّن لايقدرون على الدفع ، بدا مالكاً لكثير من النقود لتغطية حاجاته . كان ينام في المكتب ذي القذارة التي لاتوصف ، ويأكل في مطعم بَفْ كرتر الكائن في بناء صغير مقابل محطة القطار . في الصيف يمتلىء المطعم بالذباب ويكون مئزر بف كارتر أكثر قذارة من أرضه . لكن الدكتور بارسيفال لم يكن يأبه ، بل يدخل المطعم متشامخاً ويضع عشرين سنتاً على طاولة المحاسبة ، ويقول ضاحكاً : أطعمني ماتريد مقابل هذا . قدّم لي الطعام

الذي لايباع لديك ، لايهمني . أنا رجل ذو منزلة ، كما تعلم ، فلماذا أشغل نفسي بما آكل » .

إن حكايا الدكتور بارسيفال التي يحكيها لجورج ويلارد ليس لها بداية ولا نهاية . أحياناً يخطر على بال الفتى انه ربما كانت جميعها ملفّقة ، رزمة أكاذيب . ومع ذلك كان مقتنعاً بأنها تحوي جوهر الحقيقة .

وبدأ الدكتور بارسيفال قائلاً « كنت مراسلاً مثلك هنا ، وذلك في مدينة من إيوا — أم هل كانت إلينويز ؟ لم أعد أذكر ومع ذلك لايهم . لعلني أحاول أن أخفي هويتي ولاأريد أن أبدو شديد الوضوح. ألم يخطر لك أنه من الغريب أن معي من النقود مايفي حاجاتي رغم أني لا أعمل ؟ قد أكون سرقت مبلغاً كبيراً من المال أو تورطت في جريمة قتل قبل أن آتي إلى هنا . ثمة مايشغل البال في الأمر ، هه ؟ لو كنت مراسلاً صحفياً حاذقاً لاستعلمت عني . في تشيكاغو كان هناك طبيب يدعى كرونن وكان قاتلاً . هل سمعت بهذا ؟ وقد قتله بعضهم ووضعوه في حقيبة . وفي الصباح الباكر نقلوها عبر المدينة ، ووضعوها في إحدى عربات القطار وجلسوا هم في مقاعدهم وكأن الأمر لايعنيهم . ثم مشوا في شوارع هادئة حيث الجميع نيام . وكانت الشمس قد بزغت لتوها على البحيرة . مضحك — هه ، تصورهم وهم جالسون يدخنون البايب ويتحادثون وهم منطلقون غير مهتمين مثلي أنا الآن . لعلني أحد هؤلاء الرجال ، مما قد يحدث تحولاً في القضية ، فما رأيك الآن ، هه ؟ » وعاد الدكتور بارسيفال إلى حكايته . « حسن ، إذن كنت مراسلاً ، كما

قلت ، في صحيفة مثلك أنت هنا ، أهرع متجولاً ، أتقصى أخباراً صغيرة لتطبع . كانت أمي فقيرة ، تغسل الثياب . وكان حلمها أن تجعل مني كاهناً في كنيسة وكنت أدرس واضعاً هذا الهدف نصب عيني .

« وقد جن أبي لبضع سنين ، ووضع في مصحة ديتن ، أوهايو . وعندئذ تخليت عن كل شيء ! كل هذا وقع في أوهايو ، هنا في أوهايو . ستحصل على مايساعدك إذا استعلمت عني .

« كنت سأخبرك عن أخي ، انه سبب كل ماحدث ، وهذا ما أردت الوصول إليه . فقد كان أخي دهّان سكك حديدية وكان يعمل على خط البيغ فور . وأنت تعلم أن هذا الخط يمر بأوهايو هنا . كان يعيش مع غيره من الرجال في صندوق سيارة ، يتنقلون من مدينة إلى مدينة ، يدهنون كل مايتعلق بسكك الحديد — مفاتيح التحويل ، بوابات التقاطع ، الجسور ، والمحطات .

« كان لون محطات البيغ فور برتقالياً بشعاً . كم كرهت ذاك اللون ! وكان أخي دائماً ملطّخاً به . ويوم تسلّم النقود كان يسكر ويعود إلى البيت ولا يزال يرتدي ثيابه الملطّخة بالدهان ومعه نقوده . لم يكن يعطيها لأمه بل يكوّمها على طاولة المطبخ .

« ويروح يحوم حول البيت بثيابه الملطّخة بالدهان ذات اللون البرتقالي البشع . أتخيل منظره . وتدخل أمي إلى البيت من سقيفة صغيرة في الخلف ، وهي المرأة الضئيلة ، ذات العينين الحمراوين الحزينتين ، وهناك قضت حياتها منحنية فوق الطشت تغسل ثياب الناس القذرة .

كانت تدخل وتقف قرب الطاولة، وتفرك عينيها بمئزرها المغطى برغوة الصابون .

ويزجر أخي « لاتلمسيها ! إياكِ أن تلمسي النقود » ، ثم يأخذ هو خمسة أو عشرة دولارات ويذهب ليتسكع بين الحانات . وبعد أن ينفق ماأخذ يعود ليأخذ المزيد . لم يكن يعطي أمي أي شيء ويظل يتنقّل حتى ينفقه كله ، على دفعات ، ومن ثم يعود إلى عمله مع طاقم الدهانين إلى خط سكة الحديد . وبعد ذهابه تبدأ الأشياء بالوصول إلينا ، كالبقالة وما إليها . وأحياناً يكون هناك ثوب لأمي أو زوج من الأحذية لي .

« شيء غريب ، هه ؟ كانت أمي تحب أخي أكثر مني ، رغم أنها لم تقل أبداً كلمة لطيفة لأي منا بل دائماً تهذر رائحة غادية بهددنا إذا جرؤنا على لمس النقود التي قد تبقى ملقاة على الطاولة لثلاثة أيام .

« وتابعنا حياتنا على مايرام . ودرست أنا لأصبح قسيساً وأصلي . كنت جحشاً نظامياً في القاء الصلوات . كان يجب أن تسمعني . حين مات والدي ظللت أصلي طول الليل ، كما كنت أفعل أحياناً حين يكون أخي في المدينة يشرب ويتجول ليشتري لنا الأغراض . وفي المساء بعد العشاء أركع قرب المائدة حيث تكون النقود وأظل أصلي لساعات . وحين لايراني أحد أسرق دولاراً أو أثنين وأضعهما في جيبي . وهذا يدفعني للضحك الآن ولكن حينئذ كان أمراً مرعباً . وكنت أفكر فيه طول الوقت . كنت أحصل على ستة دولارات في الأسبوع من عملي في الصحيفة ودائماً أحملها من فوري إلى أمي . وتلك للدولارات القليلة التي

أسرقها من نقود أخي أنفقها على نفسي . طبعاً ، على التوافه ، كالحلوى والسجائر وما شابه .

« حين مات أبي في المصحة في ديتون ، ذهبت إلى هناك .اقترضت بعض النقود من الرجل الذي أعمل عنده واستقليت القطار ليلاً .كانت تمطر ؛ وفي المصحة عاملوني وكأني ملك .

« فقد علم الموظفون في المصحة أني مراسل صحفي ، وخافوا . فكما تعلم ، أثناء مرض أبي كان بعضهم مهملاً ، وآخرون لامبالين . وظنوا أني قد أكتب عن الأمر في الصحيفة وأثير فضيحة ، ولم أكن اعتزم القيام بمثل هذا .

« مهما يكن ، دخلت إلى الغرفة التي يسجّى فيها والدي وباركت جثة الميت . وأتساءل الآن ماالذي أدخل هذه الفكرة إلى رأسي .مع ذلك ، ما كان أخي ليضحك على هذا . ووقفت فوق الجثة ومددت يدي . ودخل مدير المصحة مع بعض مساعديه ، ووقفوا حولي يبدو عليهم الارتباك . كان شيئاً مسلياً . فقد مددت يديّ وقلت ، « فليحل السلام على هذه الجثة » . هذا ماقلت .

ويقفز على قدميه قاطعاً حكايته ، ويبدأ الدكتور بارسيفال بالتمشي جيئة وذهاباً في مكتب صحيفة الواينسبرغ ايغل حيث يجلس جورج منصتاً . كان مرتبكاً ، لصغر المكتب ، ويصطدم بالأشياء باستمرار . قال « أي أبله أنا حتى أتكلم ، ليس هذا ماجئت لأجله ولا لأفرض صداقتي عليك . لدي أمر آخر في ذهني . أنت مراسل كما كنت أنا

مرة وقد لفتَّ انتباهي ، وربما أصبحت في آخر الأمر أبله آخر . أريد أن أحذرك وأظل أحذرك . لهذا جئتك » .

وبدا الدكتور حديثه عن موقف جورج ويلارد من الناس . وبدا للفتى أن الرجل يحمل وجهة نظر واحدة ، ليجعل الجميع يبدون حقيرين ، وأعلن « أريد أن أملأك بالحقد والاحتقار لكي تصبح مخلوقاً متفوقاً. انظر إلى أخي . لقد كان عظيماً ، هه ؟ إنه يكره الجميع . أنت لاتعلم بأي احتقار كان ينظر إلى أمه وإليّ. ألم يكن هو المتفوق بيننا ؟ أنت تعلم انه كان . أنت لم تره ومع ذلك جملتك تشعر بهذا نحوه . لقد منحتك هذا الاحساس . لقد مات ، ففي إحدى المرات حين كان ثملاً تمدد على خط سكة الحديد ومشت العربة التي كان يسكنها مع رفاقه فوقه » .

* * *

وفي أحد أيام آب مرّ الدكتور بارسيفال بمغامرة في واينسبرغ . فقد ظل جورج ويلارد يتردد على مكتب الدكتور بارسيفال لمدة شهر ويقضي ساعة معه . وكانت الزيارات هي تلبية لرغبة الطبيب ليقرأ على الفتى صفحات من كتاب منهمك في كتابته . وكان سبب مجيئه للعيش في واينسبرغ هو كتابته للكتاب الذي أعلن عنه .

وذات صباح من شهر آب ، وقبل مجيء الفتى ، حدث أمر في مكتب الدكتور . فقد وقع حادث في الشارع الرئيسي ، حيث أخاف قطار مجموعة أحصنة ودهسها ، ووقعت فتاة صغيرة ، هي ابنة أحد المزارعين ، عن عربتها وقتلت .

وساد الهرج في الشارع الرئيسي وتعالى الهتاف لحضور طبيب . وسارع أطباء البلدة النشطين الثلاثة بالحضور لكنهم وجدوا أن الطفلة قد ماتت . وهرع واحد من الحشد إلى مكتب الطبيب بارسيفال الذي رفض بكل بلادة حس أن يخرج من مكتبه ليعاين الطفلة الميتة . والحقيقة ، أن الرجل الذي أتى ووقف على الدرج ليستدعيه كان قد أسرع عائداً قبل أن يسمع رفضه .

حدث كل هذا دون علم الدكتور بارسيفال ، وحين أتى جورج ويلارد إلى مكتبه رأى الرجل يرتجف رعباً ، وهتف مهتاجاً « سيثير تصرفي سكان البلدة . ألا أعرف الطبيعة البشرية ؟ ألاأعلم ماذاسيحدث؟ سينتشر خبر رفضي في البلدة ، وسيجتمع الناس جماعات ويتحدثون عنه ، وسيأتون إلى هنا ، وسنتشاجر وسيدور كلام عن شنقي ، وسيعودون حاملين حبلاً في أيديهم » .

ارتعش الدكتور بارسيفال خوفاً ، وأعلن مؤكداً « لدي إحساس مسبق . قد لايحدث ما أقول هذا الصباح . قد يؤجل حتى المساء لكني سأشنق أخيراً . سيثور الجميع . سأشنق على عمود كهرباء في الشارع الرئيسي » .

وذهب إلى باب مكتبه ، وراح ينظر بخوف أسفل الدرج المؤدي إلى الشارع . وعند عودته بدأ الخوف المطل من عينيه يتحول إلى شك . ومشى على رؤوس أصابعه عابراً الغرفة ، وربت على كتف جورج

ويلارد . وهمس ، هازاً رأسه « إذا لم يحدث الآن ، ففي وقت آخر ، لكني في النهاية سأصلب ، وسأصلب بلا أمل » .

وبدأ الدكتور باروسيفال يتوسل إلى جورج ويلارد ، وألح « يجب أن تنتبه إليّ . إذا حدث شيء ربما استطعت أن تكتب الكتاب الذي لم أقدر على انجازه . فكرته بسيطة جداً ، بسيطة جداً بحيث أنك إذا لم تكن حريصاً فقد تنساها . وهي كما يلي — إن كل إنسان في هذا العالم هو مسيح والكل يُصلَّب . هذا ما أريد الافضاء به . لاتنسه . مهما حدث ، إياك أن تستسلم للنسيان » .

* *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا احد يعلم

نهض جورج ويلارد عن طاولته في مكتب صحيفة واينسبرغ ايغل ، ناظراً حوله بحذر ، واسرع خارجاً من الباب الخلفي . كانت ليلة دافئة كثيرة الغيوم ورغم أن الساعة لم تكن قد دقت الثامنة ، ساد الزقاق الخلفي من مكتب الايغل ظلام حالك ، وطرقت حوافر مجموعة خيول ، مربوطة إلى عمود في مكان ما من الظلام ، الأرض المرصوصة ، وقفزت قطة من بين قدميّ جورج ويلارد وفرت داخل الليل . كان الشاب مضطرباً ؛ فطوال النهار وهو يتجول كمن دوّخته ضربة ، وراح يرتعش وهو واقف في الزقاق كأنه خائف .

مشى جورج ويلارد في الزقاق وسط الظلام ، بانتباه وحذر . كانت الأبواب الخلفية لدكاكين واينسبرغ مفتوحة ورأى منها رجالاً جالسين تحت مصابيح الدكاكين . في مخزن مايربوم نوشن وقفت السيدة ويلي زوجة صاحب الحان على طاولة المحاسبة وهي تحمل سلة على ذراعها ، وكان سيد غرين الموظف ينتظرها ، مائلاً على طاولة المحاسبة ويتحدث برصانة .

ربض جورج ويلارد قليلاً ثم قفز عابراً ممر الضوء الخارج من

الباب ، وأخذ يركض متقدماً في الظلام . وفي خلفية حانة إد غريفث استلقى جيري بيرد سكّير البلدة نائماً على الأرض . وتعثّر الراكض بالساقين المتمددتين ، وضحك ضحكاً متقطعاً .

كان جورج ويلارد قد انطلق ليخوض مغامرة . وكان طوال النهار يحاول أن يقرر الخوض فيها وها هو الآن يعمل . منذ الساعة السادسة وهو جالس في مكتب الواينسبرغ إيغل يحاول التفكير .

ولم يصل إلى قرار ، بل قفز بدونه على قدميه ، وأسرع مخلفاً ويل هندرسن وراءه يقرأ بروفة طباعية في غرفة الطباعة ، وانطلق يركض في الزقاق .

مرّ جورج ويلارد من شارع إلى شارع ، متجنباً الناس . عبر الشارع وعاد فعبره ثانية . وحين صادف عمود كهرباء أرخى قبعته على وجهه . لم يجرؤ على التفكير . واستحوذ على تفكيره خوف ، لكنه كان نوعاً جديداً من الخوف . كان خائفاً أن يفسد المغامرة التي انطلق لخوضها ، أن يفقد شجاعته ويقفل راجعاً .

وجد جورج ويلارد لويز ترنيون في مطبخ بيت والدها ، تغسل الصحون على نور مصباح الكيروسين . كانت واقفة خلف ستارة الباب في المطبخ الصغير الشبيه بالسفينة ، والواقع في الجزء الخلفي من البيت . وقف جورج ويلارد مستنداً إلى أوتاد السياج وحاول أن يسيطر على ارتعاشة جسده . لاتفصله عن المغامرة إلا قطعة أرض صغيرة مزروعة بالبطاطا . ومرت خمس دقائق قبل أن يثق من نفسه ليناديها عليها . ونادى

« لويز ! أوه ، لويز ! » وعلق صوته في حنجرته ، وصار صوته همساً مبحوحاً .

خرجت لويز ترنيون عابرة أرض البطاطا وهي تحمل خرقة تجفيف الصحون في يدها . وقالت عابسة « من قال لك أني أريد الخروج معك ، ماالذي يجعلك واثقاً جداً ؟ » .

لم يجب جورج ويلارد . ووقف الأثنان صامتين في الظلام يفصل بينهما السياج . قالت « أبي في الداخل . سآتي . انتظرني عند حظيرة ويليامس »

كان المراسل الصحفي الشاب قدتسلّم رسالةمن لويز ترنيون . وصلت في ذاك الصباح إلى مكتب واينسبرغ إيغل . كانت موجزة وتقول « أنا لك إن رغبت » . وانزعج لأنها في الظلام قرب السياج ادّعت بأن لا شيء بينهما . وغمغم وهو يمشي في الشارع ماراً بصف من الأراضي المهجورة مزروعة ذرة : « ماأجرأها ! آه وحق الله جريئة » كانت الذرة تعلو حتى الكتف وقد زُرِعَت حتى الرصيف .

حين خرجت لويز ترنيون من باب بيتها الأمامي كانت لاتزال ترتدي ثوبها القطني المخطط الذي كانت تغسل الأطباق به . لم تكن تعتمر قبعة ، ورآها الفتى واقفة ولا تزال يدها تمسك أكرة الباب تتحدث إلى شخص في الداخل ، هو لاشك جاك ترنيون ، والدها . كان جاك ترنيون نصف أصم وكانت تصرخ . أغلقَ الباب وشمل الظلام والصمت

كل شيء في الشارع الصغير الجانبي ، وأصبح جورج ويلارد يرتجف بأعنف مما سبق .

وقف جورج ولويز في ظل مخزن ويليامس ، لايجرؤان على الكلام . لم تكن جميلة جمالاً ملفتاً للنظر وكان ثمة لطخة سوداء على جنب أنفها ، وظن جورج أنها لابد قد عركت انفها باصبعها بعد أن أمسكت بعض أواني المطبخ .

وراح الفتى يضحك بعصبية ، وقال « الجو دافىء » ، وأراد أن يمسك بيدها . وفكر « لست شجاعاً جداً » . وقرر أن مجرد لمسة لطيات الثوب المتسخ سيكون مصدر متعة شديدة له ، وبدأت تراوغ « أتظن أنك أفضل حالاً مني ، لاتقل لي ، أظنني أعرف » قالت وهي تقترب منه .

وانبجس من جورج ويلارد فيض من الكلمات ، وتذكر النظرة المستترة خلف عيني الفتاة حين تقابلا وفكر في الملاحظة التي كتبتها ، وغادره الشك ، والحكايات المهموسة حولها التي تناقلتها القرية عضّدت من ثقته ، وجعلته الذكر التام ، الشجاع والعدواني . في قلبه لم يكن يتعاطف معها . واستحثها « آه ، هيا ، سنكون على مايرام . لن يعلم أحد بأي شيء وكيف سيعرفون ؟ »

وأخذا يمشيان على رصيف ضيق نمت بين شقوقه نباتات طفيلية طويلة ، وقد فقدت بعض أحجاره ، والرصيف خشن وغير منتظم . وضم يدها التي كانت بدورها خشنة ووجد أنها صغيرة بشكل مبهج . « لاأستطيع الذهاب بعيداً » وكان صوتها هادئاً ، متماسكاً .

عبرا جسراً يجري فوق جدول صغير واجتازا حقلاً مهجوراً نمت فيه الذرة . وانتهى الطريق . وفي الممر الموجود على جانب الطريق اضطرا للمشي واحداً وراء الآخر . كان حقل ويل أوفرتن المزروع توتاً يمتد على جانب الطريق وثمة أكوام من ألواح الخشب .

* * *

حين عاد جورج ويلارد إلى الشارع الرئيسي كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة وقد بدأت تمطر . قطع الشارع الرئيسي مشياً ثلاث مرات . كان مخزن سيلفستر ويست للأدوية لايزال مفتوحاً فدخل وابتاع سيجاراً . وحين خرج شورتي كراندال معه إلى الباب سرّ ، ووقف الاثنان خمس دقائق تحت ظلّة المخزن وتحدثا ، وشعر جورج ويلارد بالرضى . كانت حاجته للتحدث إلى أحدهم أكبر من أي شيء آخر . وانعطف عند الزاوية منحدراً إلى « نُزُل ويلارد الجديد » وهو يصفّر بنعومة .

على الرصيف بجانب مخزن ويني للأطعمة المجففة ، حيث كان ثمة سياج من قطعة خشب عالية مغطاة باعلانات السيرك ، وقف يصفّر في الظلام دون أية حركة ، وقد أرهف سمعه ، وكأنه ينصت إلى صوت ينادي اسمه . وعاد يضحك من جديد بعصبية . وغمغم بعناد « ليس لديها أي شيء ضدي ، ولاأحد يعلم » وتابع طريقه .

* * *



وَرَعْ

قصّة في أربعة أجزاء

الجـــزء الأولـــ

كان دائماً يجلس أمام شرفة البيت ثلاثة أو أربعة من العجائز ، أو يضربون في أنحاء حديقة مزرعة بنتلي . ثلاثة منهم نساء هنّ أخوات جس . كانوا مجموعة لالون لها ، أصواتهم ناعمة . ثم كان هناك عجوز صامت ذو شعر أبيض خفيف هو عم جِس .

كان بيت المزرعة مبنياً من الخشب ، عبارة من ألواح خشبية تغطي هيكلاً من الدعامات . لم يكن في الحقيقة بيتاً واحداً بل مجموعة من البيوت مضمومة إلى بعضها اتفاقاً . من الداخل ، كان المكان مملوءاً بالمفاجآت . يصعد المرء من غرفة المعيشة إلى غرفة الطعام ودائماً ثمة درج ليصعد أو ليهبط حين الانتقال من غرفة إلى أخرى . وقت الوجبات يصبح المكان كالخلية . في لحظة يكون هادئاً جداً ، ومن ثم تفتح أبواب ، وتقرقع أقدام على الدرج ، وتعج غمغمة أصوات ناعمة ويظهر أناس من دزينة زوايا خفية .

إلى جانب العجائز ، المذكورين آنفاً ، ثمة غيرهم كثيرون يعيشون في بيت بنتلي . كان هناك أربعة رجال مستأجرين ، وامرأة تدعى العمة كالي بيب ، مسؤولة عن صيانة المنزل ، وفتاة بليدة الذهن اسمها اليزا



ستوش ، ترتب الأسرّة وتساعد في الحلب ، وصبي يعمل في الأسطبلات وجس بنتلي نفسه ، مالك ومدير كل شيء .

بعد مرور عشرين عاماً على انتهاء الحرب الأهلية ، كان ذاك الجزء من شمالي أوهايو حيث تقع مزارع بنتلي ، قد بدأ يبرز وسط حياة الريادة . في ذلك الوقت كان لدى جس آلة لحصد القمح ، وقد بنى مخازن حبوب حديثة وكانت أغلب أراضيه تصرّف المياه بمصرف من القرميد الجيد الصنع ، ولكن لكي نفهم الرجل علينا أن نعود إلى الوراء إلى أيام أبكر .

كانت عائلة بنتلي تقطن شمالي أوهايو قبل زمن جس بأجيال عديدة . أتوا من ولاية نيويورك وامتلكوا أرضاً حيث كانت المقاطعة لاتزال حديثة العهد ويمكن امتلاك الأرض فيها بسعر منخفض . وظلوا لوقت طويل ، مع غيرهم من أناس الغرب الأوسط ، فقراء جداً . وكانت الأرض التي استقروا عليها كثيفة الأشجار وأرضها مغطاة بجزوع ساقطة وشجيرات نامية . وبعد جهد طويل قاس في تمشيطها وقطع الأشجار ، بقيت هناك الجذع للاعتناء بها . وتخلّلت المحارث الحقول وانتزعت الجذور الدفينة ، وانتشرت الأحجار ، وتجمعت المياه في المنخفضات ، ونباتات الذرة الغضة اصفرت ، وسقمت ثم ماتت .

وحين انتقلت ملكية المكان إلى جس بنتلي واخوته ، كان القسم الأكبر من عمل التمشيط الشاق قد انتهى ، لكنهم تعلقوا بالتقاليد القديمة ، وراحوا يعملون كالحيوانات المُساقة . وعاشوا حياة هي تماماً

كحياة المزارعين . وخلال الربيع ومعظم الشتاء تصبح الطرقات المؤدية إلى بلدة واينسبرغ بحراً من الطين . وكان شبان العائلة الأربعة يعملون بكد في الحقول طوال النهار، ويأكلون بكثافة من الطعام الخشن ، الكثير الشحم ، وفي الليل ينامون كوحوش متعبة على أسرّة من القش . ولم يدخل إلى حيواتهم إلا القليل مما ليس خشناً ووحشياً ، أما من الخارج فقد كانوا هم أنفسهم أفظاظاً ووحوشاً . في أوقات بعض ظهيرة أيام السبت يشدّون فريقاً من الأحصنة إلى عربة بثلاثة مقاعد وينطلقون إلى البلدة . وهناك يتجمعون حول المدافىء في المخازن ويتحدثون إلى بعض المزارعين أو أصحاب المخازن . كانوا يرتدون ثياب العمل الموحّدة ، وفي الشتاء يرتدون معاطف ثقيلة مبرقعة بالطين . حين يمدون أيديهم إلى حرارة المدافىء تظهر مشققة حمراء . كان يصعب عليهم خوض الأحاديث لذا يبقون صامتين معظم الوقت . وبعد أن يشتروا اللحم ، والدقيق ، والسكر ، والملح ، يتوجهون إلى إحدى حانات واينسبرغ ليشربوا البيرة . وتحت تأثير الشراب تنطلق شهواتهم الطبيعية القوية أصلاً بعد أن تكون قد كبتت بالكدح البطولي لشق أرض جديدة . كان يتملكهم نوع من الإتقاد الشعري الفظ والحيواني . وفي الطريق إلى البيت يقفون على مقاعد العربة ويصرخون في وجه النجوم . أحياناً يتقاتلون طويلاً وبقسوة ، وفي مرات أخرى يطلقون الأغاني . وذات مرة ، ضرب انوك بنتلي ، وهو أكبر الأولاد ، أباه ، توم بنتلي العجوز ، بعقب سوط سائق الخيل ، وكاد العجوز أن يموت . وظل أنوك أياماً

مختبئاً في القش في مخزن الأسطبل على استعداد للهرب إذا اتضح أن نتيجة انفعاله الآني هي جريمة قتل . وبقي على قيد الحياة بفضل الطعام الذي كانت تحضره له أمه ، وكانت أيضاً تخبره عن حالة الرجل الجريح. وحين انتهى الأمر على خير خرج من مخبئه وعاد إلى عمل تمشيط الأرض وكأن شيئاً لم يكن .

* * *

أحدثت الحرب الأهلية تحولاً حاداً في خطوط أفراد عائلة بنتلي ، وكانت المسؤولة عن بروز الأبن الأصغر ، جس.فقد جُنِّد كل من أنوك ، وأدوارد ، وهاري وويل بنتلي في الجيش وقبل انتهاء الحرب الطويلة كانوا قد قتلوا جميعاً.وبعد أن ذهبوا بوقت قصير إلى الجنوب ، حاول توم العجوز أن يدير المكان لكنه لم ينجح . ولما مات آخر الأربعة أرسل كلمة إلى جس يطلب منه العودة إلى البيت .

ثم ماتت الأم ، التي ظلت مريضة لسنة ، وأصاب الأب إحباط عام ، وراح يتحدث عن بيع المزرعة والإنتقال إلى المدينة ، وكان يقضي يومه هازاً رأسه ومغمغماً ، وأهمل العمل في الحقول ونمت الأعشاب الضارة عالية وسط الذرة . واستأجر العجوز توم رجالاً لكنه لم يحسن ادراتهم . بعد ذهابهم إلى الحقول في الصباح كان يتجول في الغابات ويجلس على جذع شجرة . أحياناً كان ينسى أن يعود إلى البيت ليلاً وتذهب إحدى بناته لتبحث عنه .

حين عاد جس بنتلي إلى المزرعة وبدأ يتولى الأمور كان شاباً

ضئيلاً ، حساساً في مظهره ، في الثانية والعشرين من العمر . كان قد ترك المنزل وهو في الثامنة عشرة ليلتحق بالمدرسة ليتثقف ويصبح في آخر الأمر قساً في الكنيسة المشيخية . وطوال فترة طفولته اعتُبِرَ في بلدنا ماسمّي بـ « الخروف الضال » ولم ينسجم مع اخوته . لم يفهمه من بين أفراد العائلة غير أمه وقد ماتت الآن . وعندما عاد إلى المنزل ليتولى أمر المزرعة ، التي كانت في ذلك الوقت قد امتدت إلى أكثر من ستماية إكر ، سخر الجميع في المزارع وفي مدينة واينسبرغ المجاورة من فكرة محاولته متابعة العمل الذي قام به إخوته الأربعة الأقوياء .

ولاشك أنه كان ثمة مايبعث على الابتسام . وبمقاييس أيامه لم يكن جس يبدو رجلاً على الاطلاق . كان ضئيلاً ونحيلاً وذا بنية أنثوية ، ويرتدي رداءً أسودَ طويلاً وحزاماً ضيقاً أسود ، ملتزماً بهذا باللباس التقليدي للقساوسة الشبان . وقد تندّر الجيران حين رأوه ، بعد غياب سنين ، وتندروا أكثر حين رأوا المرأة التي تزوجها من المدينة .

والحقيقة ، إن زوجة جس سرعان ماهلكت . وربما كان ذلك خطأ جس . فمزرعة في شمالي أوهايو بعد سنين الشقاء التي تلت الحرب الأهلية لم تكن المكان الملائم لامرأة رقيقة ، مثل كاترين بنتلي . وكان جس قاسياً عليها كما على كل من حوله في تلك الأيام . وحاولت أن تقوم بالعمل الموكل إليها كما فعلت جميع النسوة من حولها وتركها تستمر هكذا دون أن يتدخل . فكانت تساعد في الحلب وانجاز جزء من عمل المنزل ، فترتب الأسرة للرجال وتعد لهم طعامهم . ظلت تعمل مدة عام كل يوم

من الفجر وحتى وقت متأخر من الليل ومن ثم بعد أن وضعت أول وليد لها ماتت .

أما جس بنتلي — فرغم رقة بنيته كان في داخله شيء ليس من السهل قتله . كان له شعر أسمر وعينان رماديتان تارة تسلّطان نظرات قاسية مباشرة ، وتارة ترتعشان بقلق . ولم يكن فقط نحيلاً بل وقصير القامة . فمه كفم طفل حساس عاقد العزم . وكان جس بنتلي متعصباً . كان رجلاً ولد في غير زمانه ومكانه ، لذا تألم وسبب الألم للآخرين ، ولم ينجح أبداً في الحصول على مايريد من الحياة ولم يعرف ماذا يريد . وخلال فترة وجيزة من الزمن من عودته إلى مزرعة بنتلي بث في قلوب الجميع شيئاً من الخوف منه ، حتى زوجته التي كان يجب أن تكون قريبة منه مثل أمه . بعد مجيئه بأسبوعين ، نقل إليه توم بنتلي ملكية المكان كله وانسحب إلى الظل . كلهم ينسحبون إلى الظل . ورغم صغر سنه وقلة خبرته ، استطاع جس أن يسيطر على نفوس أهله . كان رزيناً جداً في كل مايفعل حتى قيل أن لاأحد فهمه . جعل الجميع يعملون في المزرعة كما لم يعملوا من قبل ، ومع ذلك لم يَسُد الفرح المزرعة . وإذا كانت الأمور قد سارت سيراً حسناً فقد كانت لصالح جس وليس لمصلحة الناس الذين يعيلهم أبداً . وكألف من الرجال الأقوياء الذين أتوا إلى العالم هنا في أميركا في تلك الأيام المتأخرة ،لم يكن جس إلا نصف قوي . أمكنه أن يسيطر على الناس لكنه لم يستطع السيطرة على نفسه . وتسيير المزرعة بالشكل الذي لم يسبق له مثيل كان سهلاً جداً بالنسبة له . حين

عاد إلى وطنه من كليفلاند حيث كان ملتحقاً بالمدرسة ، أغلق على نفسه دون كل الناس وراح يضع الخطط . كان يفكر في المزرعة ليل نهار ، وهذا ماجلب له النجاح . كان بقية الرجال في المزارع المجاورة يبذلون جهداً شاقاً مما يمنعهم من التفكير ، أما بالنسبة لجس فكان التفكير في المزرعة ووضع الخطط الدائم لإحراز نجاحها مصدر ارتياح له . وأرضى جزئياً شيئاً موجوداً في طبيعته المتقدة . بعد عودته مباشرة بنى جناحاً اضافياً للبيت القديم وفي غرفة كبيرة تواجه الغرب فتح نوافذ تطل على باحة مخزن الحبوب ونوافذ أخرى تستشرف الحقول . وجلس قرب النافذة يفكر ، ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم جلس يستشرف الأرض بموقعه الجديد في الحياة . وتصاعد لهب الشيء المتقد المضطرم في طبيعته وقست نظرة عينيه . أراد أن يجعل المزرعة تنتج كما لم تنتج مزرعة في المقاطعة كلها ثم رغب في شيء آخر . في الجوع الغامض داخله الذي جعل عينيه ترفان وزاد من عمق صمته أمام الناس . كان مستعداً لدفع الكثير ليحظى بالسكينة ، لكن خوفاً يسكن داخله جعل من المستحيل عليه أن يحقق هذه السكينة .

كان جس بنتلي حياً بكل جزء من جسده ، وقد تجمّعت في هيكله الصغير قوة مجموعة كبيرة من الرجال الأقوياء . ولطالما كان حيوياً بصورة خارقة في طفولته في المزرعة ، وبعدئذ وهو شاب في المدرسة . في المدرسة درس وفكر في الله والكتاب المقدس بكل عقله وقلبه . وبمرور الوقت صارت معرفته بالناس أفضل ، وبدأ يفكر في نفسه

بوصفه رجلاً غير عادي ، مختلفاً عن أترابه ، وتملكته رغبة جامحة بجعل حياته شيئاً ذا أهمية بالغة ، وحين نظر حوله إلى أقرانه ، ورأى كيف يعيشون كالبلهاء ، تبدّى له أنه لايستطيع احتمال أن يصبح أبله مثلهم . ورغم استغراقه في نفسه وقدره الخاص ، كان غافلاً حقيقة أن زوجته الشابة كانت تقوم بعمل امرأة قوية ، حتى بعد أن حملت بولدها ، وأنها كانت تقتل نفسها في خدمته ، ولم يقصد أن يقسو عليها . وحين نقل إليه والده ، العجوز الملويّ من التعب ، ملكية المزرعة وأسعده أن يزحف إلى إحدى الزوايا وينتظر الموت ، هز كتفيه وطرح الرجل العجوز من تفكيره .

جلس جس في الغرفة عند النافذة المطلة على الأرض التي آلت إليه مفكراً في مشاكله هو . وسمع من الأسطبلات صوت حوافر خيوله ، وحركة مواشيه المتقلقلة . ورأى بعيداً في الحقول مواشي أخرى تسرح فوق الهضاب الخضر . وتناهت إليه أصوات الرجال ، رجاله العاملين لحسابه ، عبر النافذة . وسمع من بيت إعداد الحليب صوتاً مكتوماً ، للممخضة التي تهزها ببراعة الفتاة ستوتن ، نصف المجنونة ، . وعاد جس بعقله إلى أيام رجال العهد القديم الذين كان لديهم أيضاً أراض ومواش . تذكر كيف هبط من السموات وتحدث إلى أولئك الرجال وتمنى من الله أن ينتبه له ويتحدث إليه هو أيضاً . وانتابه نوع من التوق الصبياني المحموم يضفي على حياته شيئاً من الروعة المحمومة فوق أولئك الرجال . وبما أنه رجل ورع كان يفضي بأمره إلى الله بصوت عال وكان رنين كلماته يقوي ويغذي توقه .

وأعلن « أنا نوع جديد من الرجال امتلك هذه الحقول . إرعني ياالله وارعَ جيراني وكل من قضوا نحبهم هنا ! ياالله ، إخلق مني رجلاً آخر ، كذاك القديم ، لأحكم الرجال وأكون أب أبناء يحكمون من بعدي ! » وزاد انفعال جس وهو يتحدث بصوت عال ثم قفز واقفاً على قدميه وراح يمشي جيئة وذهاباً في الغرفة . ورأى نفسه بعين خياله يعيش في العهود القديمة وبين أناس قدامى . وأضحت الأرض الممتدة أمامه ذات أهمية عظمى ، مكاناً رآه بعين خياله مسكوناً بسلالة جديدة من الرجال انبثقوا منه . بدا له انه يمكن لممالك أن تقام ، في أيامه هذه كما في الأيام الغابرة ، وأن تمنح حوافز جديدة لحيوات الرجال بقدرة الله المتحدث بلسان عبد مختار وقد اشتاق ليكون هذا العبد « جئت إلى هذه الأرض لأنجز عملاً إلهياً » هكذا قرر بصوت عال وقد استقامت قامته القصيرة وفكر أن ثمة شيئاً كالهالة من الاستحسان الالهي تخيم عليه .

* * *

ربما سيكون صعباً على رجال ونساء الأيام القادمة أن يفهموا جس بنتلي . لقد طرأ تغيير شاسع ، خلال الخمسين سنه الفائتة ، على حياة شعبنا . الحقيقة أنه حدثت ثورة . مجيء التصنيع ، مصحوباً بكل هدير وقرقعة الأشغال ، والزعيق الحاد لملايين الأصوات الجديدة التي قدمت إلينا عبر البحار ، ومجيء وذهاب القطارات ، ونمو المدن ، وامتداد أرتال السيارات تتلوى داخلة خارجة من المدن مارة أمام المزارع ، والآن في هذه الأيام المتأخرة يُحدِثُ مجيء السيارات تغييراً هائلاً في حياة

وأسلوب تفكير شعبنا في وسط أميركا . ورغم أن الكتب باتت تد
كل بيت ، إلا أنه ساهم في كتابتها خيال مريض ربما بسبب السرعة ا
تميز عصرنا ، وصارت المجلات توزّع بملايين النسخ ، ووصا
الصحف إلى كل مكان . إن مزارعاً ، في أيامنا هذه ، يقف بجان
مدفأة من دكان في قريته يكون عقله مملوءاً بفيض من كلمات رج
آخرين ، ضخّته بها الصحف والمجلات حتى الامتلاء . لقد باد إلى الأ
معظم الجهل الموجع الذي كان فيه أيضاً نوع من البراءة الطفولية الجميلة
المزارع الواقف قرب المدفأة هو أخ لأناس المدن ، فاذا أرهفت السما
فستجد أنه يتكلم بزلاقة لسان وتفاهة كما يفعل أي أبن مدينة منا جميعاً

في زمن جس بنتلي ، وفي مقاطعات مجمل الغرب الأوسط ، وخلا
السنوات التالية للحرب الأهلية ، لم يكن الأمر هكذا ، كان الناس
يكدّون بقسوة ويمنعهم التعب من القراءة . لم تكن بهم رغبة بالكلمات
المطبوعة على الورق . وبينما هم يعملون في الحقول ، تتملّكهم أشبا
أفكار ، غامضة . كانوا يؤمنون بالله وأعماله . كانت الكنائس ملتقى
الحياة الاجتماعية والفكرية الراهنة . لقد كان أثر الله عظيماً في قلوب
الناس .

وهكذا ، بما أنه ولد ولداً خيالياً ويحمل داخله توقاً عقلانياً عظيماً ،
اتجه جس بنتلي بكل قلبه نحو الله ، وحين أخذت الحرب اخوته ، رأى
أن لله يداً في هذا . حين مرض والده ولم يعد قادراً على متابعة سير الأمور
في المزرعة ، تقبّل هذا أيضاً باعتباره علاقة من الله . في المدينة ، حين

أتته الكلمة ، راح يجوس الشوارع ليلاً مفكراً بالأمر ، ولما عاد إلى الوطن وتولى أمر العمل في المزرعة بشكل حسن ، عاد من جديد يتجول ليلاً خلال الغابات وعبر الهضاب الواطئة متأملاً في الله .

وأثناء سيره أخذت تتنامى في ذهنه أهمية شخصه وفق خطة علوية ، وصار جشعاً وضاق صدره لأن المزرعة لاتحوي إلا ستماية إكر . كان يركع عند زاوية من السياج في طرف المرج ، ويرسل صوته بعيداً داخل الصمت ، ويرفع نظره فيرى النجوم تنيره بتلألؤها .

وذات مساء ، بعد موت والده بأشهر ، وبينما زوجته تنتظر أن تضع وليدها ، ترك جس بيته وذهب في نزهة طويلة مشياً . كانت مزرعة عائلة بنتلي تقع في واد صغير يرويه نهر واين كريك ، ومشى جس على طول ضفتيّ المجرى حتى نهاية أرضه وتابع مخترقاً حقول جيرانه . وأثناء متابعة السير كان الوادي يتسع ثم عاد ضيقاً من جديد . امتدت أمامه ساحات شاسعة مكشوفة من الحقول والغابة ، وبزغ القمر من خلف الغمام ، وارتقى هضبة واطئة ، ثم جلس يفكر .

فكر جس انه باعتباره خادماً مخلصاً للرب فيجب أن تنتقل كامل مساحة الأرض التي مشي عليها إلى ملكيته. فكر في اخوته الموتى ولامهم على عدم بذلهم جهداً أكبر في العمل وعلى عدم احرازهم المزيد . جرى الجدول الصغير فوق الأحجار أمامه تحت ضوء القمر ، وأخذ يفكر برجال العصور البائدة الذين ملكوا مثله ، قطعاناً وأراضي .

وتملّكه حافز غريب ، نصفه خوف ، نصفه جشع . تذكر الحكاية القديمة في الكتاب المقدس كيف ظهر الله لمداك الا جس الآخر (١) وأمره أن يبعث ابنه داوود إلى حيث يقاتل شاؤول وبنو اسرائيل الفلسطينيين في وادي الإله . وترسّخ في عقل جس اعتقاد بأن جميع مزارعي أوهايو ممّن يملكون أرضاً في وادي واين كريك هم فلسطينيون وأعداء الرب . وهمس لنفسه « لنفرض أنه خرج من بينهم واحد ، كجوليات فلسطينيّ الجتّ (٢) ، وهزمني وانتزع مني ممتلكاتي » وفي غمرة تخيلاته شعر بالرعب المميت الذي ربما كان قد جثم ثقيلاً على قلب شاؤول قبل مجيء داوود . فقفز واقفاً على قدميه ، وبدأ يركض خلال الليل . وبينما هو يركض منادياً الله انساب صوته عبر الهضاب الواطئة ، وصرخ « ياإله الناس ، ارزقني هذا المساء من رحم كاترين ، إبناً . أضئني ببركتك هبني ابناً أسميه داوود يساعدني لأنتزع أخيراً كل هذه الأراضي من أيدي الفلسطينيين وأضعها تحت خدمتك وأبني عليها مملكتك على «الأرض».

* * *

(١) جس الآخر : المقصود به يسى البيتلحمي ، المذكور في سفر صموئيل الأول ، الاصحاح السادس عشر من العهد القديم . — المترجم

(٢) مذكور في سفر صموئيل الأول ، الاصحاح السابع عشر .

الجـــزء الثـــاني

كان دافيد هاردي من واينسبرغ ، في أوهايو حفيد جس بنتلي ، صاحب مزارع بنتلي . حين كان في الثانية عشرة انتقل إلى بيت بنتلي القديم ليعيش هناك . وكانت أمه ، لويز بنتلي ، الفتاة التي جاءت إلى العالم ليلة كان جس يركض عبر الحقول متوسلاً إلى الله أن يهبه ولداً ، قد صارت امرأة في المزرعة وتزوجت الشاب جون هاردي من واينسبرغ ، وقد أصبح صاحب بنك . لم تكن لويز وزوجها سعيدين في حياتهما ، ووافق الجميع على أن اللوم يقع عليها . كانت امرأة قميئة ذات عينين حادتين رماديتين وشعر أسود . كان مزاجها يميل منذ طفولتها إلى الإنفعال وحين لاتغضب تكون على الاغلب كئيبة صامتة . وقد قيل في واينسبرغ انها كانت تعاقر الخمر . وقد حاول زوجها ، صاحب البنك ، الحريص الداهية ، أن يسعدها . حين بدأ ينمّي ثروته ابتاع لها بيتاً قرميدياً كبيراً في شارع إلم في واينسبرغ وكان أول رجل في المدينة يجلب سائقاً خاصاً لعربة زوجته .

لكن لويز لم تكن من النوع الذي يَسعَد . كانت تندفع في نوبات

نصف مجنونة من الانفعال تصمت خلالها تارة ، وتارة تغدو صخّابة مشاجرة . حين تغضب ، تشتّم وتزعق ، وتتناول سكيناً من المطبخ وتهدد بها حياة زوجها .وذات مرة أضرمت النار في البيت عمداً ، وغالباً ماكانت تختفي لأيام في غرفتها ولاتقبل رؤية أحد . وقد أثارت حياتها ، التي عاشتها منعزلة ، كل أنواع القصص حولها . فقد قيل انها كانت تتعاطى المخدرات ، وانها انعزلت عن الناس في غرفتها لأنها غالباً ماكانت تحت تأثير الخمر حتى انه لم يكن بالإمكان التستّر على حالتها . أحياناً في أوقات بعد الظهر أثناء الصيف كانت تخرج من البيت وتركب عربتها وبعد أن تصرف السائق ، تقودها بنفسها بأقصى سرعة ، مخترقة الشوارع . إذا جاء في طريقها أحد المشاة تتابع انطلاقها وعليه أن يهرب بأسرع ما يمكن ، ويعتقد الناس أنها تتعمّد دهسهم . بعد أن تخترق شوارع عديدة منعطفة بهياج عند الزوايا وهي تسوق الخيول ، تنطلق إلى الريف ، وبعد أن تغيب البيوت وراء الأفق وهي مندفعة على الطرق الريفية ، تلجم الخيول حتى تجعلها تمشي متمهلة ، وتهدأ نوبة انفعالها الوحشي ، المتهور ، وتغدو متأملة ، وتروح تغمغم ببعض الكلمات . أحياناً تطفر الدموع من عينيها . وحين ترجع إلى البلدة ، تعود إلى الانطلاق بالعربة بعنف خلال الشوارع الهادئة . ولو لا نفوذ زوجها واحترام الناس له لقبض عليها عمدة البلدة أكثر من مرة .

ترعرع دافيد هاردي الصغير في البيت مع هذه المرأة ، ولابد أن القارىء بات يدرك أن طفولته لم تعرف الكثير من المرح ، وفي ذلك

الوقت كان من الصغر بحيث يعجز عن إبداء الآراء بالناس من حوله ، ولكن كان يصعب عليه أحياناً أن لايبدي آراء محدودة حول المرأة التي هي أمه . وكان دافيد ولداً هادئاً ، جاداً ، وقد ظنه أهالي واينسبرغ لفترة طويلة أبْلَهَ . كانت عيناه داكنتين وفي صغره كان عادة ينظر إلى الأشياء والناس طويلاً ، دون أن يبدو أنه يرى ماينظر إليه . وحين كان يسمع كلاماً قاسياً حول أمه ، أو حين يتناهى إليه شجارها مع والده ، يخاف ويهرب ليختبىء . أحياناً لم يكن يجد مكاناً يختبىء فيه مما كان يربكه . فيدير وجهه نحو شجرة ، أو ، إذا كان داخل البيت ، إلى الجدار ، ثم يغلق عينيه ويحاول أن لايفكر بأي شيء . كانت له عادة التحدث مع نفسه بصوت عال ، وفي المرحلة الأولى من حياته كانت تستحوذه مسحة من الحزن الهادىء .

حين كان دافيد يذهب لزيارة جده في مزرعة بنتلي ، يصبح سعيداً راضياً . وغالباً ماكان يبدي رغبته بعدم العودة إلى البلدة ، وذات مرة ، إبان رجعته إلى البيت من المزرعة ، بعد زيارة طويلة ، حدث أمر ترك به أثراً دائماً .

كان دافيد قد عاد إلى البلدة مع أحد الرجال المستأجرين . كان الرجل في عجلة ليتابع أعماله ، فترك الصبي عند رأس الشارع حيث يقوم بيت هاردي . كان الوقت هو غروب يوم خريفي ، والسماء مكفهرة بالغيوم ، وحدث مايلي لدافيد : لم يقو على دخول المنزل حيث تعيش أمه ، وقرر في نوبة اندفاع أن يهرب من المنزل ، وعزم على

العودة إلى المزرعة وإلى جده ، لكنه ضل الطريق ، وظل لساعات طوال يتجول باكياً خائفاً على طرقات الريف . وبدأت تمطر وومض البرق في السماء . التهب خيال الصبي ، وتخيل انه يرى ويسمع أشياء غريبة في الظلام . وأعتقد انه يمشي ويركض في مساحات رهيبة لم يطأها أحد من قبل . وبدا الظلام من حوله بلا حدود . كان صوت الريح الهابّة متخللة الأشجار مرعباً . وحين اقتربت مجموعة من الخيول على الطريق الذي يمشي عليها ، خاف وارتقى سياجاً ، وظل يركض حتى وصل طريقاً أخرى ، وركع على ركبتيه ولمس الأرض الناعمة بأصابعه . ولولا وجود جده ، الذي كان يخشى أن لايجده في الظلام ، لحسب أن العالم فارغ تماماً . وسمع صراخه مزارع كان عائداً إلى بيته من البلدة ، وأعيد الصبي إلى بيت أبيه ، وكان من الخوف والبلبلة حتى انه لم يعرف ماذا حدث له .

عرف والد دافيد باختفائه مصادفة . فقد قابل في الشارع عاملاً زراعياً من مزرعة بنتلي ، وعلم بعودة والده إلى البلدة . ولما لم يعد الصبي إلى البيت ، ساد الفزع ، وذهب جون هاردي مع بعض الرجال البحث في الريف . وأشيع في شوارع واينسبرغ أن دافيد قد خطف . وحين عاد إلى المنزل كان مظلماً لكن الأم ظهرت وتشبثت به بشوق بين ذراعيها . وظن دافيد فجأة أنها أضحت امرأة أخرى ، ولم يكد يصدق أن أمراً مبهجاً جداً كهذا قد وقع . وحمّمت لويز هاردي بيديها الجسد الصغير المتعب ، وأعدت طعامه ، ولم تدعه يذهب إلى السرير ، بعد أن

ألبسته ثياب النوم ، أطفأت الأنوار ، وجلست على كرسي وهي تضمه بين ذراعيها . ظلت المرأة جالسة في الظلام لساعة ، وهي تضم إليها الولد ، وراحت تتكلم بصوت خفيض . ولم يفهم دافيد ماالذي غيّرها إلى ذات الحد . لقد وجد أن وجهها الذي كان يتكدر عادة ، بات أكثر الوجوه التي رآها هدوءاً وجمالاً . وعندما راح يبكي ضمته أكثر فأكثره واستمر صوتها بغير انقطاع . لم يكن خشناً ولا عالي النبرة ، كما هي العادة حين تتكلم مع زوجها ، بل كانهمار المطر على الأشجار . وسرعان ما بدأ الرجال يتوافدون إلى الباب ناقلين الأخبار عن عدم العثور عليه ، لكنها أخفته ، وظلت صامتة حتى أبعدتهم . وظن أنها لعبة تلعبها أمه ورجال البلدة معه ، وضحك مرحاً . ورأى أن ضياعه وخوفه في الظلام ليس لهما أية أهمية . ورغب لو يقوم بالتجربة المخيفة ألف مرة ليعثر في نهاية الطريق الحالكة الطويلة شيئاً جميلاً جداً ، كما وجد ما حدث لأمه .

* * *

خلال السنين الأخيرة من فترة صبا الفتى لم يعد يرى أمه إلا لماماً ، وصارت بالنسبة له مجرد امرأة عاش في كنفها مرة . لكنها لم تبارح مخيلته ، وصارت صورتها أكثر وضوحاً حين أضحى شاباً . حين وصل إلى سن الثانية عشرة ذهب ليعيش في مزرعة بنتلي . فقد جاء جيس العجوز إلى البلدة وطلب أن يتولى أمر رعاية الصبي شرعاً . ثار العجوز وصمم على اتباع خطته . تحدث مع جون هاردي في مكتب بنك الودائع

في واينسبرغ ، ومن ثم توجه الاثنان إلى المنزل في شارع إلم ليتحدثا مع لويز . توقعا أن تثير المشاكل لكنهما أخطآ . كانت هادئة وحين شرح لها جس فحوى مهمته ، وأطال في تعداد الفوائد المتوقعة من اطلاق الصبي خارج جدران البيت ، لينمو وسط جو المزرعة القديمة الهادىء ، هزت رأسها موافقة ، وقالت بحدة « انه مكان لابن رجل ، مع أنه لم يكن أبداً مكاناً لي ، أنت لم ترغب بوجودي هناك ، وطبعاً جو بيتك لم يفدني . لقد كان كالسم في دمي لكن الأمر سيكون مختلفاً معه » .

استدارت لويز وخرجت من الغرفة ، تاركة الرجلين وسط صمت مربك . وكما يحدث غالباً لازمت غرفتها لأيام عديدة . حتى بعد أن حزمت ثياب الصبي وأُخذ منها لم تخرج . لقد أحدث فقدانها ابنها شرخاً حاداً في حياتها ، وباتت تميل إلى الشجار مع زوجها . ورأى جون هاردي أن كل شيء قد تحول تحولاً حسناً جداً .

ذهب دافيد الصغير ليعيش في مزرعة بنتلي مع جس . كانت اثنتان من أخوات المزارع العجوز لاتزالان على قيد الحياة وتعيشان في المنزل . كانتا تخافان من جس ونادراً ماتتكلمان في حضوره . وكانت احداهما ، ذات الشعر الأحمر المتقد ، في صباها أم بالفطرة ، وهي التي تولّت أمر العناية بالصبي . وكل مساء حين يأوي إلى السرير ، تدخل غرفته وتجلس على الأرض حتى يغيب في النوم . وحين يبدأ بالنعاس تنتابها الشجاعة وتهمس ببعض الأشياء ، حتى أنه ظن فيما بعد أنه كان يحلم . كان صوتها الناعم يناديه بأسماء تحبُّب ، وحلم بأن أمه أتت إليه

وقد تغيرت ، وبقيت على تغيرها الذي طرأ بعد هروبه . وهو أيضاً ازداد شجاعة ومد يده فارتطمت بوجه المرأة الجالسة على الأرض حتى انها انتشت بسعادة . كل شخص في البيت القديم أصبح سعيداً بعد مجيء الصبي . كان من الواضح أن الشيء القاسي الملحّ في جسن بنتلي ، الذي جعل سكان البيت صامتين خائفين ، ولم ينته بحضور الفتاة لويز ، قد زال بقدوم الصبي . كأن الله قد ترفّق ووهب الرجل صبياً .

لقد بدأ الرجل ، الذي أعلن نفسه خادم الله المخلص الوحيد في وادي واين كريك كله ، وأراد من الله أن يرسل له إشارة موافقة على شكل ولد تلده كاترين ، بدأ يظن أن استجداءاته قد استجيبت أخيراً . ورغم أنه كان عندئذ في الخامسة والخمسين فقط ، إلا أنه بدا في السبعين ، وقد تهدّم من كثرة التفكير والتخطيط . لقد نجحت جهوده لزيادة حيازته للمزيد من الأرض ، ولم يكن هناك إلا قلة من المزارع التي لم تكن بحيازته ، ولكن حتى مجيء دافيد كان رجلاً محبطاً بمرارة .

كان ثمة تأثيران يوجهان جسن بنتلي ، وكان عقله طوال حياته ساحة قتال لهذين التأثيرين . أولاً كان هناك ذاك الشيء القديم . فقد أراد أن يكون رجلاً ورعاً . وقائداً للورعين . قرّبته مشاويره في الحقول وخلال الغابات ليلاً من الطبيعة ، وكان ثمة قوى داخل الرجل الورع المتحمس تمازجت وقوى الطبيعة . الاحباط الذي استولى عليه ، حين رزق بأنثى وليس ذكراً من كاترين ، حل به كضربة قوية من يد خفية ، وقد خفّفت هذه الضربة من أنانيته الذاتية . وظل يؤمن بأن

الله سيتجلّى له من الريح أو من بين الغمام في أية لحظة ، لكنه لم يعد يطلب هذه المنحة . وبدل الطلب راح يصلي . أحياناً كان يسربله الشك ويظن أن الله قد تخلى عن العالم . وشعر بالأسف لأن القدر لم يدعه يعيش في زمن أبسط وأجمل ، حين كان الناس يغادرون أراضيهم وبيوتهم ويندفعون إلى الغاب ، عند أول إيماءة من غمامة غريبة في السماء ، ليخلقوا سلالات جديدة . وبينما كان يعمل ليل نهار ليزيد انتاج مزارعه ، وليوسع ممتلكاته من الأراضي ، ندم لأنه لم يستطع استغلال طاقته القلقة في بناء أماكن العبادة ، وفي القضاء على الكفرة ، أي باختصار في تمجيد اسم الله على الأرض .

هذا ما كان جس يتوق لتحقيقه ، وقد تاق أيضاً إلى شيء آخر . لقد وصل إلى سن النضج في أميركا خلال السنين التي تلت الحرب الأهلية ، وكجميع رجال زمانه ، استجاب لمؤثرات عميقة كانت سائدة في البلد خلال سنين ولادة الحركة الصناعية الحديثة . وبدأ يشتري آلات تتيح له العمل بالمزارع بعدد أقل من الرجال ، وكان يخطر له أحياناً إنه لو كان أصغر سناً لتخلى عن شؤون الزراعة ، وأنشأ مصنعاً في واينسبرغ لإنتاج الآلات . ثم عوّد جس نفسه على قراءة الصحف والمجلات ، وصمّم آلة لصنع سياج من الأسلاك . ولم يدرك إلا قليلاً أن مناخ الأزمنة والأماكن القديمة ، الذي طالما نمّاه في عقله ، كان غريباً شاذاً بالنسبة لما ينمّيه الآخرون في عقولهم . لقد كان زمن بداية أكثر عصور تاريخ العالم مادية ، ستنشب فيه الحروب بدون دوافع

وطنية ، وسينسى النّاس الله ولا يلتفتون إلا لمقاييس أخلاقية معينة ، وستحل إرادة القوة محل إرادة العون ، ويصبح الجمال شبه منسي وسط اندفاع البشر الرهيب المتهور نحو حيازة الممتلكات ، أقول كانت تحكي حكايتها بحس الورع ، ولكل من حوله . الجشع داخله أراد أن يزيد ماله بأسرع مايمكن عن طريق حراثة الأرض . وتردد إلى واينسبرغ أكثر من مرة ليتحدث مع صهره جون هاردي في الأمر . قال له وعيناه تشعان « أنت صاحب بنك وتتاح لك فرص لاتتاح لي . إنني أفكر في الموضوع طول الوقت . ستطرأ تغيرات عظيمة في البلد ، وسيزداد المال كما لم أحلم من قبل . اشترك فيها أنت . ليتني كنت أصغر سناً وأتيحت لي فرصتك » وتململ جس بنتلي متجولاً في مكتب البنك ، وازداد هياجاً وهو يتكلم . لقد تهدّده الشلل مرة في حياته ، وكان جانبه الأيسر لايزال واهناً ، وجفن عينه اليسرى يطرف أثناء الكلام . بعد ذلك صار صعباً عليه ، حين يقود العربة عائداً إلى البيت ويهبط الظلام وينبثق النجوم ، أن يستعيد شعوره القديم بوجود آله قريب يخصّه ، يسكن السماء الممتدة ويمكن في أية لحظة أن يمد له يده ، ويلمس كتفه برفق ويكلفه بمهمة بطولية . تركز ذهن جس على الأشياء التي قرأها في الصحف والمجلات ، على الثروات التي تُنمى بلا جهد يذكر من قِبَل رجال قساة يشترون ويبيعون . كان مجيء الصبي دافيد بالنسبة له قد ساعد كثيراً في استعادة الأيمان القديم ، بقوة متجدّدة ، وبدا له أن الله قد منّ عليه برعايته أخيراً .

أما بالنسبة للصبي القاطن في المزرعة ، فبدأت الحياة تتكشف له بألف طريقة جديدة مبهجة . وقد زادت معاملة كل من حوله الرقيقة في طبيعته الهادئة ، وفقد مظهر شبه الخائف ، المتردد الذي طالما اتصف به أمام أهله . في المساء ، حين كان يأوي إلى السرير ، بعد يوم طويل من المغامرات في الاسطبلات ، والحقول ، أو مستقلاً العربة في جولة من مزرعة إلى أخرى مع جده ، يشعر برغبة في معانقة كل شخص في البيت إذا لم تظهر شيرلي بنتلي ، المرأة التي تأتي كل مساء لتجلس على الأرض قرب سريره ، على الفور ، يقف في أعلى الدرج ويصرخ ، ويجلجل صوته الشاب في القاعات الضيقة ، حيث ساد ولزمن طويل تراث من الصمت.في الصباح عندما يستيقظ ويبقى متمدداً في سريره ، كانت الأصوات التي تصل إليه من خلال النافذة تملأه بالحبور . كان يفكر مع رجفة تمس جسده بالحياة في منزل واينسبرغ ، وبصوت أمه الغاضب الذي طالما جعله يرتعش . أما هناك في الريف فكل الأصوات جميلة . حين يستيقظ عند الفجر تستيقظ معه الباحة الخلفية للمخزن ، وداخل البيت تُسمَع ضجة الناس . وتلكز اليزا ستوتن الفتاة نصف المجنونة يد أحد المزارعين فتقهقه بصوت عال ، وتخور بقرة عالياً في حقل بعيد فيجيبها القطيع في الاسطبلات ، ويتكلم أحد العمال المزارعين اليدويين بحدّة مع حصان يسرجه قرب باب الاسطبل . يقفز دافيد من السرير ويسرع إلى النافذة . كانت حركة الناس المائجة تلهب عقله ، ويتساءل ماذا تفعل أمه في منزل البلدة .

لم يكن يستطيع أن ينظر من نافذة غرفته إلى باحة المخزن ، حيث اجتمع الآن كل العمال ليتلوا معاً كورس الصباح ، لكنه سمع أصوات الرجال وصهيل الخيول ، وحين يضحك أحد الرجال ، يضحك معه ، ومن نافذته المفتوحة ، يميل لينظر إلى البستان ليرى انثي خنزير سمينة تتجول مع مجموعة من الخنانيص في أعقابها ، وكل يوم يعدّ الخنازير ، ويقول « أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة » ويبلل اصبعه ويخط علامات مستقيمة على إفريز النافذة ، ويسرع دافيد بارتداء بنطاله وقميصه ، وقد تملّكته رغبة محمومة بالانطلاق خارج المنزل . كل صباح كان يثير هذا الضجيج بالصعود والنزول على الدرج ، حتى أن العمة كالي ، مدبرة المنزل ، أعلنت أنه ينوي أن يكسّر المنزل . بعد أن يركض خلال البيت الكبير العتيق ، مغلقاً الأبواب خلفه بقوة ، يصل إلى باحة مخزن الحبوب ، ويروح ينظر حوله نظرة ترقب مندهلة . وكان يظن أنه في مكان كهذا لا بد أن أشياء عظيمة تحدث أثناء الليل . وينظر إليه العمال ويضحكون . وهنري سترادر ، العجوز الذي لازم المزرعة منذ تولي جسى زمام الأمور ، وكان يعرف عنه قبل حضور دافيد انه لم يمزح أبداً ، صار يلقي كل صباح نكتته نفسها ، فيتسلى دافيد حتى أنه يضحك ويصفق بيديه . ويهتف العجوز « أترى ، تعال وانظر ، لقد مزقت مهرة الجد بنتلي البيضاء الجورب الذي ترتديه في قدمها . »

واظب جسى بنتلي ، يوماً بعد يوم طوال الصيف ، على الانتقال بعربته من مزرعة إلى مزرعة ، في طول وادي واين كريك وعرضه ،

وكان حفيده يرافقه . كانا يمتطيان عربة قديمة مريحة . يجرها حصان أبيض . هرش العجوز لحيته البيضاء الخفيفة وتكلم مع نفسه عن خططه لزيادة انتاجية الحقول التي زاروها ، وعن دور الله في الخطط التي يضعها الناس . كان أحياناً ينظر إلى دافيد ويبتسم بسعادة ، ومن ثم يظهر عليه ، لفترة طويلة ، كأنه نسي وجود الصبي . الآن صار ذهنه يتعلق أكثر فأكثر بالأحلام التي ملأت رأسه حين خرج للمرة الأولى من المدينة ليعيش قرب الأرض . وبعد ظهر أحد الأيام أذهل دافيد حين ترك العنان لأحلامه لتستولي عليه كامل الاستيلاء ، واستمر بطقوسه وسبّب في وقوع حادثة كادت تدمر العلاقة الحميمة التي كانت تنمو بينهما .

كان جسي وحفيده يستقلان العربة في جزء ناء من الوادي على مبعدة عدة أميال من البيت ،ووصلا إلى غابة واين كريك ، وقرقعت العربة بدواليبها على الأحجار متجهة صوب نهر بعيد ، وظل جسي على مزاجه التأملي طوال بعد الظهر ، والآن راح يتكلم . عاد ذهنه إلى الليلة حين تملكه الرعب من التفكير بأن ثمة جني قد يأتي ويسلبه ممتلكاته ، وحين راح يركض ، في الليلة نفسها ، بين الحقول يهتف طلباً لابن ، وكيف اهتاج حتى وصل إلى حافة الجنون . أوقف العربة ونزل منها ، ثم طلب من دافيد أن يخرج أيضاً . اجتاز الاثنان سياجاً ، وراحا يمشيان على طرف مجرى الماء . تغاضى الفتى عن غمغمة جده ، لكنه تابع الركض إلى جانبه وهو يتساءل ماذا سيحدث ، وحين يقفز أرنب

ويهرع مخترقاً الغابة ، يصفق بيديه ويرقص فرحاً . وراح ينظر إلى الأشجار الباسقة ، وأسف لأنه ليس حيواناً صغيراً ليتسلق عالياً في الهواء دون أن يمسّه الخوف . مال ، والتقط حجراً صغيراً ورماه من فوق رأس جده إلى مجموعة شجيرات ، وصرخ بصوت زاعق « استيقظ ، أيها الحيوان الصغير . هيا تسلق قمم الأشجار »

تابع جس بنتلي سيره تحت الأشجار ورأسه محني ، وعقله يثور . أثّرت رصانته في الصبي ، الذي سرعان ماصمت وخاف قليلاً . وطرأ على خاطر العجوز فكرة مفادها انه الآن يمكنه أن يتلقى من الله كلمة أو اشارة ، وأن حضور الصبي أثناء ركوع العجوز في بقعة منعزلة من الغابة سيجعل وقوع المعجزة التي طالما انتظرها حتمياً . وغمغم : « في مثل هذا المكان كان دافيد الآخر يرعى قطعانه حين أتى والده وطلب منه أن يذهب إلى شاؤول » .

أمسك الصبي من كتفه بشيء من الخشونة ، وعبر جذع شجرة ساقط فوصل إلى فسحة مفتوحة بين الأشجار ، وخرّ على ركبتيه وبدأ يصلي صلاة جهوراً ، واستحوذ على دافيد شيء من الرعب لم يعرفه من قبل . جثم تحت شجرة وراح يراقب الرجل راكعاً على الأرض أمامه وقد بدأت ركبتاه ترتعدان . شعر كأنه ليس في حضرة جده ، فقط بل شخص آخر ، شخص قد يؤذيه ، شخص ليس عطوفاً بل خطراً ومتوحشاً . أخذ يبكي ومد يده إلى الأرض وتناول عصاً صغيرة ، أمسك بها بحزم وأحكم عليها أصابعه . حين نهض جس بنتلي ، المنغمس في

تفكيره ، فجأة وتقدم نحوه ، تعاظم رعبه وأخذ جسمه كله يرتجف . ساد الغابة صمت مقبض كأنه يجثم ثقيلاً على كل شيء ، وفجأة شق الصمت صوت العجوز الخشن الملح . أمسك كتفي الصبي ، وأدار وجهه نحو السماء وصرخ ، والتوى كل الجانب الأيسر من وجهه والتوت أيضاً يده التي يضعها على كتف الصبي . هتف « أعطني إشارة ، ياالله ، ها أنا أقف مع داوود الصغير . تجل أمامي من تضاعيف السماء ودعني أعي وجودك » .

استدار دافيد ، مع صرخة خوف ، وتملص من بين اليدين اللتين تقبضان عليه ، وركض خلال الغابة . لم يصدق أبداً أن الرجل الذي شوه وجهه وصرخ بصوت أجش في وجه السماء كان جده . لم يكن يشبه جده . لقد أيقن بأن ثمة شيئاً غريباً رهيباً قد حدث ، وإن شخصاً آخر خطراً تلبس ، بفعل معجزة ما ، جسد الرجل العجوز الطيب . تابع ركضه منحدراً أسفل التل ، يجهش أثناء الركض . حين تعثر بجذور شجرة سقط وارتطم رأسه ، فنهض وحاول أن يركض ثانية . كان رأسه قد تآذى بحيث سرعان ماسقط ورقد دون حراك ، ولم يغادره الرعب إلا بعد أن حمله العجوز إلى العربة واستيقظ ليجد يد العجوز تربت بلطف على رأسه . وقال بحزم « خذني بعيداً . ثمة رجل رهيب هناك في الأحراش » ، بينما أشاح جس بنظره بعيداً فوق قمم الاشجار ، ومن جديد خرجت من بين شفتيه صرخة موجهة إلى ثم ، لله همس بنغمة « ماذا فعلت لك حتى لاترضى عني » وكرر الكلمات مرة بعد مرة ، وهو يقود العربة بسرعة إلى الطريق ورأس الصبي ذو الجرح الدامي ملقى برقة على كتفه .

الجـزء الثـالث

استسلام

إن قصة لويز بنتلي ، التي أضحت السيدة جون هاردي وعاشت مع زوجها في بيت من قرميد في شارع إلم في واينسبرغ ، هي قصة سوءفهم.

قبل أن تفهم شخصيات نساء أمثال لويز ، وتصبح أنماط حيواتهن محتملة ، يجب القيام بأمور كثيرة . يجب على من حولهن أن يكتبوا كتباً حكيمة ، ويعيشوا حيوات حكيمة .

قد ولدت من أم هشة ، مرهقة بالعمل ، وأب متهور ، قاس ، خيالي ، لم يستقبل قدومها إلى العالم بترحاب ، وكانت لويز منذ طفولتها عصابية ، واحدة من سلالة النساء المفرطات الحساسية ، اللواتي صارت حركة التصنيع الحالية تسبب مجيئهن إلى العالم بأعداد عظيمة .

خلال سنين عمرها الأولى عاشت في مزرعة بنتلي ، طفلة صموتة ، متقلبة المزاج ، تحتاج الحب أكثر من أي شيء في العالم دون أن تناله . حين بلغت الخامسة عشرة ذهبت لتعيش في واينسبرغ مع عائلة ألبرت

هاردي ، الذي كان يملك مخزناً لبيع العربات الصغيرة والكبيرة ، وكان عضواً في الهيئة الثقافية في البلدة .

ذهبت لويز إلى البلدة لتغدو طالبة في مدرسة واينسبرغ الثانوية ، وقطنت في بيت هاردي لأن ألبرت كان صديقاً لوالدها .

كان هاردي ، تاجر العربات في واينسبرغ ، كالآف الرجال في زمنه ، متحمساً لموضوع الثقافة . شق طريقه الخاص في العالم دون أن يكتسب العلم من الكتب ، لكنه كان مقتنعاً أنه لو اعتمد فقط على معارف الكتب لآلت أموره إلى الأحسن . كان يتحدث حول الموضوع مع كل من يزور دكانه ، وفي بيته كان يبلبل عقول عائلته بحديثه المتكرر عن الموضوع .

كانت له ابنتان وولد ، جون هاردي ، وقد هددت الابنتان مراراً بترك المدرسة إلى الأبد . وللمحافظة على المبدأ كان عليهما أن تقوما بالكثير من العمل المدرسي في الصف لتتجنبا العقوبة ، وأعلنت هارييت ، بانفعال « أنا أكره الكتب ، وأكره كل من يحب الكتب » .

لم تكن لويز سعيدة في واينسبرغ كما في المزرعة . لقد ظلت تحلم لسنين عديدة بيوم تنطلق فيه إلى العالم ، وتطلعت إلى انتقالها إلى بيت هاردي بوصفه خطوة عظيمة نحو الحرية . كانت كلما فكرت بالموضوع ، ظنت أن كل شيء في البلدة مرح وحي ، وان الرجال والنساء يعيشون بسعادة وحرية ، يعطون ويتلقون الصداقة والحب كما يشعر المرء بلمس الريح على الخد . بعد صمت وكآبة الحياة في بيت بنلي ،

أخذت تحلم بأن تتخذ خطوة إلى الأمام ، داخل الجو الدافىء النابض بالحياة والواقع ، وفي بيت آل هاردي حصلت لويز على شيء مما تاقت إليه ، بفضل خطأ ارتكبته ابان وصولها إلى البلدة .

تلقت لويز ازدراء ابنتي هاردي ، ماري وهاريت لأنها انكبت على التحصيل في المدرسة . لم تأت إلى المنزل إلا بعد ان كادت المدرسة ان تبدأ ، ولم تكن تعلم شيئاً عن رأيها بالدرس . كانت خائفة وخلال الشهر الأول لم تتعرف على احد ، وكل يوم جمعة بعد الظهر يذهب أحد خدم المزرعة إلى واينسبورغ ويعيدها إلى المنزل . لتقضي عطلة نهاية الأسبوع ، لذا لم تكن تقضي عطلة يوم السبت مع أهل البلدة . وبسبب خجلها وانعزالها راحت تنكب بالحاح على دراستها . كانت ماري وهاريت تظنان أنها تحاول تسبيب الأذى لهما باظهار براعتها . أرادت ويز في غمرة توقها لابراز تفوقها أن تجيب على كل سؤال يسأله المدرّس . كانت تقفز نشوة وتومض عيناها . حين كانت تجيب على الأسئلة التي يعجز الباقون في الصف عن الإجابة عنها ، تبتسم بسعادة ، كأن عينيها تقولان « أترون ، لقد أجبت نيابة عنكن ، لاداعي لازعاج أنفسكن بالأمر ، سأجيب على كل الأسئلة ، وسيسهل الأمر على كل الصف حين أكون موجودة » .

في المساء بعد العشاء عند آل هاردي ، يبدأ ألبرت هاردي بمدح لويز . لقد أشاد أحد الأساتذة كثيراً بها ، مما أسعده . قال مؤنباً ابنتيه بنظراته « حسن ، لقد سمعت عنكما » ثم استدار ليبتسم للويز « لقد حكى لي استاذ آخر عن تقدم لويز في المدرسة . الجميع في واينسبرغ يحكي لي عن مدى ذكائها . إنني خجل لأنهم لايتكلمون عن فتاتيّ »

وينهض ، ثم يروح التاجر يتمشى حول الغرفة وهو يشعل سيجار المساء .

نظرت الفتاتان إلى بعضهما وهزتا رأسيهما بقلق . ولما رأى الأب لامبالاتهما اشتد غضبه ، وصرخ ، ينفث في وجهيهما « أقول لكما أن من صالحكما أن تفكرا بالموضوع ، ثمة حركة تغيير كبيرة تحصل هنا في أميركا ، والثقافة هي الأمل الوحيد للأجيال القادمة . لويز ابنة رجل ثري لكنها لاتخجل من الدرس ، جدير بكما أن تخجلا أمام ماتنجزه ».

تناول التاجر قبعته من الحامل القائم قرب الباب واستعد للمغادرة لقضاء الأمسية . توقف عند الباب واستدار ملقياً نظرة غضبى . كان مظهره عنيفاً جداً حتى أن لويز خافت وهرعت إلى الطابق العلوي إلى غرفتها . والتفتت الفتاتان إلى شأنيهما . فزمجر التاجر « انتبها إليّ جيداً . ان عقليكما خاملان ، ولامبالاتكما بالثقافة تؤثر في شخصيتكما . لن ترقيا إلى أي شيء . والآن اعقلا ماأقول ــ ستتفوق لويز عليكما بمراحل حتى لن تتمكنا من مجاراتها » .

خرج الرجل المضطرب من البيت ، وهبط الشارع يرتعش من الغضب . تابع طريقه مغمغماً بكلمات وسباب ، ولكن حين وصل إلى الشارع الرئيسي كان غضبه قد خمد . توقف ليتحدث عن الطقس أو المحاصيل مع بعض التجار الآخرين ، أو مع مزارع أتى إلى المدينة ، ونسي كل شيء عن ابنتيه ، واذا اتفق وظل يفكر بهما ، يكتفي بهز كتفيه ، ويغمغم متفلسفاً « أوه ، حسن ، الفتيات هن الفتيات » .

في البيت حين كانت لويز تهبط إلى غرفة الفتاتين ، لم تكونا تتكلمان معها ، وذات مساء بعد مرور ستة أسابيع على وصولها ، وقد صارت تشعر بانكسار في قلبها بسبب جو البرودة الذي تُقابَل به انفجرت تبكي

فقالت لها ماري هاردي بحدّة « أخرسي بكاءك وعودي إلى غرفتك وكتبك » .

* * *

كانت الغرفة التي تشغلها لويز في الطابق الثاني من منزل آل هاردي ، ونافذتها تطل على بستان . كان ثمة مدفأة ، وكل مساء كان الشاب جون هاردي يحمل إليها ملء ذراع من الخشب ، يضعه داخل صندوق قرب الجدار . أثناء الشهر الثاني من قدومها ، تخلت لويز عن كل أمل في إقامة أية علاقة صداقة مع فتيات هاردي ، وكانت تتوجه كل مساء بعد انتهاء وجبة العشاء مباشرة إلى غرفتها .

بدأ عقلها يقلّب أفكاراً حول مصادقة جون هاردي . فحين أتي إلى غرفتها مع الخشب ، تظاهرت إنها مشغولة بدراستها لكنها راقبته بلهفة. بعد أن وضع الخشب في الصندوق استدار ليذهب ، أحنت رأسها خجلاً. حاولت أن تتكلم ، لكنها لم تقل شيئاً ، وبعد رحيله غضبت من نفسها لبلاهتها .

امتلأ عقل الفتاة القروية بفكرة الاقتراب من الشاب ، وفكرت انها قد تجد فيه مابحثت عنه طوال حياتها في الناس . بدا لها أن بينها وبين كل الناس في العالم سوراً شاهقاً ، وانها تعيش فقط على طرف دائرة جوّانيّة دافئة من الحياة ، لابد إنها مفتوحة للآخرين . واستحوذتها الفكرة بحيث لم يعد ينقص سوى خطوة شجاعة من جانبها لتقيم كل ماتريد من علاقات مع أناس مختلفين تماماً ، وبات ممكناً بعد هذه الخطوة الانتقال إلى حياة جديدة ، كالمرور من باب مفتوح إلى غرفة . فكرت بالأمر ليل نهار ، ولكن رغم أن مارغبت فيه جدياً كان شيئاً حميماً جداً وقريباً ، لم يكن له صلة واعية بالجنس . لم يكن قد وصل إلى ذاك الحد ، وحطّ

عقلها فقط على شخص جون هاردي ، لأنه كان في المتناول ولايشبه أختيه ، وليس فظاً معها .

كانت الاختان هاردي ، ماري وهارييت ، أكبر سناً من لويز ، وكانتا في معرفة بعض جوانب العالم أكثر نضجاً . كانتا تعيشان ككل صبايا مدن الغرب الأوسط . في تلك الأيام لم تكن الصبايا يغادرن المدن إلى المدارس الشرقية ، وكانت قد بدأت تظهر بوادر أفكار حول الطبقات الاجتماعية . كانت ابنة عامل تتساوى اجتماعياً مع ابنة المزارع أو التاجر ، ولم تكن ثمة طبقات مرفّهة ، والفتاة تكون إما « جميلة » أو « غير جميلة » . إذا كانت فتاة جميلة يأتي إلى بيتهم شاب لرؤيتها كل يوم أحد ، وفي أمسيات أيام الأربعاء . أحياناً تذهب مع صديقها الشاب لحفلة رقص أو إلى اجتماع في كنيسة ، وفي أوقات أخرى تستقبله في البيت ، ويجلسان في الصالون . لم يكن أحد يتدخل في شأنها . يجلس الأثنان لساعات خلف أبواب مغلقة ، وقد تكون الأضواء خافتة ، والارتباك يسربل الشاب والفتاة . وتلتهب الوجنات ويتعشث الشعر . وبعد عام أو اثنين ، إذا بقي الحافز داخلهما قوياً وملحاحاً ، يتزوجان .

ذات أمسية من الشتاء الأول الذي قضته في واينسبرغ ، مرت لويز بمغامرة أعطت زخماً جديداً لرغبتها بخرق السور الذي ظنته قائماً بينها وبين جون هاردي . كان يوم أربعاء ، وبعد العشاء مباشرة اعتمر ألبرت هاردي قبعته وذهب ، وجلب الشاب جون هاردي الخشب ووضعه في

صندوق غرفة لويز ، وقال بارتباك « أنت تجهدين نفسك بالعمل ، أليس كذلك ؟ » ، ورحل ، قبل أن تتمكن من الأجابة .

سمعته لويز يخرج من المنزل ، وشبّت فيها رغبة مجنونة لتركض خلفه . فتحت نافذتها ومالت منها وهتفت برقة « جون ، عزيزي جون ، عُدْ ، لاتذهب » . كانت الأمسية ملبدة بالغيوم ، ولم تستطع الرؤية داخل الظلام ، ولكن بينما هي تنتظر تخيلت إنها تسمع ضجة خافتة خفيفة ، وكأنها خطوات شخص يمشي بين الأشجار في البستان . خافت وأسرعت باغلاق النافذة . ظلت تتجول في الغرفة لساعة ، ترتجف إثارة ، وحين لم يعد بامكانها الانتظار أكثر ، تسللت إلى الرواق ومنه هبطت الدرج ، حتى وصلت إلى غرفة أشبه بالخزانة ، تؤدي إلى الصالون .

لقد قررت لويز أن تقوم بالخطوة الجريئة التي كانت تشغل بالها منذ أسابيع . كانت مقتنعة أن جون هاردي اختبأ في البستان تحت نافذتها ، وصممت أن تجده وتقول له إنها تريده أن يتقارب منها ، أن يضمها بين ذراعيه ، أن يفشي لها أفكاره وأحلامه ، وهمست لنفسها « سيكون من الأسهل البوح في الظلام » وهي واقفة في الغرفة الصغيرة ، تتلمس طريقها إلى الباب .

فجأة أدركت لويز أنها ليست وحدها في المنزل. ففي الصالون، في الطرف الآخر من الباب تكلم صوت خافت لرجل ، وفتح الباب . وبالكاد توفر للويز الوقت لتختفي داخل فجوة تحت الدرج ، حين دخلت ماري هاردي الغرفة المظلمة ، بصحبة شاب .

جلست لويز ساعة على الأرض في الظلام ، منصتة . ودون كلام ، عرفت ماري هاردي ، بمساعدة الشاب الذي أتى ليقضي معها الأمسية ، الفتاة القروية بما يحدث بين الرجال والنساء . مكثت بلا حراك ، وقد أحنت رأسها ، ولفّته كأنه كرة . خيّل إليها ان هبة عظيمة نزلت على ماري هاردي ، وكأنما بفعل نزوة غريبة من الآلهة ، ولم تفهم احتجاج المرأة الحازم .

ضمّ الشاب ماري هاردي بين ذراعيه ، وقبّلها . ولما أخذت تتملّص وتضحك ، راح يضمها أكثر . استمر العراك بينهما ساعة ، ومن ثم عادا إلى الصالون ، وهرعت لويز ترتقي الدرج ، وسمعت هارييت تقول لأختها وهي تقف بباب غرفتها في الرواق الأعلى « آمل إنكما كنتما هادئين ، فيجب أن لاتزعجي الفأرة الصغيرة المنغمسة في دروسها » .

كتبت لويز ملاحظة لجون هاردي ، وفي وقت متأخر من تلك الليلة ، وحين لجأ الجميع إلى النوم ، زحفت على الدرج وزلقتها من تحت باب غرفته . كانت تخشى من أنها إن لم تقم بالأمر على الفور ، فستخونها شجاعتها . حاولت في الملاحظة أن تحدد تماماً ما تريد . كتبت « أريد أحداً يحبني وأريد أن أحب أحداً . إذا كنت تريدني ، أود أن تأتي إلى البستان ليلاً ، وتثير ضجيجاً تحت نافذتي . سيكون سهلاً عليّ أن أزحف على السقيفة وآتي إليك . انني أفكر بهذا طوال الوقت ، فاذا قررت المجيء فيجب أن تأتي قريباً » .

مرت فترة طويلة دون أن تعلم لويز ماذا سينتج عن محاولتها الجريئة لتؤمن لنفسها حبيباً . ومع ذلك لم تكن متأكدة إن كانت تريده أن يأتي أم لا . أحياناً تبدّى لها إن سر الحياة كله يكمن في الضم بقوة والتقبيل ، ثم فاجأها دافع جديد وخافت حتى الرعب . لقد شغلتها فكرة أن تحصل إمرأة مكتملة على رغبتها ، لكن معرفتها بالحياة كانت غامضة جداً ، حتى فكرت أن لمسة خفيفة من يد جون هاردي على يدها تكفيها . وتساءلت إن كان سيفهم هذا . في اليوم التالي على المائدة بينما ألبرت هاردي يتكلم أخذت الفتاتان تتهامسان وتضحكان ، ولم تنظر هي إلى جون على المائدة ، وتهرّبت منه قدر استطاعتها . في المساء خرجت من المنزل وظلت في الخارج حتى تيقنت من أنه أحضر الخشب إلى غرفتها وذهب . بعد عدة أمسيات من الإنصات الكثيف لم تسمع أي نداء آت من ظلام البستان . كادت تنفجر من الغضب حزناً وقررت أنه لاسبيل لها لخرق السور الكتيم الذي يحول دونها متعة الحياة .

وفي يوم إثنين ، بعد كتابة الملاحظة باسبوعين أو ثلاثة ، أتى جون هاردي إليها . كانت لويز قد تخلت تماماً عن التفكير في مجيئه منذ وقت طويل حتى انها لم تسمع النداء المنبعث من البستان . وكانت في مساء يوم الجمعة السابق ، بينما هي عائدة إلى المزرعة لقضاء عطلة الاسبوع في عربة يقودها أحد العمال ، قد فعلت شيئاً بدافع نزوىّ أذهلها ، وبينما جون هاردي واقف في الأسفل وسط الظلام ينادي اسمها بنعومةوالحاح ،

راحت تتجول في غرفتها وتتساءل أي دافع جديد قادها لتقوم بعمل سخيف كهذا .

في مساء يوم الجمعة ذاك ، كان عامل المزرعة ، الشاب ذو الشعر الأسود المجعّد ، قد جاء إليها متأخراً قليلاً ، ومشيا في الظلام . حاولت لويز ، وعقلها مملوء بالأفكار حول جوج هاردي ، أن تثير حديثاً مع القروي ، لكنه كان مرتبكاً ولم يقل شيئاً . فبدأ عقلها يستعيد وحدة طفولتها ، وتذكرت بألم ممض الوحدة الجديدة الحادة التي أغارت عليها . وأخذت تبكي فجأة ، ومن ثم اندفعت في نوبة تأنيب مطوّل أخاف مرافقها ، وأعلنت بعنف « أنا أكره أبي والعجوز هاردي أيضاً . إنني أتلقى دروسي في مدرسة البلدة لكني أكرهها أيضاً » .

أخافت لويز عامل الحقل أكثر حين التفتت إليه وأراحت خدها على كتفه . لقد آملت بغموض أن يكون كذلك الشاب الذي وقف مع ماري في الظلام ، ويضمها بين ذراعيه ويقبلها ، لكن الشاب القروي فزع وحسب . وضرب الحصان بالسوط وراح يصفر ، وقال بصوت عال « الطريق وعرة ، هه ؟ » وغضبت لويز جداً حتى إنها انتزعت القبعة عن رأسه ورمتها إلى الطريق . حين قفز من العربة وذهب ليستعيدها انطلقت بالعربة وتركته يمشي المسافة الباقية إلى المزرعة .

واتخذت لويز بنتلي من جون هاردي عشيقاً لها . لم يكن هذا ماأرادت، ولكن هذا مافهمه الشاب من دنوها منه ، وكانت متحرقة لتحقيق شيء آخر لذا لم تُبدِ أية مقاومة . بعد ذلك بأشهر خافا معاً حين بانت عليها

بوادر الحمل ، وذهبا ذات مساء إلى أسقف المقاطعة ، وتزوجا . عاشا مدة شهرين في بيت آل هاردي ، ومن ثم انتقلا إلى بيت خاص بهما . حاولت لويز خلال العام الأول أن تُفهِم زوجها كنه جوعها الغامض المبهم الذي دفعها لكتابة الملاحظة ، ولكن بلا نتيجة مرضية . زحفت مراراً كثيرة بين ذراعيه وحاولت أن تتحدث بالأمر ، ولكن دائماً بلا نجاح . لم ينصت إليها ، هو المملوء بأفكاره الخاصة عن الحب بين الرجال والنساء ، بل بدأ بتقبيلها من شفتيها . اضطربت ، حتى انها لم تعد ترغب بتقبيلها . لم تعد تعرف ماتريد .

حين أثبت الرعب الذي دفعهما إلى الزواج أن لاأساس له ، غضبت وصارت تتفوه بأقوال مريرة ، مؤذية . بعد ذلك حين ولد ولدها دافيد ، لم تتمكن من رعايته ، ولم تعرف إن كانت تريده أم لا . أحياناً كانت تجلس معه طول النهار في الغرفة ، تتمشى ، وفي أحيان أخرى تتسلل مقتربة منه وتلمس يديه برقة ، ومن ثم جاءت أيام لم تعد ترغب برؤية أو الاقتراب من ذاك الجزء الصغير من الانسانية الذي أتى إلى البيت . وحين كان جون هاردي يؤنبها على قساوتها ، تضحك ، وتقول بحدة « إنه من صلب رجل وسيحصل على كل مايريد . ولو كان أنثى لما وفرت في سبيلها أي شيء » .

* * *



الجزء الرابع

رعب

حين بات دافيد هاردي صبياً طويلاً في الخامسة عشرة ، خاض ، مثل أمه ، مغامرة غيّرت مجرى حياته كلها ، وأطاحت به بعيداً عن زاويته الهادئة إلى العالم . وانكسرت قوقعة ظروف حياته ، واضطر للانطلاق . غادر واينسبرغ ولم يعد يراه أحد بعد ذلك . بعد اختفائه ، ماتت أمه ثم مات جده ، وأضحى أبوه ثرياً جداً . وأنفق نقوداً كثيرة في محاولة البحث عن ابنه ، لكن ليس لهذا دخل في قصتنا .

كان الوقت هو آخر خريف سنة غير عادية في مزارع بنتلي ، وكانت المحاصيل وفيرة في كل مكان . في ذاك الربيع كان جِس قد ابتاع جزءاً كبيراً من مستنقع كالح يقع في وادي نهر واين كريك . اشترى الأرض بسعر بخس ، لكنه أنفق عليها مبلغاً هائلاً من النقود لاصلاحها . كان يجب حفر قنوات كبيرة ، وكسوها بالآجر . هز المزارعون المجاورون رؤوسهم للتكاليف . بعضهم ضحك وأبدى أمله بأن يخسر

جس خسارة فادحة نتيجة المغامرة ، لكن العجوز تابع مشروعه ولم يفه بكلمة .

بعد تجفيف الأرض زرعها ملفوفاً وبصلاً ، وضحك الجيران منه ثانية . مع ذلك ، كان المحصول هائلاً وجلب أموالاً كثيرة . وخلال عام واحد جمع نقوداً تكفي لتسديد جميع نفقات اصلاح الأرض ، وبقي معه فائض أتاح له شراء مزرعتين أخريين . كان مبتهجاً ولم يستطع إخفاء جذله . ولأول مرة في تاريخ حيازته للمزارع ، تجول بين عماله بوجه بسّام .

أحضر جس عدداً كبيراً من الآلات الجديدة لتخفيض نفقات العمل ، وما تبقى من قطعة المستنقع السوداء العقيمة . ذات يوم ذهب إلى واينسبرغ واشترى دراجة وبذلة جديدة لدافيد ، وأعطى ابنتيه الأثنتين نقوداً ليحضرا بها اجتماعاً دينياً في كليفلاند ، أوهايو .

في خريف ذلك العام حين حل الصقيع ، وأصبحت الأشجار في الغابات الممتدة على طول واين كريك ، سمراء ذهبية ، راح دافيد يقضي كل لحظة في الهواء الطلق ، حين لا يضطر للذهاب إلى المدرسة . في بعد ظهر كل يوم يذهب ، وحده أو مع صبية آخرين ، إلى الغابات ليجمعوا الجوز . وكان بحوزة بقية الصبية في القرية ، ومعظمهم أبناء مزارعين يعملون في مزارع بنتلي ، بنادق يصطادون بها أرانب وسناجب ، لكن دافيد لم يكن يرافقهم . بل صنع لنفسه نقافة ذات رباط مطاطي ، وعصا مدببة وراح ينطلق وحده يجمع الجوز . وبينما

هو يتجول خطرت على باله أفكار ، فأدرك أنه صار رجلاً وفكر ماذا يريد أن يفعل في الحياة ، ولكن قبل أن يصل إلى قرار كانت الأفكار قد بارحته وعاد صبياً من جديد . ذات يوم قتل سنجاباً وجلس على فرع واطيء من شجرة وراح يحدثه ، وعاد إلى البيت والسنجاب في يده ، وطبخت إحدى الأخوات بنتلي الحيوان الصغير وأكله بشهية كبيرة . ثم ثبت الجلد على قطعة خشب ودلاّها بخيط من نافذة غرفة نومه .

وقد أكسب هذا النشاط عقله منحى جديداً . بعد ذلك لم يذهب إلى الغابات دون أن يحمل النقافة في جيبه وكان يقضي ساعات طوال يرمي حيوانات وهمية مختبئة بين الأوراق السمراء في الأشجار . وكانت تمر في خاطره أفكار عن رجولته القادمة ، وكان يسعد بكونه صبياً وذا دوافع صبيانية .

وفي صباح يوم السبت وبينما هو يستعد للانطلاق إلى الغابات ، والنقافة في جيبه ، وحقيبة للجوز على كتفه ، استوقفه جده . كان في عينيّ العجوز النظرة الجدية المتوترة التي طالما أخافت دافيد قليلاً . في ذلك الوقت لم تكن عينا جس بنتلي تنظران أمامه ، بل تهتزان وكأنهما لاتنظران إلى شيء . بدا كأن ستاراً خفياً يقف بين الرجل وبقية العالم . قال باقتضاب ، وعيناه تنظران إلى السماء خلف الصبي ، « أريدك أن تأتي معي ، لدينا أمر هام نقضيه اليوم . يمكنك أن تحضر حقيبة الجوز إذا أردت ، لايهم ، وعلى أية حال نحن ذاهبان إلى الغابات » .

انطلق جس ودافيد من مزرعة بنتلي على العربة العتيقة التي يجرها الحصان الأبيض . بعد أن قطعا مسافة طويلة في صمت ، توقفا عند طرف الحقل حيث يرعى قطيع من الخرفان . كان بين الخرفان حَمَل وُلد ، في غير أوانه ، قبض عليه دافيد وحده وربطاه جيداً حتى بدا ككرة بيضاء. حين تابعا الطريق ترك جس دافيد يحمل الحمل بين ذراعيه ، قال « رأيته بالأمس وقد جعلني أقرر القيام بما أردت القيام به طويلاً » . ومن جديد رمى بنظرة عبر رأس الصبي ، وفي عينيه النظرة المرتعشة ، القلقة .

بعد مشاعر الاستعلاء التي اجتاحت المزارع نتيجة موسمه الناجح ، عاد فطغى عليه مزاج آخر وظل فترة طويلة يشعر بالضعة والورع ، وعاد من جديد ليجوس في الليل متفكراً في الله ، متصلاً بأرواح الأيام الخوالي. ركع على ركبتيه تحت النجوم على العشب الرطب ورفع صوته بالصلاة . لقد قرر الآن أن يقدم أضحية لله ، كما فعل الرجال الذين تملأ قصصهم صفحات الكتاب المقدس . وهمس لنفسه « لقد وهبت هذه المحاصيل الوفيرة لي ، وأرسل لي الله أيضاً ولداً يسمى داوود . ربما كان عليّ أن أقوم بهذا منذ أمد بعيد » وأسف لأن الفكرة لم تطرأ ذهنه قبل أن تلد ، ابنته لويز ، والآن فكّر به جدياً ، بعدما جمع كومة من العيدان في مكان منعزل من الغابة ، وقدّم جسد الحمل هبة محترقة . وسيتجلّى له الله ويعطيه الرسالة .

وكلما فكر في المسألة أكثر ، فكر أيضاً في دافيد ، نسي جزئياً حبه العنيف لنفسه . وقرر « حان الوقت ليبدأ الصبي بالتفكير في الخروج إلى

العالم ، وستكون الرسالة بخصوصه ، وسيسهل الله طريقه . سيقول لي أي طريق سيسلك دافيد في الحياة حين سينطلق في رحلته . وسيكون على الصبي أن يطيع . إذا كنت محظوظاً وظهر لي ملاك من عند الله ، سيرى دافيد كيف يتبدّى جمال الله وبهاؤه أمام الانسان ، وسيجعل منه رجل دين حق » .

تابع جس ودافيد طريقهما صامتين على الطريق إلى أن وصلا إلى المكان الذي ابتهل فيه جس مرة إلى الله وأرعب حفيده . كان الصباح مشرقاً مرحاً ، لكن ريحاً باردة بدأت تهب الآن ، وحجبت الغيوم الشمس . حين رأى دافيد المكان الذي وصلا إليه بدأ يرتجف ، رعباً ، ولما توقفا قرب الجسر حيث يجري نهر كريك من بين الأشجار ، ودّ لو يقفز من العربة ويهرب .

وأسرعت عشرون خطة للهرب في رأس دافيد ، ولكن حين أوقف جس الحصان ، واجتاز السور إلى الغابة تبعه ، وقال لنفسه وهو يتابع المسير والحَمَل بين ذراعيه « من الحمق أن أخاف.لن يحدث شيء » كان في الحيوان العاجز الصغير الموثق جيداً بين ذراعيه شيء ، منحه القوة . استطاع أن يشعر بوجيب قلب الحيوان السريع ، مما خفّف من سرعة وجيب قلبه هو . بينما هو يمشي مسرعاً خلف جده ، فك الوثاق الذي يكبّل قوائم الحمل الأربع . وفكر « إذا حدث أي شيء ، سنهرب معاً » .

بعد أن مشيا مسافة طويلة داخل الغابة بعيداً عن الطريق ، توقف جس وسط فسحة مكشوفة بين الأشجار ، امتدّت جرداء الا من بعض الأشجار ، حتى النهر ، كان لايزال صامتاً ولكنه سرعان مابدأ يقيم كومة من العيدان اليابسة ، وأضرم فيها النار على الفور . جلس الصبي على الأرض والحمل بين ذراعيه ، وبدأ خياله يتفحّص كل حركة صادرة عن العجوز باهتمام ، وازداد خوفه مع كل لحظة . وتمتم جس وقد راحت العيدان تتلظى بنهم « يجب أن أصب دم الحمل على رأس الصبي » ، وتناول سكيناً طويلة من جيبه ، ثم استدار وأخذ يمشي مسرعاً عابراً الفسحة المكشوفة نحو دافيد .

وتملك الرعب روح الصبي ، وأحس بالمرض . ظل للحظة جالساً جامداً تماماً ، ثم تصلّب جسمه ، وقفز واقفاً على قدميه . أصبح وجهه أبيض كصوف الحمل ، الذي ركض منحدراً التل ، وقد وجد نفسه طليقاً فجأة . وركض دافيد أيضاً . جعل الخوف قدميه تطيران ، وراح يقفز من فوق الشجيرات والجذوع مسعوراً . وضع يده في جيبه وهو يركض وأخرج منها العصا المتفرعة التي تتدلى منها نقافة صيد السناجب . حين وصل إلى النهر الضحل ، وراح يخوض علىأحجاره ، اندفع داخل الماء واستدار لينظر وراءه، وحين رأى ان جده لايزال يهرع خلفه ، ممسكاً السكين الطويلة بيده بحزم ، لم يتردد ، بل انحنى إلى أسفل وانتقى حجراً ووضعه في النقافة ، وبكل ماأوتي من قوة قذف قطعة المطاط المشدودة ، وصفّر الحجر مخترقاً الهواء . أصابت جس ، الذي نسي

تماماً الولد وكان يلحق الحمل ، في رأسه مباشرة ، وارتمى ، آناً ، عند قدمي الصبي . حين وجد دافيد أنه رقد ساكناً ، كالميت ، تفاقم رعبه بما لايقدّر ، وتحوّل ذعراً مجنوناً .

وصرخ ، ثم استدار راكضاً في الغابة ، يبكي بتشنّج . وقال « لا يهمني — لقد قتلته ، ولكن لايهمني » . وقرر فجأة ، وهو يتابع ركضه أن لايعود ثانية إلى مزارع بنتلي أو إلى بلدة واينسبرغ « لقد قتلت رجلاً ورعاً ، والآن جاء دوري لأكون رجلاً وأنخرط في العالم » قال بعنف بعد أن كفّ عن الركض ، ومشى بخطى سريعة على أرض الطريق المحاذي لتعرجات نهر كريك الذي يخترق الحقول والغابات نافذاً في الغرب .

تململ جسد بنتلي على الأرض قرب نهر كريك بانزعاج . أنّ وفتح عينيه . وظل فترة طويلة مستلقياً لايأتي بأية حركة ، ونظر إلى السماء . وحين وقف على قدميه أخيراً . كان ذهنه مبلبلاً ولم يدهش لاختفاء الصبي . جلس على جانب الطريق على جذع وراح يكلّم الله . هذا كل ماجاءهم منه . كلما ذكر اسم دافيد نظر بغموض إلى السماء وقال ان مبعوثاً من عند الله أخذ الصبي ، وأعلن « حدث هذا لأني كنت شديد التوق للمجد » . ولم يعد يقول أي شيء حول هذه المسألة .

* * *



رجل أفكار

عاش مع أمه ، المرأة الكئيبة ، الصامتة ، ذات البشرة الرمادية الخاصة . كان البيت الذي عاش فيه قائماً وسط حقل صغير من الأشجار عند منطقة تقاطع الشارع الرئيسي مع نهر كريك. كان اسمه جو ويلينغ ، وكان أبوه رجلاً يحظى بقدر من التبجيل في المجتمع ، محامياً وعضواً في الهيئة التشريعية في كولومبوس . كان جو نفسه ضئيل الجسم ، ويختلف في شخصيته عن كل أبناء البلدة ، كأنه بركان صغير جداً. يظل صامتاً لأيام ، ومن ثم فجأة يلفظ حمم النار . لا ، لم يكن هكذا — كان إنساناً تحكمه نوبات ، يمشي بين أقرانه البشر موحياً بالخوف لأن النوبة قد تأتيه فجأة ، وتفجره حتى يغدو في حالة جسدية غريبة عجيبة ، فتدور عيناه في محجريهما ، وتهتز ساقاه وذراعاه . هكذا كان ، إلا أن ذاك المس الذي كان يهبط على جو ويلينغ كان عقلياً وليس جسدياً . كان محاصراً بالأفكار ، وأثناء صراعه لاخراج واحدة من أفكاره

يتعذّر ضبطه : تنهمر الكلمات متعثّرة من فمه ، وتظهر على شفتيه ابتسامة غريبة ، وتتلألأ رؤوس أسنانه الملبّسة بالذهب في الضوء ، ثم يقفز إلى أحد المتفرجين ويبدأ بالكلام ، ولا يجد المتفرج مفراً له . ويلهث الرجل المثار في وجهه ، يحملق في عينيه ، ويضرب بعنف على صدره بأطراف أصابع مرتعشة ، يأمر ، يجبر على الانتباه .

في تلك الأيام ، لم تكن شركة ستاندارد أويل تلبي حاجة المستهلك من الوقود بتأمين عربات كبيرة وسيارات شحن ، كما هو الحال الآن ، بل تسلمه إلى باعة التجزئة ، إلى مخازن الخردوات ، وما شابهها . كان جو ويلينغ وكيل شركة ستاندارد أويل في واينسبرغ وفي مدن عديدة منتشرة على طول الخط الحديدي الذي يخترق واينسبرغ . كان يجمع النقود ، يدوّن الأوامر ، وأشياء أخرى ، وأبوه هو الذي دبّر له عمله هذا .

كان جو ينتقل من مخزن إلى آخر من واينسبرغ — صامتاً ، مؤدباً بإفراط ، منكبّاً على عمله ، يراقبه الناس بعيون يكمن فيها الانبساط ممزوجاً بالخوف . كانوا يترقبون انفجاره ، ويستعدون للفرار ، رغم إن النوبات التي كانت تهبط عليه ليست مؤذية تماماً ، ولم تكن تثير الضحك . كانت طاغية . ويقبض جو على فكرة ، يهيمن عليها ، وتصبح شخصيته عملاقة ، تطغى على المستمع ، تجرفه ، تجرف كل شيء . كل من يقف ضمن مرمى صوته .

وقف أربعة رجال في مخزن سيلفستر ويست للأدوية ، يتحدثون على سباق الخيول . كان حصان ويسلي مرير ، المسمى توني تب ، سيشترك

في سباق حزيران في تيفن بأوهايو ، ودارت شائعة تقول إنه سيواجه أشد منافسة في حياته . قيل أن بوب غيرز ، السائس العظيم ، سيكون هناك بنفسه . وخيّم شك كبير في نجاح توني تب فوق بلدة واينسبرغ .

دخل جو ويلينغ مخزن الأدوية ، حافّاً بستارة الباب بقوة ، وفي عينيه ضوء غريب مبهم . وانقضّ على إد توماس ، الذي يعرف بوب غيرز ، ورأيه في الفرص المتاحة لتوني تب جديرة بالإهتمام .

هتف جو ويلينغ « الماء مرتفع في نهر واين كريك » بلهجة فيليبيديس وهو يبشر بانتصار اليونانيين في صراعهم في الماراثون . ودقت أصابعه وشماً على صدر إد توماس العريض « عند جسر ترونيون وصل حتى علو أحد عشر إنشاً ونصف من أرضه » هكذا تابع ، والكلمات تجري مسرعة ، مصحوبة بصفير ضعيف من بين أسنانه . وزحف تعبير الإنزعاج اليائس على وجوه الأربعة « إن ماأقوله حقيقي صحيح . يمكنكم الوثوق منه . لقد ذهبت إلى مخزن سيننغ الخردة وأحضرت مسطرة ، ثم عدت وقست . لم أكد أصدق عيني . إنها لم تمطر منذ عشرة أيام . في أول الأمر لم أعرف كيف أفكر ، وتدفقت الأفكار في رأسي . فكرت في الممرات والينابيع تحت سطح البحر ، وغاص ذهني عميقاً تحت الأرض ، منقباً . جلست على أرض الجسر وحككت رأسي . لم يكن ثمة سحابة في السماء ، ولا واحدة . أخرجوا إلى الشارع وستروَن . لم يكن هناك غمام . ولا الآن أيضاً . نعم ، كان هناك غيمة ،

لاأريد أن أرتد عن الحقيقة . كان هناك غيمة إلى الغرب الأسفل قرب الأفق ، غيمة ليست أكبر من يد رجل .

« لاتفهموا أن لهذا علاقة بالأمر ، كانت هناك . أنتم تفهمون كم كنت متحيراً . ثم خطرت لي فكرة . ضحكت . وأنتم ستضحكون أيضاً . لقد كانت تمطر هناك في مقاطعة ميدينا . شيء مسلّ ، هه ؟ فحين لا يكون هناك قطاران ، ولا بريد ، ولا برقيات نعلم إنها تمطر في مقاطعة ميدينا . فمن هناك ينبع نهر واين كريك . الكل يعرف هذا . لقد جلب نهرنا الصغير العزيز واين كريك الأخبار . شيء مسل . ضحكت وفكرت أن أخبركم — شيء مسل ، هه ؟ » .

استدار جو ويلينغ وخرج من الباب . ثم وقف ، وتناول كتاباً من جيبه ، ومرر اصبعه على إحدى الصفحات ، وانغمس ثانية في واجباته كوكيل لشركة ستاندارد أويل . وتمتم « بقالية هيرن ستحصل على كمية أقل من وقود الفحم . سأراهم » وأسرع يقطع الشارع ، منحنياً بأدب ذات اليمين وذات الشمال للأناس المارين .

حين التحق جورج ويلارد بعمله في صحيفة الواينسبرغ إيغل ، أخذ جو ويلينغ يحاصره . كان جو يحسد الفتى . فقد بدا له إنه قدّر له أن يكون مراسلاً صحفياً . وأعلن ، مستوقفاً جورج ويلارد على الرصيف أمام مخزن دورتي للأغذية . « هذا ماكان يجب أن أكون » ، وبدأت عيناه تلمعان وأصابعه ترتجف . وأضاف « طبعاً أنا أدرّ نقوداً أكثر بعملي في شركة ستاندارد أويل وأنا أخبرك فقط ، لاأضمر شيئاً

ضدك ولكن كان يجب أن أكون مكانك . أستطيع أن أقوم بالعمل في لحظات شاذة . سأركض هنا وهناك لأبحث عن أشياء لم ترها أبداً » .

أصبح جو ويلينغ أكثر ثورة فدفع بالمراسل الشاب إلى واجهة مخزن الأغذية وبدا كأنه ضاع في التفكير ، وراح يدير عينيه في محجريهما ، ممرراً يده العصبية النحيلة خلال شعره . وانتشرت ابتسامة على وجهه وبرقت أسنانه الذهبية . أمر « أخرج دفتر ملاحظاتك . أنت تحمل مجموعة من الأوراق في محفظتك ، ألا تحمل ؟ أعلم أنك تحمل . حسن ، أكتب مايلي ، لقد خطر لي منذ أيام . فلنتحدث عن الدمار . ماهو الدمار ؟ إنه نار ، تأكل الخشب وأشياء أخرى . ألم تفكر في هذا . طبعاً لم تفكر . هذا الرصيف ، ومخزن الأغذية ، والأشجار هناك في الشارع — كلها تشتعل . الدمار مستمر دائماً . انه لايتوقف . الماء والطلاء لايمكنهما إيقافه . وإذا كان الشيء من الحديد ، فماذا عندئذ ؟ إنه يصدأ . هذا نار ، أيضاً . العالم يتلظى ناراً . إبدأ مقالاتك في الصحيفة هكذا . قل ببساطة وبحروف كبيرة « العالم يشتعل » وهذا سيدفعهم النظر . سيقولون انك ذكي . لاآبه . لاأحسدك . لقد أختطفت هذه الفكرة من الهواء . سأجعل الصحيفة تهمهم ، عليك أن تعترف » .

استدار جو ويلينغ بسرعة ، ومشى بخطى واسعة . بعد أن خطا بضع خطوات توقف ونظر خلفه . قال : « سألازمك ، سأجعلك مطرقة مواظبة . سأعمل بدوري في صحيفة ، سأفعل . سأغدو معجزة . الجميع يعرف هذا » .

حين يمضي على وجود جورج ويلارد في صحيفة الواينسبرغ ايغل سنة ، حدثت أربعة أشياء لجو ويلينغ . ماتت أمه ، وجاء ليعيش في نُزُل نيوويلارد ، ووقع في علاقة حب ، ونظم نادي واينسبرغ للعبة البيسبول .

نظّم جو نادي البيسبول لأنه أراد أن يصبح مدرباً رياضياً ، ومن ذاك الموقع بدأ يكسب احترام أبناء بلدته . وأعلنوا بعد أن تغلّب فريقه على فريق ميدينا كاونتي « إنه معجزة . إنه يجعل الجميع يتحركون معاً . أنظروا إليه » .

وقف جو على القاعدة الأولى من ملعب البيسبول ، وجسده يهتز كله من الاثارة . راح اللاعبون يراقبونه عن كثب رغماً عنهم ، وارتبك الرامي المقابل له .

هتف الرجل المتحمس « الآن ! الآن ! الآن ! الآن ! راقبوني ، راقبوني ، راقبوا أصابعي ! راقبوا يديّ ! راقبوا قدميّ ! راقبوا عينيّ ! لنعمل معاً هنا ! راقبوني ! في حركاتي تجدوا كل حركات اللعبة ! اعملوا معي ! اعملوا معي ! راقبوني ! راقبوني ! راقبوني ! »

وأصبح جو ويلينغ ، مع فريق البيس الراكض في واينسبرغ ، كما قد يتخيّل المرء . قبل أن يعرفوا ماذا ألم بهم ، كان الراكضون يراقبون الرجل ، يقذف الكرات بالتدريج ، يتقدم ، يتراجع ، كأنه مربوط بحبل خفي . وراقبه أيضاً لاعبو الفريق المقابل . ذهلوا . راقبوه برهة ومن ثم ، ولينفضوا السحر الملقى عليهم ، راحوا يقذفون الكرة بعنف ، ووسط

سلسلة من الصرخات الحيوانية من الدرب ، تفرّق راكضو فريق واينسبرغ إلى بيوتهم .

أثارت قصة حب جو ويلينغ سكان بلدة واينسبرغ . حين بدأ يسود الهمس وهز الرؤوس ، وحين حاول الناس أن يضحكوا ، كان ضحكهم متكلفاً وغير طبيعي ، وقع جو في حب سارة كينغ ، فتاة نحيلة ، حزينة التقاسيم ، تعيش مع والدها وأخيها في بيت من قرميد قائم مقابل البوابة المؤدية إلى مقبرة واينسبرغ .

لم يكن طرفا عائلة كينغ ، أدوارد الأب ، وتوم الأبن ، معروفين في واينسبرغ . قيل عنهما مغرورين وخطرين . أتيا إلى واينسبرغ من مكان ما في الجنوب ، وأدارا معصرة تفاح في ترنيون بايك . وأشيع أن توم كينغ قتل رجلاً قبل مجيئه إلى واينسبرغ . كان في السابعةوالعشرين ، ويتجول في البلدة على مهر رمادي . كان له أيضاً شاربٌ أصفر طويل يميل إلى الأمام فيغطي أسنانه ، ويحمل دائماً عصا المشي ثقيلة ، بشعة المنظر بيده . ذات مرة قتل كلباً بعصاه ، وكان يخصّ ون باوسي ، تاجر الأحذية ، وهو واقف على الرصيف يهز ذيله . قتله توم كينغ بضربة واحدة . قبض عليه ودفع غرامة محترمة مقدارها عشرة دولارات .

كان أدوارد العجوز ضئيل القامة وحين يمر بالناس في الشارع يضحك ضحكة غريبة غير مرحة . وحين يضحك يحك مرفقه الأيسر بيده اليمنى . كان كم معطفه قد اهترأ من هذه العادة . وبينما هو يمشي

في الشارع ينظر حوله بعصبية ويضحك ، كان يبدو أكثر خطراً من ابنه الصامت ، ذي المظهر القاسي .

حين بدأت سارة كينغ تخرج مساء مع جو ويلينغ ، كان الناس يهزون رؤوسهم ذعراً . كانت طويلة وشاحبة وتحت عينيها حلقات داكنة . بدوا معاً زوجين مثيرين السخرية . كانا يمشيان تحت الأشجار ويتكلم جو وتسمع تأكيدات حبه المتلهف المشتاق ، آتية من الظلام عند جدار المقبرة ، أو من ظلال الأشجار القائمة على التل الذي يعلو حتى فيرغراوندز من بحيرة ورش الماء ، ويرددها الناس في المخازن.يقف الناس عند البار في بيت ويلارد الجديد يضحكون ويتحدثون عن غزل جو . وبعد الضحك يسود الصمت. لقد كان فريق واينسبرغ البيسبول، تحت إدارته ، يربح لعبة بعد أخرى ، وقد بدأت البلدة تحترمه . وشعروا باقتراب مأساة ، فانتظروا ، وهم يضحكون بعصبية .

بعد ظهر أحد أيام السبت تم اللقاء بين جو ويلينغ وقطبيّ عائلة كينغ ، في غرفة جو ويلينغ في بيت ويلارد الجديد ، وجعل توقع نتائجه الناس في حالة هياج . وشاهد جورج ويلارد ماجرى في الاجتماع وحدث على النحو التالي :

حين توجه المراسل الشاب إلى غرفته ، بعد العشاء ، رأى توم كينغ ووالده جالسين في غرفة جو شبه المظلمة . الولد يحمل عصا المشي الثقيلة في يده وقد جلس قرب الباب ، والوالد ادوارد العجوز يمشي بعصبية متجولاً ، يحك مرفقه الأيسر بيده اليمنى . وكانت الأروقة مقفرة صامتة .

توجه جورج ويلارد إلى غرفته وجلس إلى مكتبه . حاول أن يكتب لكن يده ارتجفت حتى لم يعد يتمكن من حمل القلم . وراح بدوره يتنقل في الغرفة . وكبقية أهل واينسبرغ كان مرتبكاً ولم يعرف ماذا يفعل.

كانت الساعة السابعة والنصف ، والظلام يحث خطاه ، حين أتى جو ويلينغ على رصيف المحطة متوجهاً إلى بيت ويلارد الجديد . كان يحمل بين ذراعيه حزمة من النباتات والأعشاب . ورغم الرعب الذي جعل جسده يرتجف ، سرّ جورج ويلارد لمرآى الرجل الضئيل النشط ، وهو يحمل الأعشاب ويكاد يركض على الرصيف .

جثم المراسل الشاب ، يرتجف خوفاً وقلقاً ، في الرواق خارج باب الغرفة التي يتحدث فيها جو ويلينغ مع قطبيّ كينغ . كان ثمة تجديف ، وقهقهة العجوز أدوارد كينغ العصبية ، ثم ساد الصمت . والآن أتى صوت جو ويلينغ ، حاداً ، واضحاً . ، نافذاً . بدأ جورج ويلارد يضحك . لقد فهم . بعد أن أخضع جو ويلينغ جميع الرجال أمامه ، هاهو الآن قد أنهض الرجلين على أقدامهما وأمطرهما بموجة كاسحة من الكلمات . وراح مستمعاه يمشيان جيئة وذهاباً في القاعة ، ضائعين في ذهول .

لم يول جو ويلينغ ، داخل الغرفة ، أي انتباه لتهديد توم كينغ المغمغم . أغلق الباب وأشعل المصباح ، وفرش حملة من النباتات والأعشاب ، وقد تملّكته فكرة . أعلن برصانة « لدي هنا شيء ، كنت أتمنى لو أن سارة كانت هنا أيضاً . كنت سأتوجه إلى بيتكما وأخبركما

عن بعض أفكاري . إنها مثيرة . لكن سارة لم تسمح لي . قالت إننا سنتشاجر . هذا حماقة » .

تنقّل جو ويلينغ أمام الرجلين المرتبكين ، وبدأ يشرح «لاتخطئا الآن» هكذا هتف « هذا شيء عظيم » ، وتعالى صوته ثاقباً من الإثارة « إتبعاني فقط ، وستستمتعا . أعرفكما جيداً . افرضا هذا ـــ افرضا أن كل القمح ، والذرة ، والشوفان ، والبازيلاء ، والبطاطا ، قد جُرفت بفعل معجزة ما ، ها نحن ، كما تريان ، في هذا البلد . ثمة سياج عال مبني حولنا من كل جانب . سنفترض هذا . لاأحد يستطيع عبور السياج وقد فسدت جميع ثمار الأرض . ولم يبق غير هذه النباتات البرية ، هذه الأعشاب . هل نموت ؟ أسألكما . هل نموت ؟ » وزمجر توم كينغ من جديد وساد صمت لدقيقة في الغرفة . ومن جديد استغرق جو ويلينغ في عرض فكرته . « ستستمر الأمور صعبة لبعض الوقت . أعترف . يجب أن أعترف . لامفر . سنعاني . لن تحتملها أية معدة ضخمة . لكنها لن تقهرنا . لن تفعل » .

ضحك توم كينغ بطيبة قلب ، وترددت ضحكة إدوارد كينغ المجلجلة ، العصبية ، في جنبات المنزل . وتابع جو ويلينغ شرحه مسرعاً « سنبدأ ، كما ترون ، بانبات خضروات جديدة وثمار . وسرعان ماسنعوض بكل ماخسرناه . إنتبها ، أنا لم أقل إن المحاصيل الجديدة ستكون كالقديمة . لا لن تكون . قد تصبح أفضل ، ربما أسوأ . هذا

مثير للاهتمام ، هه ؟ يمكنكما التفكير في الأمر . إنه يجعل عقليكما يعملان ، أليس كذلك ؟ » .

ران الصمت على الغرفة ، ومن جديد ضحك أدوارد كينغ العجوز بعصبية « الواقع ، كنت أود أن تكون سارة هنا » هتف جو ويلينغ « هيا بنا إلى بيتكما . أريد أن أقضي لها الأمر » .

وسُمع صوت احتكاك كراسٍ في الغرفة . عندئذ تراجع جورج ويلارد إلى غرفته الخاصة . وحين مال من النافذة رأى جو ويلينغ يمشي في الشارع مع رأسيّ كينغ . واضطر توم كينغ لأن يمشي بخطى طويلة غير عادية ليلحق بالرجل الصغير . وبينما هو يخطو بخطى واسعة ، مال ، منصتاً — مستغرقاً ، مسحوراً . وعاد جو ويلينغ ليتحدث بانفعال . هتف « لديكما حشيشة اللبن ، مثلاً . يمكن استخدام حشيشة اللبن في كثير من الأمور ، هه ؟ أنه أمر لايكاد يصدق . أود التفكير فيه . وأريدكما معاً أن تفكرا به . ستنشأ مملكة نباتية جديدة . شيء مسل ، هه ؟ إنها مجرد فكرة . إنتظرا حتى تريا سارة ، ستفهم الفكرة ، وستهتم بها . سارة دائماً تهتم بالأفكار . لايمكن التفوق على سارة بالذكاء ، ألا توافقان ؟ طبعاً توافقان . هذا مؤكد » .

* * *



مغامرة

كانت أليس هندمن إمرأة في السابعة والعشرين ، حين كان جورج ويلارد مجرد صبي ، قضت حياتها كلها في واينسبرغ ، عملت في مخزن ويني للأطعمة المجففة ، وعاشت مع أمها ، المتزوجة للمرة الثانية .

كان زوج أم أليس دهّان عربات ، وسكيراً . حكايته غريبة عجيبة . تستحق أن تروى يوماً ما .

في سنتها السابعة والعشرين كانت أليس طويلة ونحيلة بعض الشيء . رأسها كبير يخيّم على جسمها . كتفاها محنيان قليلاً وشعرها وعيناها بنيان . كانت هادئة جداً ، ولكن تحت مظهرها الخارجي الهادىء كان ثمة تخمّر يحدث .

حين كانت فتاة في السادسة عشرة من عمرها ، وقبل أن تبدأ بالعمل بالمخزن ، كانت أليس على علاقة بأحد الشبان ، إسمه نِد كري ، أكبر منها . وكان هو ، مثل جورج ويلارد ، يعمل في صحيفة الواينسبرغ إيغل ، وظل يتردد لزيارة أليس كل مساء تقريباً ولفترة

طويلة . يمشي الإثنان تحت الأشجار خلال شوارع البلدة ، يتحدثان عما سيفعلانه بحياتهما . كانت أليس حينئذ فتاة رائعة الجمال ، يضمها ند كرى بين ذراعيه ويقبلها ، فيهتاج ويقول أشياء لايقصد قولها ، فتستجيب أليس ، مخدوعة برغبتها في إدخال شيء جميل إلى حياتها المخنوقة ، بل وتشاركه الكلام . وكانت السمة الخارجية من حياتها ، من حياتها الطبيعي وتحفظها ، مهترئة لذا أسلمت نفسها إلى لواعج الحب . في خريف عامها السادس عشر ، حين ذهب ند كرى إلى كليفلاند ، آملاً أن يفوز بمركز في صحيفة المدينة ويشتهر في العالم ، أرادت أن تذهب معه . أخبرته بصوت مرتجف بما يجول في خاطرها . قالت « أنا أعمل وأنت تعمل . لاأريد أن أثقل كاهلك بتكاليف غير ضرورية يمكن أن تعيق تقدمك . لاتتزوجني الآن . يمكننا أن نعيش دون زواج ، ومع ذلك سنسكن تحت سقف واحد ولن يتكلم أحد . ففي المدينة لن يعرفنا أحد ، ولن ينتبه إلينا الناس » .

بهت ند كرى لقرار حبيبته واستسلامها ، وتأثر بدوره تأثراً بالغاً . لقد أراد أن تكون له عشيقة لكنه غيّر رأيه ، وأراد أن يحميها ويعتني بها . قال بحدّة « أنت لاتدركين ماتقولين ، تأكدي أني لن أدعك تقومين بمثل هذا . حالما أحصل على عمل مناسب سأعود . أما الآن فيجب أن تبقي هنا . هذا مايمكننا القيام به » .

في الليلة السابقة لمغادرته واينسبرغ واتخاذه طريق حياته الجديدة ، ذهب ند كرى لملاقاة أليس . تمشيا في الشوارع لساعة من الزمن ، ثم

استقلا عربة من محل ويسلي موير لتأجير العربات ، وذهبا إلى الريف . علا القمر إلى السمت وعجزا عن الكلام . ووسط هذا الحزن نسي الشاب القرارات التي اتخذها بخصوص علاقته مع الفتاة .

ترجلا من العربة إلى مكان يمتد فيه مرج فسيح حتى ضفة نهر واين كريك ، وهناك تحت النور الخافت صارا عاشقين . حين عادا عند منتصف الليل إلى البلدة كانا سعيدين معاً . ولم يخطر ببالهما إنه سيحدث في المستقبل مايعكر روعة وجمال ماحدث . وقال نادكرى حين ودعها عند باب بيت والدها « والآن علينا أن نبقى معاً ، مهما حدث » .

لم ينجح الصحفي الشاب في الحصول على عمل في صحيفة في كليفلاند ، وتوجه غرباً إلى تشيكاغو . ظل يشعر بالوحدة لبعض الوقت وكتب رسالة لأليس كل يوم تقريباً . ثم جرفته حياة المدينة ، فبدأ يعقد صداقات واكتشف اهتمامات جديدة في الحياة . في تشيكاغو سكن في بيت مملوء بالنساء . لفتت إحداهن إنتباهه ونسي أليس في واينسبرغ . في نهاية العام كان قد توقف عن كتابة الرسائل ، ماعدا مرة كل فترة طويلة ، حين يكون مستوحشاً ، أو وهو جالس في إحدى حدائق المدينة ويرى القمر منعكساً على الزجاج كما سطع في تلك الليلة على المرج على ضفة نهر واين كريك ، فيفكر فيها صدفة .

في واينسبرغ كبرت الفتاة العاشقة وصارت امرأة . في سنتها الثانية والعشرين توفي والدها العجوز ، الذي كان يملك محلاً لإصلاح عدّة

الفرس . كان صانع السروج جندياً عتيقاً ، وبعد بضعة أشهر استلمت زوجته معاش الأرملة . وصرفت المبلغ الأول في شراء نول وراحت تعمل في نسج السجاد ، وحصلت أليس على عمل في متجر ويني . وظلت عدداً من السنين ترفض أن تصدق أن ند كرى لن يعود إليها في النهاية .

فرحت بعملها لأن الكدّ اليومي في المتجر جعل وقت الانتظار يبدو أقصر وغير هام . ثم بدأت توفر النقود ، مفكرة إنها حين ستجمع مبلغ مائتين أو ثلاث مائة دولار ستلحق بحبيبها إلى المدينة لترى إن كان وجودها معه سيعيد إليها حبه .

لم تلُم أليس ند كرى لما حدث في الليلة المقمرة على المرج ، لكنها شعرت إنها لن تتمكن من الإقتران برجل آخر . كانت ترى أنه أمر فظيع أن تهب رجلاً آخر شعوراً ماتزال تخص به ند . وحين حاول الشبان اجتذاب نظرها لم تأبه بهم . كانت تهمس لنفسها « أنا زوجته وسأبقى زوجته سواء عاد أو لم يعد » ، وبسبب رغبتها الشديدة في دعم ظنها لم تفهم نشوء الفكرة الحديثة القائلة باستقلال المرأة ، وبأن بوسعها أن تعطي وتأخذ حسب ماتتطلّبه مصلحتها في الحياة .

كانت أليس تعمل في متجر الأطعمة المجففة من الثامنة وحتى السادسة مساء ، وفي ثلاثة أيام من الأسبوع تعود إلى المتجر لتبقى من السابعة حتى التاسعة . وبمرور الوقت ازدادت وحدتها أكثر فأكثر ، وبدأت تلجأ إلى الممارسات الشائعة بين المتوحدين . في الليل حين تصعد

إلى غرفتها تركع على الأرض لتصلي ، وأثناء صلواتها تهمس بأشياء تريد أن تقولها لحبيبها . وصارت تتآلف مع أشياء غير إنسانية ، ولم تسمح لأحد بلمس أغراض غرفتها ، لأنها ملكها وحدها . واستمرت بتوفير النقود ، الذي بدأ بدافع ، حتى بعد أن تخلت عن فكرة اللحاق بند كرى إلى المدينة . أضحت عادة متأصلة فيها ، وحين كانت تحتاج إلى ثياب لم تكن تشتريها . أحياناً ، في الأيام الممطرة ، في المتجر تخرج دفتر إيداع نقودها في البنك ، ثم تضعه أمامها مفتوحاً ، وتقضي الساعات حالمة أحلاماً مستحيلة بتوفير النقود الكافية لها ولزوج المستقبل .

وتفكر « لقد ودّ ند دائماً أن يسافر . سأتيح له هذه الفرصة . يوماً ما حين سنتزوج وأكون قد وفرت النقود الكافية له ولي ، سنكون أغنياء . عندئذ سنسافر معاً ونطوف العالم كله » .

مضت الأسابيع في متجر الأطعمة المجففة مسرعة وبعدها الأشهر ومن ثم السنون وأليس تنتظر وتحلم بعودة حبيبها . ولم يكن مخدومها ، العجوز الأشيب ذو الأسنان المستعارة والشارب الخفيف الرمادي المتدلي من جانبيّ فمه يحب الكلام ، وأحياناً ، في الأيام الماطرة من الشتاء حين تهب العاصفة في الشارع الرئيسي ، تمضي الساعات دون أن يأتي أي زبون . وترتب أليس الأشياء وتعيد ترتيبها . كانت تقف قرب الواجهة وتهبط ببصرها إلى الشارع المقفر ، وتفكر في الأمسيات التي تنزهت فيها مع ند كرى وبما قاله لها « يجب أن نبقى معاً الآن » ترددت الكلمات وأرجعت الصدى في رأس المرأة المكتملة . ودمعت عيناها . حين كان

مخدومها يخرج وتبقى وحيدة في المتجر تضع رأسها على الطاولة وتبكي « آه ، ياند ، أنا أنتظر » وتهمس بها مراراً ، والخوف المتمكن من أن لايعود يزداد قوة داخلها طول الوقت .

في الربيع بعد انتهاء موسم الأمطار ، وقبل مجيء أيام الصيف الحارة ، يصبح الريف المحيط بواينسبرغ مبهجاً . تستلقي البلدة وسط حقول ممتدة ، ولكن بعد الحقول ثمة بقعاً جميلة من الغابات . في الأماكن المشجرة زوايا صغيرة منعزلة عديدة. أماكن هادئة يأوي إليها العشاق بعد ظهيرة أيام الآحاد . من خلال الأشجار ينظرون إلى الحقول الممتدة أمامهم ويرون المزارعين يعملون حول مخازن الحبوب ، أو أناساً يركبون عرباتهم على الدروب . في البلدة تقرع الأجراس وأحيانا يمر قطار ، يبدو كلعبة من بعيد .

لم تذهب أليس إلى الغابة مع أي شاب آخر في أيام الآحاد ، منذ ذهب ندكرى ولسنين عديدة ، ولكن ذات يوم ، بعد ذهابه بسنتين أو ثلاث ، وقد باتت وحشتها لاتطاق ، ارتدت أفضل ثيابها وانطلقت . عثرت لنفسها على مكان صغير ترى منه البلدة وامتداداً واسعاً من الحقول ، وجلست ، وقد تملكها خوف من التقدم في العمر والعقم . لم تستطع المكوث طويلاً ، ونهضت . لما وقفت تنظر إلى الأرض الممتدة ، ربما ركز التفكير في الحياة المستمرة بلا انقطاع ، المتمثلة في تتابع الفصول ، عقلها على مسألة مرور السنين . أدركت ، مع ارتجافة رعب ، إن جمال ونضارة الشباب لم يعد لهما وجود بالنسبة لها . شعرت للمرة الأولى بأنها

خدعت . لم تضع اللوم على ند كري ، ولم تعرف على من تضع اللوم . وغلبها الحزن . ركعت على ركبتيها وحاولت أن تصلي ، ولكن بدل الصلوات خرجت من بين شفتيها كلمات التوكيد « لن تأتيني أبداً . لن أجد السعادة أبداً . لماذا أكذب على نفسي ؟ » هكذا هتفت ، وبعدئذ اجتاحها شعور شاذ بالارتياح ، وكانت محاولتها الجريئة الأولى لمواجهة الخوف الذي بات جزءاً من حياتها اليومية .

في سنتها الخامسة والعشرين وقع لأليس هندمن أمران ، أثارا جمود أيامها الرتيبة . فقد تزوجت أمها من بوش ميلتن ، دهّان العربات من واينسبرغ وأصبحت هي عضواً في كنيسة واينسبرغ المنهجية . أنضمت أليس إلى الكنيسة لأن وحشة وضعها في الحياة أرعبتها . وقد عزز زواج أمها الثاني عزلتها . فقالت لنفسها مع ابتسامة صغيرة كالحة « انني أغدو عجوزاً غريبة الأطوار . إذا أتى ند لن يرغب بي . في المدينة حيث يقطن يظل الرجال شباناً دائماً . هناك الكثير من النشاط بحيث لايتوفر لديهم وقت ليكبروا » . واستمرت باصرار على تعرفها بالناس . في أمسية يوم الخميس حين يغلق المتجر أبوابه تذهب إلى اجتماع صلاة في الطابق الأرضي للكنيسة ، وفي أمسية الأحد تنضم إلى اجتماع منظمة تدعى عصبة أبوورث .

حين طلب ويل هرلي ، وهو رجل في منتصف العمر يعمل في صيدلية وينتمي إلى الكنيسة ، أن يرافقها إلى بيتها لم تحتج « طبعاً لن

أعوّده على مرافقتي ، ولكن إذا أتى لزيارتي مرة كل حين فلا ضرر » .
قالت لنفسها ، ولاتزال مصرّة على وفائها لند كري .

وإذا بأليس ، دون أن تدرك مايجري ، وبمحاولة ضعيفةفي البدء، لكنها ازدادت تصميماً ، تتشبث من جديد بالحياة . مشت إلى جانب موظف الصيدلية صامتة ، ولكن أحياناً في الظلام بينما هما ماضيان ببلاهة كانت تمد يدها وتلمس بنعومة طيات معطفه . حين تركها عند الباب أمام بيت أمها لم تدخل ، بل بقيت برهة عند الباب . رغبت في أن تدعو موظف الصيدلة ، أن تطلب منه الجلوس معها في الظلام في الشرفة أمام البيت ، لكنها خشيت أن لايفهم قصدها ، وقالت لنفسها « لاأريده هو ، بل أريد أن أتجنب البقاء وحيدة . إذا لم آخذ حذري فسأعتاد على أن لاأكون مع الناس »

* * *

خلال فترة مبكرة من خريف عامها السابع والعشرين استحوذ على أليس قلق عنيف . لم تعد تحتمل صحبة موظف الصيدلية ، وفي المساء ، حين كان يأتي ليأخذها في نزهة ، ترفض . وأصبح عقلها نشطاً بشدة . وحين كانت تذهب إلى البيت ، مرهقة من طول الوقوف خلف مقعد المحاسبة في المتجر ، تزحف إلى السرير ، ويجافيها النوم ، وتحملق عيناها في الظلام ، وتلهو مخيلتها ، كطفل يقظ من بعد نوم طويل ، في أرجاء الغرفة . وكان في أعماقها شيء لايمكن خداعه بالأوهام ، ويتطلب جواباً محدداً من الحياة .

أخذت أليس وسادة بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها بقوة ، ثم غادرت السرير ، وسوّت الملاءة بحيث تبدو في الظلام وكأنها شكل مستلق بين الأغطية ، بعد ذلك ركعت بالقرب من السرير ، وراحت تداعبها ، وتهمس بالكلمات وتكررها ، كاللازمة « لماذا لا يحدث شيء؟ لماذا أترك هنا وحيدة ؟ » . ورغم إنها أحياناً تفكر في ند كرى ، غير إنها لم تعد تعوّل عليه . لقد صارت رغبتها غامضة . لم تعد ترغب في ندكري أو في أي شاب آخر . أرادت أن تكون محبوبة ،أن تحصل على جواب للنداء المتصاعد أكثر فأكثر داخلها .

وذات أمسية وبينما كانت تمطر قامت أليس بمغامرة . أفزعتها وبلبلتها . فحين عادت إلى المنزل من المتجر في التاسعة وجدته خالياً . فقد انطلق بوش ميلتن إلى المدينة وذهبت أمها إلى بيت الجيران . صعدت أليس إلى الطابق العلوي إلى غرفتها وخلعت ثيابها في الظلام . وقفت للحظة قرب النافذة تنصت إلى وقع المطر على الزجاج ، وإذا برغبة تتملكها ، ودون لحظة تفكير بما تنوي عمله ، هرعت تهبط الدرج إلى الطابق السفلي وسط ظلام المنزل ومنه خرجت إلى المطر . ولما وقفت على البقعة الصغيرة المعشوشبة أمام المنزل ، واستشعرت المطر البارد على جسدها ، شبت فيها رغبة مجنونة بالخروج عارية إلى الشارع .

ظنت انه سيكون للمطر أثر خلاّق رائع على جسدها . فمنذ سنين لم تشعر بمثل هذا القدر من الامتلاء بالشباب والشجاعة . أرادت أن تقفز وتركض ، أن تصرخ ، أن تعثر على مخلوق آخر وحيد وتعانقه . وكان

على الرصيف القرميدي الممتد أمام البيت رجل يمشي متعثراً ميمّماً شطر بيته . وراحت أليس تركض . واجتاحها مزاج وحشي ملحاح ، وفكرت « ماذا يهمني من يكون ؟ إنه وحيد ، وأنا سأذهب إليه » ثم ، دون أن تتوقف لتتفكّر في عاقبة جنونها المحتملة ، هتفت « إنتظر ! لا لاتبتعد . أياً كنت ، يجب أن تنتظر » .

ارتمت أليس على الأرض وتمددت وهي ترتجف . كانت مرتعبة من التفكير بما فعلت حتى أنها ، وقد تابع الرجل طريقه ، لم تجرؤ على الوقوف على قدميها بل زحفت على يديها وركبتيها خلال العشب إلى المنزل . حين وصلت غرفتها أرتجت الباب ووضعت طاولة زينتها خلفه ، وأخذ جسدها يهتز كأنما من الصقيع ويداها ترتجفان حتى وجدت صعوبة في ارتداء قميص نومها . حين لجأت إلى السرير دفنت وجهها في الوسادة وراحت تبكي بحرقة . وفكرت «ماذا دهاني ؟ إذا لم آخذ حذري فسأرتكب عملاً شنيعاً » وأدارت وجهها نحو الحائط ، وحاولت أن تُرغم نفسها على مواجهة حقيقة أن على الكثير من الناس أن يعيشوا وحيدين ، حتى في واينسبرغ ، بشجاعة .

* * *

احترام

إذا كنت قد قطنتَ في إحدى المدن ومشيت في الحديقة العامة بعد ظهر أحد أيام الصيف ، فلا بد أنك رأيت نوعاً ضخماً ، عجيباً من القردة ، يطرف بعينيه من زاوية قفصه الحديدي ، ببشرته البشعة ، المتهدلة ، الجرداء أسفل عينيه وجزئه السفلي القرمزي البراق . هذا القرد هو وحش حقيقي . ومع بشاعته التامة يبث نوعاً من الجمال المنحرف . يقف الأولاد أمام قفصه مذهولين ، ويبتعد الرجال بسيماء التقزز ، وتتريث النساء برهة ، يحاولن أن يتذكرن أياً من معارفهن الذكور يشبه هذا المخلوق قليلاً .

لو كنت خلال سنوات حياتك الأولى مواطناً في قرية واينسبرغ ، بأوهايو ، لما لابسك أي شك حول الوحش القابع في قفصه ، ولقلت » « إنه يشبه واش ويليامز بجلسته في زاويتههكذا ، يشبه تماماً العجوز واش جالساً على العشب في باحة المحطة ، في أمسية صيف ، بعد أن يغلق مكتبه لبلاً » .

كان واش ويليامز ، عامل التلغراف في واينسبرغ ، أبشع مافي البلدة كلها : محيط جسمه هائل ، ورقبته رفيعة ، ساقاه ضعيفتان . كان قذراً ، وكل شيء فيه تعوزه النظافة ، حتى بياض عينيه بدا متسخاً .

إنني أغالي . لا ، ليس كل شيء في واش ويليامز كان قذراً . كان يُعنى بيديه ، وأصابعه ثخينة ، ولكن كان في يده ، الممدّدة على الطاولة بجانب الجهاز في مكتب التلغراف ، شيء حساس وحسن التكوين. في شبابه كان واش ويليامز معروفاً بأنه أفضل عامل تلغراف في الولاية ، ورغم نفيه إلى المكتب المغمور في واينسبرغ ، كان لايزال يفخر بمقدرته .

لم يكن واش ويليامز يعاشر أهل البلدة التي عاش فيها . كان يقول ، ناظراً بعينين دامعتين للرجال الماشين على رصيف المحطة أمام المكتب « لن يكون ثمة مايصلني بهم » . كان يسير في الشارع الرئيسي عند المساء متوجهاً إلى حانة إد غريفيث ، وبعد أن يجرع كميات لاتصدّق من البيرة يترنح عائداً إلى غرفته في منزل ويلارد الجديد ثم إلى سريره ليقضي الليل .

كان واش ويليامز رجلاً شجاعاً ، وقد وقع له حادث جعله يكره الحياة ، وقد كرهها من كل قلبه ، وتخلى عنها تخلي الشاعر . أولاً ، كره النساء . وسماهن « عاهرات » . أما شعوره نحو الرجال فكان مختلفاً قليلاً ، لقد أشفق عليهم . وسأل « أليس كل رجل يترك لهذه العاهرة أو تلك أن تسوس له حياته ؟ » .

لم يكن أحد يلتفت إلى واش ويليامز في واينسبرغ ، واكرهه لبقية الرجال . وذات مرة اشتكت السيدة وايت ، زوجة صاحب البنك ، إلى شركة التلغراف قائلة إن المكتب في واينسبرغ قذر وتفوحُ منه روائح كريهة بشكل لايطاق ، لكن شكواها لم تفضِ إلى نتيجة . وكان عامل التلغراف يحظى هنا وهناك برجل يحترمه . كان الرجل يشعر حدسياً أن في داخله احتقاراً متوهجاً لشيء لايقوى على احتقاره . وحين يكون واش متجولاً في الشوارع يشعر مثل هذا الرجل غريزياً برغبة في تقديم التبجيل له ، إن يرفع قبعته أو أن ينحني أمامه . وقد أحس المناظر المشرف على عمال التلغراف في محطة سكة الحديد المارة من واينسبرغ بهذا الشعور . وهو الذي عيّن واش في المكتب المغمور في واينسبرغ ليتجنب صرفه من الخدمة ، وقصد أن يبقيه هناك . وحين استلم رسالة شكوى زوجة صاحب البنك ، مزقها وضحك ضحكة بغيضة . ولسبب مافكر بزوجته وهو يمزق الرسالة .

وواش ويليامز كان متزوجاً مرة . حين كان شاباً تزوج امرأة في ديتون ، من أوهايو . كانت المرأة ممشوقة ونحيلة وذات عينين زرقاوين وشعر أصهب . وكان واش نفسه شاباً وسيماً ، أحب المرأة حباً مستحوذاً يعادل الكره الذي كنه فيما بعد لجميع النساء .

لم يكن في واينسبرغ كلها سوى شخص واحد عرف قصة الشيء الذي شوّه شخص وشخصية واش ويليامز . حكى حكايته مرة لجورج ويلارد وحدث هذا على النحو التالي :

خرج جورج ويلارد ذات أمسية ليتمشى مع بيل كاربنتر ، التي تعمل مزركشة قبعات نسائية في محل لبيع القبعات تديره السيدة كيت ماكهيو . ولم يكن الشاب يهيم بالمرأة ، التي كانت ، في الواقع ، مخطوبة لشاب يعمل سائقاً في حانة إد غريفيث ، ولكن بينما هما يتمشيان تحت الأشجار تعانقا صدفة . فقد أثار الليل وأفكارهما الخاصة شيئاً داخلهما . وأثناء عودتهما إلى الشارع الرئيسي مرّا بالمرج الصغير الكائن بجانب محطة سكة الحديد وميزا واش ويليامز بوضوح نائماً على العشب تحت شجرة . في الأمسية التالية خرج عامل التلغراف وجورج ويلارد ليتنزها معاً . عبرا من تحت خط سكة الحديد وجلسا على مجموعة من قضبان سكة الحديد التالفة بالقرب من العربات . في ذلك الوقت حكى عامل التلغراف للمراسل الشاب قصة حقده .

ربما عاد جورج ويلارد والرجل ذو الشكل الغريب العجيب ، القاطن في فندق أبيه ، دزينة من المرات إلى بداية الحديث . نظر الشاب إلى الوجه البشع ذي النظرة الشذراء وهويدير بصره في غرفة الطعام في الفندق ، بفضول جم . ورأى شيئاً مختبئاً في العينين المحملقتين أنبأه أن الرجل الذي لم يكن لديه مايقول للآخرين، لديه مايخبره به . وانتظر بترقب ، وهما جالسان على كومة قضبان الحديد في الأمسية الصيفية . ولما بقي العامل صامتاً ، وكأنه غيّر رأيه بشأن التحدث، حاول أن يبدأ الحديث . قال « ألم تتزوج أبداً ، ياسيد ويليامز ؟ أعتقد أنك تزوجت ، وزوجتك متوفاة ، صحيح ؟ » .

أطلق واش ويليامز سلسلة من السباب القذر « نعم ، لقد ماتت . إنها ميتة كما جميع النساء . إنها ميتة حية ، تمشي أمام مرآى من الرجال وتلوث الأرض بوجودها » قال موافقاً ، وهو يحملق في عيني الشاب ، وتصاعد غضبه حتى الاحتقان ، وطلب منه قائلاً « لاتحتفظ بأية أفكار حمقاء في رأسك . زوجتي ماتت ، نعم ، بحق . أؤكد لك . كل النساء موتى ، أمي ، أملك ، وتلك المرأة السمراء التي تعمل في محل بيع القبعات ورأيتك تتجول معها بالأمس — كلهن ، كلهن ميتات . أؤكد لك أن ثمة شيئاً عفناً فيهن . لقد تزوجت مرة ، طبعاً . كانت زوجتي قبل أن تتزوجني ، فاسدة ولدتها امرأة أكثر فساداً . كانت امرأة جاءت لتجعل حياتي غير محتملة . كنت أحمق ، ألا ترى ، مثلك أنت الآن ، ولهذا تزوجت تلك المرأة . أود لو أرى الرجال يفهمون النساء قليلاً . لقد أرسلهم الله لمنع الرجال من جعل العالم يستحق أي شيء . إنها خدعة من الطبيعة . إغه ! إنهن مخلوقات زاحفة ، متسلّلة ، ملتوية ، بأياديهن الناعمة وعيونهن الزرقاء . إن مرآى امرأة يقززني . لاأعلم لماذا لاأقتل كل امرأة يقع عليها نظري » .

أنصت جورج ويلارد بشبه خوف ، ومع ذلك فتن بالنور المشع من عينيّ العجوز البشع وقد أشعله الفضول . حل الظلام ومال إلى الأمام يحاول أن يرى وجه محدثه . ولما لم يعد يرى ، وسط الظلام المتكاثف ، الوجه المحتقن ، المنتفخ والعينين الملتهبتين ، قوى فضول خياله . تحدث واش ويليامز بنبرة منخفضة هادئة جعلت كلماته تلهم الرعب أكثر .

وجد المراسل الشاب نفسه وسط الظلام ، يتخيل أنه جالس على قضبان حديدية بجوار شاب وسيم ذي شعر أسود وعينين سوداوين لامعتين . كان في صوت واش ويليامز ، البشع ، شيء أقرب للجمال ، وهو يحكي قصة حقده .

وأصبح عامل تلغراف محطة واينسبرغ ، الجالس في الظلام على قضبان سكة الحديد ، شاعراً ، لقد أثاره الحقد إلى ذات المستوى . قال « أقص عليك هذه القصة لأنني رأيتك تقبل شفتيّ بيل كاربنتر تلك . قد يقع لك ماوقع لي . أريدك أن تنتبه لنفسك . ربما تضطرم الأحلام في رأسك . أريد أن أدمرها » .

وبدأ واش ويليامز يسرد قصة فترة زواجه من تلك الشقراء الممشوقة ذات العينين الزرقاوين التي قابلها حين كان عاملاً شاباً في ديتون ، أوهايو . كانت حكايته موشّاة هنا وهناك بلمسات ممزوجة بخيوط من السباب القذر . لقد تزوج العامل ابنة طبيب أسنان كانت صغرى ثلاث بنات . يوم زفافه رقّي ، بسبب مهارته ، إلى مركز مرسِل مع زيادة في المرتب ، وأرسل إلى مكتب في كولومبوس ، أوهايو . واستقر هناك مع زوجته الشابة وبدأ بشراء بيت بالتقسيط .

كان عامل التلغراف هائماً بالحب . ونجح في المرور بأشراك مرحلة الشباب ، والبقاء طاهراً حتى تزوج ، بعون نوع من حماسة دينية . ورسم لجورج ويلارد لوحة لحياته في بيت في كولومبوس ، أوهايو ، مع الزوجة الشابة . قال « زرعنا في حديقة البيت الخلفية الخضروات ،

كما تعلم ، البازيلاء ، والذرة وماشابههما . ذهبنا إلى كواوميوس في أوائل آذار ، وحالما صار الجو دافئاً رحت أعمل في الحديقة . حفرت الأرض الداكنة بالرفش ، بينما هي تتجول ضاحكة تتظاهر بالخوف من الديدان التي أظهرها . برز الزرع في أواخر نيسان . وكانت تقف في الدروب الضيقة بين مساكب البذور لاقحمها في التربة الدافئة ، الطرية » .

توقف صوت الرجل المتحدث في الظلام لحظة ، ثم قال « أحببتها . لاأدّعي أنني لم أكن مغفلاً . ومع ذلك أحببتها . هناك ، عند الغروب في ليلة ربيعية ، زحفت على التربة الدكناء حتى قدميها وجثمت أمامها . قبّلت حذاءها والكاحلين . وحين لمست أهداب ثوبها وجهي ارتعشت . وحين اكتشفت ، بعد سنتين من هذه الحياة ، إنها نجحت في الحصول على ثلاثة عشاق آخرين ، كانوا يترددون بانتظام إلى بيتنا أثناء غيابي في العمل ، لم أرغب في أذيتهم أو أذيتها . اكتفيت بارسالها إلى بيت أمها دون أن أتفوه بكلمة . لم يكن ثمة مايقال . بعد ذهابها رحت أبكي كوالد غر ، وسرعان ماأتيحت لي فرصة لبيع البيت، وأرسلت لها النقود » .

نهض واش ويليامز وجورج ويلارد عن قضبان الحديد ومشيا مارّين بصف العربات متجهين صوب البلدة . وأنهى عامل التلغراف حكايته بسرعة ، وهو يلهث .

قال « استدعتني أمها ، كتبت لي رسالة تطلب مني أن آتي إلى بيتهم في ديتون . حين وصلت كان المساء قد حل ، كهذا الوقت » .

وارتفع صوت واش ويليامز إلى شبه صراخ « جلست في صالة ذاك البيت مدة ساعتين . وضعتني أمها هناك وتركتني . كان بيتهم على آخر طراز . كانوا ، كما يقال ، أناساً محترمين . كان في الغرفة أرائك ذات وبر ناعم ومقعد . وصار جسمي كله يرتعش . حقدت على الرجال الذين ظننت أنهم غرروا بها . كنت سئماً من العيش وحيداً ورغبت بعودتها . وكلما طال انتظاري صرت أكثر تسامحاً ورقة . ظننت إنه إذا دخلت ولمستني فقط بيدها لأغمي عليّ . كنت أتألم رغبة في مسامحتها ونسيان إساءتها » .

سكت واش ويليامز ووقف يحملق بجورج ويلارد . كان الشاب يرتجف كأنما أصابه البرد . ومن جديد عاد صوت الرجل هادئاً منخفضاً ، وتابع « دخلت إلى الغرفة عارية . أمها هي التي عرّتها . فبينما كنت جالساً مكاني أخذت الأم تخلع ثياب الفتاة عنها ، وربما أغرتها بذلك . في أول الأمر سمعت أصواتاً عند الباب المؤدي إلى الرواق الصغير ثم فتح على مهل . كانت الفتاة خجلى ووقفت جامدة تماماً تحملق في الأرض . لم تدخل الأم إلى الغرفة . حين دفعت بالفتاة من خلال الباب وقفت هي في الرواق ، آملة أننا — يعني ، كما تعلم — انتظرت » .

وصل جورج ويلارد وعامل التلغراف إلى الشارع الرئيسي لبلدة واينسبرغ . كانت الأنوار الموضوعة في واجهات المتاجر تشع وتتلألأ على

الأرصفة ، والناس يتجولون وهم يضحكون ويتحدثون . وشعر المراسل الشاب بالمرض والضعف . وأصبح خياله عجوزاً لاشكل له . وقال واش ويلیامز ، محملقاً في الشارع « لم أقتل الأم ، لكني ضربتها مرة بالكرسي ثم جاء الجيران وأخذوه مني . وصرخت بصوت عال . لن تسنح لي الفرصة ثانية لأقتلها . لقد ماتت من الحمى بعد الحادثة بشهر » .

* * *


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المفكر

كان البيت الذي يقطنه سث ريتشموند من واينسبرغ مع أمه ذات مرة قبلة البلدة ، ولكن حين انتقل إليه سث خبا بريق مجده نوعاً ما . لقد غطى عليه البيت القرميدي الكبير الذي أشاده بانكر وايت في شارع بكي . كان بيت ريتشموند يقوم في واد صغير في الطرف القصي من الشارع الرئيسي . وكان المزارعون يأتون إلى البلدة على درب مغبر من الجنوب بحذاء مرج من أشجار الجوز ، ويحوط أرض السوق بسياجه الخشبي العالي المغطى بالاعلانات التجارية ، ويطرقون طريقهم إلى الوادي على ظهور خيولهم ، مروراً ببيت ريتشموند إلى البلدة . ولما كانت أغلب مناطق شمال وجنوب أراضي واينسبرغ مخصصة لزراعة الفاكهة والتوت ، كان سث يرى عربات ملأى بجامعي التوت — شبان ، وفتيات ، ونساء — يتوجهون إلى الحقول في الصباح ، ويعودون في المساء وقد غطاهم الغبار . ويتعالى صراخ ثرثرة الحشد ، بنكاتهم البذيئة ، من عربة إلى عربة ، مما

أثار أحياناً سخطه الشديد . كان يتحسر لأنه لايستطيع بدوره أن يضحك بصوت عال ، وأن يصرخ بنكات تافهة ويجعل من نفسه شخصية بارزة ضمن المجرى المترامي للنشاط المتحرك ، المقهقه ، الجاري صعوداً وهبوطاً في الشارع .

بني بيت ريتشموند من الحجر الكلسي ، ورغم أنه قيل في القرية انه قد تهدم ، فقد صار في الواقع أكثر جمالاً مع انصرام كل عام . وسرعان مابدأ الحجر يتلون بتأثير الزمن ، تاركاً غنى ذهبياً على سطحه ، وفي المساء أو الأيام المظلمة يلمس الأماكن الظليلة تحت الأفاريز ببقع متمايلة سمراء وسوداء .

بنى البيت جد سث ، وكان لديه مقالع أحجار ، وقد ترك البيت مع المقالع في منطقة بحيرة أرى ، على مبعدة ثمانية عشر ميلاً إلى الشمال ، لابنه كليرانس ريتشموند ، والد سث . وكان كليرانس ريتشموند ، الرجل الهادىء المتحمس محبوباً من جيرانه حباً استثنائياً ، قد قتل في شجار وسط الشارع مع ناشر صحيفة في توليدو ، أوهايو . وكان الشجار بخصوص نشر اسم كليرانس ريتشموند مقروناً باسم فتاة مدرّسة ، ولما كان المغدور قد بدأ الشجار باطلاق النار على الناشر ، لم تنجح المساعي لمعاقبة القاتل . بعد موت صاحب المقالع وجد أن أغلب النقود المورّثة له قد بدّدت في المضاربة ، وفي توظيفات غير مضمونة قام بها بتأثير من الأصدقاء .

استقرت فيرجينيا ريتشموند ، وقد بقي لها دخل صغير ، في حياة منعزلة في القرية وسخّرت نفسها لتربية ابنها . ورغم تأثرها البالغ لموت زوجها ووالد ابنها ، لم تصدق الروايات التي دارت بشأنه بعد موته . كان رجلها الشاب الذي أحبه الجميع حباً فطرياً ، بالنسبة لعقلها الحساس ، مجرد مخلوق عاثر الحظ ، وأرقى من أن يحتمل الحياة اليومية ، وقالت لابنها « ستسمع كل أنواع القصص . ولكن يجب أن لاتصدق ماتسمع . لقد كان رجلاً طيباً ، مملوءاً بالرأفة نحو كل إنسان ، وماكان يجب أن ينخرط في مجال إدارة الأعمال . إنني مهما أخطط وأحلم لمستقبلك ، فلن أستطيع أن أتصور ماهو أفضل لك من أن تغدو رجلاً طيباً كأبيك » .

بعد وفاة زوجها بعدة سنوات ، تزايد فزع فيرجينيا ريتشموند من المتطلبات المتزايدة التي تثقل على طاقة دخلها ، وراحت تعمل جاهدة لمضاعفته . كانت قد تعلمت الاختزال ، ونجحت ، بتأثير من أصدقاء زوجها ، في الحصول على مركز مختزلة في المحكمة ، في مقر المقاطعة . كانت تتوجه إلى هناك كل صباح خلال دورات المحكمة ، وحين لا يكون ثمة محاكمات ، تقضي أوقاتها في تشذيب ورودها في الحديقة . كانت ممشوقة ، وذات قامة معتدلة ، ووجه واضح الملامح ، وشعر شديد الكثافة .

كانت علاقتها مع ست ريتشموند تتصف بأنه رغم عدم تجاوزه الثامنة عشرة ، أخذ يحدد لنفسه طبيعة علاقته مع بقية الرجال . وكان

احترامها غير المعقول له يجعلها في أغلب الأحيان تجلس صامتة في حضرته. وحين تحادثه بحدّة ، لم يكن عليه سوى أن ينظر نظرة ثابتة في عينيها ليرى نظرتها الحيرى تنمو ، والنظرة نفسها التي يراها في وجوه الآخرين حين ينظر إليهم .

والسر يكمن في قدرة الابن على التفكير بوضوح ، بخلاف أمه . كانت هي تتوقع من كل الناس أن يبدوا ردود فعل تقليدية في الحياة . الابن ابنك ، تستطيع تأنيبه وهو سيرتجف ويخفض بصره إلى الأرض . حين تؤنبه بما يكفي يبكي يبكي وينسى كل شيء . بعد البكاء والذهاب إلى السرير ، تتسلل إلى غرفته وتقبّله .

لم تفهم فيرجينيا ريتشموند لماذا لايقوم إبنها بهذه الأفعال . فبعد التأنيب العنيف ، لم يكن يرتجف ويخفض بصره إلى الأرض بل على العكس ينظر إليها بثبات ، مما يجعل الشكوك القلقة تغزو رأسها . أما بالنسبة التسلل إلى غرفته — فبعد أن تخطى سث سنته الخامسة عشرة ، صارت تخاف القيام بمثل هذا التصرف .

ذات مرة حين كان صبياً في السادسة عشرة ، هرب سث مع اثنين من الصبية من البيت . ودخلوا ثلاثتهم باب سيارة مفتوحة وقطعوا حوالي الأربعين ميلاً إلى إحدى المدن الصغيرة حيث كان يقام احتفال . وكان مع أحد الصبية قنينة مملوءة بمزيج من الويسكي وخمر العليق ، وجلس الثلاثة وهم يدلون سيقانهم من باب السيارة ويشربون من القنينة . راح رفيقا سث يغنيان ويلوحان بأيديهما المتبطلين المنتشرين حول المحطات

في المدن التي مروا فيها . وخططوا لشن غارات على سلال المزارعين الذين يأتون مع عوائلهم إلى الاحتفال ، وأعلنوا بفخر « سنعيش كالملوك ولن نضطر للدفع بنس واحد لمشاهدة الاحتفال وسباقات الخيل » .

بعد اختفاء سث ، راحت فيرجينيا ريتشموند تتجول في الطابق الأرضي من بيتها حائرة تملؤها مخاوف سوداوية . ورغم أنها اكتشفت في اليوم التالي ، من خلال تحقيق قام به عمدة البلدة أمر المغامرة التي قام بها الأولاد ، لم تستطع تهدئة نفسها . وظلت مستيقظة طوال الليل تنصت إلى تكات الساعة وهي تقول لنفسها ان سث ، مثل أبيه ، سينتهي نهاية مفاجئة مفجعة . هذه المرة كان تصميمها شديداً حتى يشعر الولد بوطئة غضبها ، مع أنها لم تسمح للعمدة بالتدخل بمغامرته ، ثم أخرجت قلماً وورقة ودوّنت سلسلة من التأنيبات الحادة ، القارصة وهي تنوي أن تسمعه اياها . حفظت التقريعات في ذاكرتها ، وأنشأت تتجول في الحديقة وهي تتلوى بصوت عال كممثل يستظهر دوره .

وبنهاية الأسبوع ، حين عاد سث ، مرهقاً قليلاً وسخام الفحم يلطخ أذنيه وحول عينيه ، وجدت نفسها من جديد غير قادرة على تأنيبه . دخل إلى البيت وعلق قبعته على المسمار قرب باب المطبخ ووقف ينظر إليها بثبات . وشرح« كنت أنوي العودة بعد ساعة من ذهابنا . لم أعرف ماذا أفعل . كنت أعلم أنك ستنزعجين ، لكني عرفت أيضاً انني إذا لم استمر سأخجل من نفسي . فتابعت مانويت لصالحي . كان أمراً قاسياً ، نمنا على قش مبلل ، وجاء زنجيان ثملان وناما معنا . بعد أن

سرقت سلة غداء من عربة أحد المزارعين فظللت أفكر في أولاده وكيف بقوا طوال نهارهم بلا قوت . قرفت من العملية كلها ، لكني صممت على انهائها حتى يقرر الولدان العودة » .

أجابت الأم ، في شبه امتعاض « أنا سعيدة لأنك بقيت حتى النهاية » ثم قبلته على جبهته وتظاهرت بالانشغال في أعمال المنزل .

وفي أمسية صيف ذهب سث ريتشموند إلى فندق ويلارد الجديد ليزور صديقه ، جورج ويلارد . كانت تمطر طوال بعد الظهر ، ولكن ماإن دخل الشارع الرئيسي ، حتى انجلت السماء جزئياً وأضاء الغرب وهج ذهبي . وانحدر عند الزاوية ، وتحول ليلج باب الفندق وبدأ يرتقي الدرج المؤدي إلى غرفة صديقه . في مكتب الفندق كان صاحب الملك واثنان من المسافرين مندمجين في نقاش سياسي .

وقف سث على الدرج وأنصت إلى أصوات الرجال في الأسفل . كانوا مهتاجين وهم يتحدثون بسرعة . وكان توم يعنف بقسوة المسافرين ، ويقول « أنا ديموقراطي لكن كلامكما يسئمني . إنكما لاتفهمان ماكنلي . إن ماكنلي ومارك حنا صديقان . ربما من المستحيل عليكما أن تفهما هذا . إذا قال لكما أحدهم إنه يمكن للصداقة أن تكون أعمق وأعظم وأكثر قيمة من الدولارات والسنتات ، أو أهم من سياسة الدولة ، تسخرون وتضحكون » .

قاطع أحد الضيوف صاحب الفندق ، وكان طويلاً ، ذا شارب رمادي يعمل لحساب مؤسسة لبيع البقالة بالجملة ، وسأل « أتظن أني

عشت في كليفلاند طوال كل هذه السنين دون أن أعرف مارك حنا ؟ كلامك هراء . حنا يجري وراء المال دون سواه ، وماكنلي هذا أداة في يده . لقد خدع ماكنلي ولاتنس هذا » .

لم يتريث الشاب الواقف على الدرج ليسمع بقية النقاش ، بل تابع طريقه ودخل رواقاً مظلماً صغيراً . أثار شيء في أصوات المتحدثين ، في مكتب الفندق ، سلسلة من الأفكار في رأسه . كان وحيداً وقد بدأ يرى أن الوحدة هي جزء من شخصيته ، وهذه نتيجة ستلازمه دائماً . بعد أن دخل رواقا جانبياً وقف بجانب احدى النوافذ المطلة على الزقاق ، ورأى أبنر غروف ، خباز البلدة ، يقف عند الباب الخلفي لدكانه . راحت عيناه الصغيرتان المحتقنتان تمسح الشارع كله . نادى أحدهم على الخباز من داخل الدكان ، فتظاهر بعدم السماع . الخباز يحمل زجاجة حليب فارغة في يده وفي عينيه نظرة غضب متجهمة .

كان سث ريتشموند يدعى ، في واينسبرغ بـ « العميق » . فيقول الناس حين يرونه ماشياً في الشارع « إنه مثل أبيه ، وذات يومٍ سينفجر . إنتظروا وسترون » .

لقد أثّر حديث البلدة ، والاحترام الذي كان الرجال والأولاد يقابلونه به غريزياً ، كما يقابل جميع الناس الصامتين ، في نظرة سث ريتشموند إلى الحياة وإلى نفسه . كان ، كأغلب الشبان الصغار ، أعمق مما يظن به ، لكنه لم يكن كما يظنه أهل البلدة ، أو أمه . لم يكن خلف صمته المعتاد أي هدف عظيم ، ولم تكن لديه خطة محددة لحياته . حين كان

رفاقه من الصبية يثيرون الضجيج والشجار ، يقف هو جانباً هادئاً . ويروح يراقب بعينين ساكنتين القامات المومئة الحيوية لرفاقه . لم يكن مهتماً اهتماماً خاصاً بما يجري ، وأحياناً يتساءل إن كان سيأتي وقت يهتم فيه بأي شيء . والآن ، بينما هو واقف في الرواق المظلم بجانب النافذة يراقب الخباز ، رغب أن يجد مايثيره بشكل هائل ، حتى ولو كان هذا الشيء نوبات غضب جهمة كالتي اشتهر بها الخباز غروف ، وفكر « من الأفضل لي لو أثار وأنخرط في جدال في السياسة كالعجوز الطنان توم ويلارد » فكر بهذا وهو يترك النافذة ويتابع طريقه في الرواق إلى الغرفة التي يشغلها صديقه ، جورج ويلارد .

كان جورج ويلارد أكبر سناً من سث ريتشموند ، ولكن في وضع الصداقة الغريبة التي قامت بينهما ، كان هو الذي يتودد والشاب الصغير هو المتودَّد إليه . وكان للصحيفة التي يعمل بها جورج سياسة واحدة ، فتحاول أن تذكر بالاسم ، وفي كل نسخة ، أكبر عدد ممكن من سكان القرية . وكان جورج ويلارد يهرع ، ككلب هائج ، هنا وهناك ، يدوّن الملاحظات على حزمة ورق ، فتراه ذاهباً في عمل إلى محكمة المقاطعة ، أو عائداً من زيارة إلى قرية مجاورة ، ويقضي نهاره وهو يدوّن حقائق صغيرة على الورق . « استلم أ . ب رينغلت شحنة من قبعات القش ، وفي يوم الجمعة كان اد بايربوم وتوم مارشال في كليفلاند . العم توم سيننغ يبني مخزنا جديداً لحبوب في أرضه في فالي رود » .

وقد نسيت الفكرة القائلة أن جورج ويلارد يمكن أن يغدو كاتباً

ذات يوم وان تصبح له مكانة متميزة في واينسبرغ ، وكان يتحدث بالأمر دائماً إلى ست ريتشموند . ويتحمس ويفتخر بنفسه قائلاً « انها حياة رخيّة أن تنتقل هنا وهناك ، دون أن تكون مرؤوساً ، وحتى وان كنت في الهند أو في البحار الجنوبية على متن مركب ، ماعليك سوى أن تكتب وهذا كل شيء . انتظر حتى يبرز اسمي ثم انظر أية حياة سأعيش ».

في غرفة جورج ويلارد ، التي فيها نافذة تطل على الزقاق ، وأخرى تطل عبر عربات سكة الحديد على مطعم بف كارتر ، المواجهة لمحطة سكة الحديد . جلس ست ريتشموند على كرسي وراح ينظر إلى الأرض . رحب به جورج ويلارد باندفاع ، وكان جالساً طوال ساعة يعبث بكسل بقلم الرصاص . وشرح له وهو يضحك بتوتر « كنت أحاول أن أكتب قصة حب » ثم أشعل الغليون ، وبدأ يمشي في الغرفة جيئة وذهاباً « أعلم ماذا سأفعل . سأعشق . كنت جالساً هنا أقلب التفكير في الأمر ، وقررت أن أعشق » .

وقف جورج عند النافذة ، مديراً ظهره لصديقه ومال متكئاً عليها ، كأنه ارتباك من إعلانه . وقال بحدة « أعرف من سأعشق . إنها هيلين وايت . انها الفتاة الوحيدة في البلدة التي لها شكل حسن » .

التفت الشاب ويلارد ، وقد خطرت له فكرة ، ومشي إلى زائره ، وقال « اسمع ، أنت تعرف هيلين وايت أكثر مني . أريدك أن تخبرها ماقلت . تحدث معها فقط وقل إني أحبها ، وانقل لي ردة فعلها . راقب كيف تتلقى الأمر ، ثم تعال واخبرني » .

نهض ست ريتشموند وتوجه نحو الباب . لقد سبّب له كلام صديقه اضطراباً لايحتمل ، وقال باقتضاب « حسن ، إلى اللقاء» .

ذهل جورج ، وتقدم مسرعاً ووقف في الظلام يحاول أن ينظر في وجه ست واستحثه « ماالأمر ؟ ماذا ستفعل؟ إبق هنا ودعناتتحادث » .

وشعر بموجة من الامتعاض نحو صديقه . لقد جعله أهل البلدة الذين كانوا ، كما ظن ، لايذكرون أي شيء ضد عادته في الاستغراق في الصمت ، شبه يائس . « أوه ، حادثها أنت » هكذا انفجر ثم اندفع خارجاً من الباب ، وصفقه بقوة في وجه صديقه ، وغمغم « سأذهب لأعثر على هيلين وايت لأتحادث معها ، ولكن ليس بشأنه » .

هبط ست الدرج وخرج من باب الفندق وهو يرغي غضباً . وعبر طريقاً صغيرة مغبرة واجتاز سياجاً حديدياً واطئاً ، وتوجه ليجلس على العشب في باحة المحطة . كان رأيه ان جورج ويلارد أحمق كبير ، ورغب لو يقول هذا بعنف أكبر . رغم أن معرفته بهيلين وايت ، ابنة صاحب البنك ، كانت سطحية وعابرة ، فغالباً ما كانت الموضوع المستحوذ على افكاره ، وشعر أنها تخصه ومن ضمن أموره الشخصية . وهمهم ، وهو يستدير لينظر عبر كتفيه إلى غرفة جورج ونلارد « ياللأبله المشغول وقصصه الغرامية ! لماذا لايمل أبداً من أحاديثه التي لاتنتهي » .

كان وقت حصاد العليق قد حان في واينسبرغ ، وعلى رصيف المحطة راح رجال وصبية يشحنون صناديق العليق ، الأحمر ، ذي

العبير ، داخل إثنتين من عربات القطار الواقف . كان قمر حزيران ساطعاً في السماء ، رغم أن العاصفة تهدد بالهبوب ناحية الغرب ، ولم تضء مصابيح الشارع بعد . وتحت ضوء النهار الخافت بدت قامات الرجال ، الواقفين فوق عربة القطار وهم يقذفون الصناديق إلى الداخل عند أبواب السيارات ، معتمة . وعلى السياج الحديدي الذي يحمي مرج المحطة جلس رجال آخرون . وأضيئت الغلايين ، وتطايرت النكات القروية . وعن بعد سمع صفير قطار . وراح الرجال الذين يشحنون الصناديق داخل العربات يعملون بنشاط متجدد . نهض سث من مكانه على العشب ومضى صامتاً تاركاً الرجال جاثمين على السياج متوجهاً إلى الشارع الرئيسي . لقد توصل إلى قرار ، وقال لنفسه « سأرحل من هنا . مافائدة البقاء في هذا المكان ؟ سأرحل إلى مدينة أخرى وأجد عملاً . سأحدث أمي بالأمر غداً » .

تابع سث ريتشموند طريقه متمهلاً في الشارع الرئيسي ، مر أمام متجر دخان واكر ، وقاعة المدينة ، يبغي شارع بَكي . أغمّه أن لايكون جزءاً من بلدته هو ، لكن الغم لم يزحف عميقاً بما أنه لم يفكر في نفسه بوصفه على خطأ . توقف ، تحت ظلال شجرة ضخمة أمام بيت الدكتور ويلينغ ، وراح يراقب تورك سمولت نصف المجنون ، الذي كان يجر عربة يد في الشارع . وكان العجوز بعقله القاصر المثير للسخرية ، قد وضع دزينة من ألواح الخشب الطويلة في عربة اليد ، وبينما هو يهرع مسرعاً في الطريق ، أخذ يوازن الحمولة بدقة فائقة .

وصرخ العجوز لنفسه « على مهلك ، ياتورك ، اثبت الآن ، ياصاحبي ! » وشرع يضحك حتى أن الألواح اهتزت بشكل خطر .

كان ست يعرف تورك سمولت ، قاطع الحطب نصف المجنون ، الذي كانت أطواره الغريبة تضيف الكثير من الظرف إلى حياة القرية . كان يعرف انه حين يدخل تورك سمولت الشارع الرئيسي يصبح مركز دوامة من الهتافات والتعليقات ، وان العجوز انحرف عن طريقه كثيراً ، ليمر من الشارع الرئيسي وليعرض مهارته في موازنة ألواح الخشب . وفكر ست « لو كان جورج ويلارد هنا ، لحصل على خبر ينشره . ان جورج ينتمي إلى هذه البلدة ، فهو يصرخ في وجه تورك وتورك يصرخ في وجهه . وهما معاً يسعدان في سريرتهما لما يقولانه . الأمر يختلف بالنسبة لي . انني لاأشعر باللانتماء ، ولست على استعداد لإثارة شجار لأجله ، بل سأرحل من هنا » .

تعثّر ست في مشيته وهو يتقدم في شبه ظلام ، وشعر انه منبوذ في بلدته . وبدأ يشفق على نفسه ، لكن سخف أفكاره دفعه للابتسام . وأخيراً قرر انه ببساطة يتجاوز سنين عمره ، وأنه ليس مدعاة للشفقة على الاطلاق . وقرر « لقد خلقت لأعمل . قد أتمكن من توفير مكانة مميزة لنفسي بالعمل الحثيث ، وقد أنجح » .

دخل ست منزل بانكروايت ووقف في الظلام بجانب الباب الأمامي . وعلى الباب تدلّت مطرقة باب قاسية ثقيلة . لقد أدخلت أم هيلين وايت الابتكار إلى القرية ، ونظمت أيضاً نادياً نسوياً لدراسة

الشعر . رفع ست المطرقة وتركها تسقط . ورجعت الطرطقة كأنها دوي بنادق عن بعد . وراح يفكر « كم أنا أخرق ! إذا فتحت لي السيدة وايت الباب لن أعرف ماذا سأقول » .

هيلين وايت هي التي أتت إلى الباب ووجدت ست واقفاً عند طرف الشرفة . فخطت إلى الأمام ، وقد علت حمرة السعادة وجهها ، ثم أغلقت الباب بنعومة . قال لها « أنا راحل عن البلدة . لاأعرف ماذا سأفعل ، لكني سأرحل من هنا وأجد عملاً . أظن أني سأتوجه إلى مدينة كولومبوس ، وقد ألتحق هنك بالجامعة . مهما يكن ، أنا راحل . سأخبر أمي هذا المساء » ثم تردد قليلاً ونظر حوله بارتياب « لاأظنك تمانعين بالتمشي معي ؟ » .

مشى ست وهيلين في الشوارع تحت الأشجار . وكانت الغيوم قد غطت وجه القمر ، وأمامهما في الغسق الحالك مضى رجل يحمل على كتفه سلماً قصيراً . تقدم الرجل مسرعاً ، ثم وقف عند معبر الشارع ، وبعد أن أسند السلم على عمود كهرباء خشبي أضاء مصابيح القرية ، وهكذا أنير دربهما نصف إنارة ، وبقي نصف مظلم ، بفعل المصابيح وبفعل الظلال التي زادتها قتامة الأشجار ذات الأغصان الواطئة . وعلى قمة الأشجار راحت الريح تمرح ، مزعجة العصافير الهاجعة فأخذت تطير وهي تزقزق حزناً . أمام إحدى البقع التي تضيئها المصابيح ، حامت الوطاويط ودارت ، تلاحق الحشود المتجمعة ن ذباب الليل .

منذ ان كان سث ولداً يرتدي بنطالاً قصيراً نشأت بينه وبين الفتاة ، التي تتنزه معه الآن ولأول مرة ، صداقة حميمة شبه معلنة . وكان قد انتابها لفترة من الزمن جنون كتابة الملاحظات الموجهة لسث . وقد وجدها مخبأة في كتبه في المدرسة ، ووصلته احداها عن طريق ولد قابله في الطريق ، بينما سلّمت البقية عن طريق ساعي بريد القرية .

كتبت الملاحظات بخط كبير ، صبياني يدل على عقل ملتهب بقراءة القصص . لم يجب سث عليها ، رغم انه تأثر بها واستحسن بعض الجمل ، المخطوطة بقلم رصاص على ورق من عند زوجة صاحب البنك. كان بعد أن يضعها في جيب معطفه ، يذهب ليتمشى في الشارع ، أو يقف مستنداً إلى سياج باحة المدرسة وقد اضطرم شيء في جنبه . شعر انه رائع أن يكون أثير أغنى وأجمل فتاة في البلدة . وقفت هيلين مع سث بجانب سياج قريب من بناء مظلم منخفض يواجه الشارع . كان البناء ذات يوم مصنعاً لصنع أضلاع لابراميل ، أما الآن فهو خال . وعبر الشارع ، على شرفة أحد المنازل ، جلس رجل وامرأة يتحدثان عن طفولتهما ، ووصل صوتاهما صافيين إلى الشاب والفتاة المرتبكين قليلاً . وسمع صوت حفيف كراس ، ثم نزل الرجل والمرأة إلى الممشى المفروش بالحصى واقتربا من البوابة الخشبية حين خرجا من البوابة انحنى الرجل وقبل المرأة ، وقال « من أجل الأيام الخوالي » ثم استدار ومشى مسرعاً مبتعداً على الرصيف .

همست هيلين « هذه بل ترنر » ووضعت يدها بشجاعة في يد

ست « لم أكن أعلم أن لها صديقاً . ظننت أنها كبرت على هذا » .
وضحك ست بارتباك . كانت يد الفتاة دافئة وغريبة ، وانتابه دوار وفاجأته رغبة بأن يقول لها شيئاً كان مصمماً على أن لا يبوح به . قال «ان جورج ويلارد يحبك » ورغم تردده وارتباكه كان صوتاً خفيضاً وهادئاً « انه يكتب قصة ، وكان يريد أن يقول لك ويسمع ردّك » .

عاد الصمت يشمل هيلين وست . ووصلا إلى الحديقة التي تحيط ببيت ريتشموند القديم ، ومرّا من خلال ثغرة في السياج وجلسا على مقعد خشبي تحت شجيرة .

حين كان سائراً بجانب الفتاة دارت في ذهنه أفكار جديدة جريئة . وبدأ يندم لقراره بمغادرة البلدة . وفكر « . سيكون شيئاً جديداً ومبهجاً معاً أن أبقى وأمضي أغلب أوقاتي أتنزه مع هيلين خلال الشوارع » . رأى نفسه بعين خياله يحوط خصرها بذراعه ويشعر بذراعيها تتشبثان بقوة بعنقه . لقد جعلته إحدى تلك التركيبات الغريبة من الأحداث والأماكن ، يربط فكرة ممارسة الحب مع هذه الفتاة بمكان زاره قبل أيام . فقد ذهب بمهمة إلى بيت أحد المزارعين القاطنين على منحدر تل ، خلف منطقة السوق ، وعاد من درب يخترق حقلاً . كان ست قد وقف عند سفح التل ، أسفل بيت المزارع ، تحت شجرة جميز ، وراح ينظر حوله . واستقبلت أذناه همهمة خفيفة . وظن لأول وهلة أن الشجرة هي ملجأ لسرب من النحل .

ومن ثم ، نظر ست إلى أسفل ، فوجد أن النحل منتشر في كل

مكان حوله في العشب الباسق . وقف وسط كتلة كثيفة من الأعشاب البرية ، التي تنمو حتى يبلغ الخضر في الحقل الممتد على طول منحدر التل . كانت الأعشاب البرية مزهرة وقد انبثقت منها براعم قرمزية ، ترسل شذا مسيطراً . كان النحل محتشداً على الأعشاب البرية بأعداد هائلة ، يصدح بينما يعمل .

تخيل ست نفسه متمدداً ذات ليلة صيفية ، مدفوناً عميقاً بين الأعشاب البرية تحت الشجرة . إلى جانبه ، في المشهد القائم في مخيلته ، استلقت هيلين وايت ، وقد استراحت يدها في يده ونفور خاص يمنعه من تقبيلها من شفتيها ، لكنه شعر انه يمكن أن يفعل هذا إذا رغب . وبدل ذلك ، ظل مستلقياً ساكناً ، ينظر إليها منصتاً إلى جيش النحل الذي يغني أغنية الكدح الحماسية المهيمنة ، فوق رأسه .

التهبت عواطف ست وهو جالس على المقعد في الحديقة ، واضطرب . حرر يد الفتاة ، ثم دس يديه في جيبي بنطاله . ورغب بقوة أن يجعل ذهن رفيقته تحس بأهمية القرار الذي اتخذه ، وأومأ برأسه نحو البيت . همس « أعتقد أن أمي ستقيم الدنيا ، انها لم تفكر أبداً فيما سأعمل في الحياة ، تظن أني سأظل هنا إلى الأبد وأبقى صبياً » .

صار صوت ست مشحوناً بالرصانة الصبيانية « الواقع ، يجب أن أقرر . يجب أن أحصل على عمل . هذا ماأصلح له » .

فهمت هيلين وايت . هزت رأسها ، وطغى عليها شعور بالاعجاب ، وفكرت « هذا مايجب عمله . هذا الصبي ليس مجرد ولد ، بل رجل

قوي مملوء بالطموح » . وانزاحت عنها رغبات غامضة معينة كانت قد اجتاحت جسدها ، واستقامت في جلستها على المقعد . تابع الرعد قصفه وأضاءت بروق حارة السماء الشرقية . والآن بدت الحديقة التي كانت غامضة وشاسعة ، وكان يمكن أن تغدو ، بوجود ست إلى جوارها ، مسرحاً لمغامرات غريبة رائعة ، لاأكثر من باحة خلفية عادية في بلدة واينسبرغ ، محددة وواضحة المعالم تماماً .

همست « ماذا ستفعل هناك ؟ » .

استدار ست نصف استدارة من مقعده ، محاولاً بالحاح أن يرى وجهها في الظلام . كان يرى أنها أكثر عقلانية وتقدمية ، بما لايقارن ، من جورج ويلارد ، وارتاح لأنه ابتعد عن صديقه . وعاد إليه شعور الملل من البلدة المتمكن من سريرته ، وحاول أن يصارحها به ، فبدأ قائلاً « الجميع يتحدثون . لقد مللت . سأقوم بأي شيء ، سأنخرط في أي عمل لايكون فيه للكلام مكان . قد لاأصبح أكثر من عامل ميكانيكي أعمل في إحدى المحلات . لاأعلم . لاأظنني آبه كثيراً . أريد فقط أن أعمل ، وبهدوء . هذا كل مايجول في فكري » .

نهض ست عن المقعد ومد لها يده . لم يرغب بانهاء اللقاء ، ولكن لم يكن لديه مايضيفه . وهمس « هذه آخر مقابلة لنا » . وطغت موجة من المشاعر المشبوبة على هيلين ، فوضعت يدها على كتف ست ، وأخذت تدير وجهه أسفل نحو وجهها الناظر إليه . كانت حركتها تعبر عن إحدى الانفعالات النقية والأسف القاطع من أن لاتدرك

المغامرة الغامضة ، الحاضرة الآن في روح الليل . وقالت وقد تركت يدها تسقط بتثاقل إلى جانبها « أظن أني يجب أن أذهب » . وخطرت لها فكرة « لاترافقني ، أريد أن أكون وحدي . أذهب أنت وتحدث مع أملك من الأفضل أن تحدثها الآن » .

تردد سث ، استدارت الفتاة ، ولايزال هو واقفاً ، وذهبت مسرعة من خلال الثغرة . واجتاحته الرغبة بالاسراع خلفها ، لكنه ظل واقفاً يحملق ، محتاراً ومرتبكاً من تصرفها ، كما ظل محتاراً ومرتبكاً من كل حياة البلدة التي نشأت فيها . بعد أن مشى نحو المنزل ببطء ، توقف في ظل شجرة ضخمة ، ونظر إلى أمه الجالسة بجانب النافذة المضاءة تخيط بانهماك . وعاوده شعور الوحشة الذي زاره في أول الأمسية ، ولوّن أفكاره عن المغامرة التي مر بها لتوه . وهتف « هاه ! » مستديراً ومصوباً نظره نحو الجهة التي اتخذتها هيلين حين رحيلها . « هذا مآل الأمور . ستكون مثل الأخريات . أعتقد إنها ستبدأ بالنظر إليّ نظرة ساخرة » . نظر إلى الأرض وقلّب الفكرة . وهمس لنفسه « سترتبك وتشعر بالغربة حين أحضر . هذا ماسيحدث . هذا كل ماسيحدث . حين يتعلق الأمر بمحبة شخص آخر ، لن أكون الانسان الأصلح له . ليكن غيري — أحد البلهاء — أحد الثرثارين — واحد مثل جورج ويلارد » .

* * *

تاندي

ظلت تعيش ، حتى سنتها السابعة ، في بيت عتيق غير مطلي ، قائم على درب غير مطروق يؤدي إلى ترينيون بايك . لم يكن أبوها يوليها إلا القليل من اهتمامه وكانت أمها متوفاة . كان الأب يقضي وقته يتحدث ويتأمل في الدين ، وقد أعلن نفسه لاأدريّا ، وانهمك في تدمير جميع المفاهيم حول الله ، المتمكنة من أذهان جيرانه ، حتى إنه لم ير الله يتجلّى في الطفلة الصغيرة المتنقلة ، شبه منسية ، هنا وهناك ، تعيش على هبات أقرباء أمها المتوفاة .

قَدِمَ غريب إلى واينسبرغ ورأى في الطفلة مالم يره الوالد . كان شاباً طويل القامة ، أصهب الشعر ، ثملاً في أغلب وقته . أحياناً يجلس على كرسي أمام فندق ويلارد الجديد مع توم هارد ، الوالد . وبينما الوالد يتكلم ، معلناً عدم إمكانية وجود الله ، يبتسم الغريب ويغمز بعينه للمارة . وأصبح وتوم صديقين لايكادان يفترقان .

كان الغريب ابن تاجر ثري من كيلفلاند ، أتى إلى واينسبرغ في

مهمة . أراد أن يتخلص من عادة الشرب ، وظن أنه بالهروب من مدينته والانضمام إلى مجتمع ريفي والعيش فيه، يمكنه أن يحظى بفرصة أفضل في صراعه مع شهوته التي دمرته .

لكن إقامته في واينسبرغ لم تحقق أي نجاح . فقد جعلته الساعات الطويلة المملّة يلجأ إلى الشراب أكثر من ذي قبل ، لكنه نجح في إحراز نجاح آخر ، فقد خلع إسماً مفعماً بالمعنى على إبنة توم هارد .

ذات أمسية ، بينما كان يمر بمرحلة شفاء من فترة فسق طويلة ، أتى الغريب يترنح على طول الشارع الرئيسي . كان توم هارد جالساً على كرسي أمام فندق ويلارد الجديد وابنته ، وكانت لاتزال في الخامسة ، تجلس على ركبتيه . وإلى جانبه على طرف الرصيف جلس الشاب جورج ويلارد . وتهالك الغريب جالساً على كرسي إلى جانبهم . كان جسده يرتعش وحين حاول أن يتكلم اهتز صوته .

كان وقتاً متأخراً من المساء والظلام يهيمن على البلدة وسكة الحديد المارة على مسافة قدم وبعض الانحناء أمام الفندق . ومن مسافة بعيدة ،جهة الغرب،سُمعت صفرة مطولة من قطار للركاب. ونهض كلب كان نائماً في الطريق ونبح . وبدأ الغريب يهذر ونطق بنبؤة بخصوص الطفلة المستلقية بين ذراعيّ اللاأدريّ .

قال والدموع تجري على خديه « أتيت إلى هنا لأمتنع عن الشرب » لم ينظر إلى توم هارد ، بل قال محملقاً في الظلام وكأنه يرى رؤى « هربت إلى الريف كي أشفى، لكني لم أشف . ثمة سبب » واستدار

لينظر إلى الطفلة ، الجالسة باستقامة شديدة على ركبتي أبيها ، وبادلته النظرة .

لمس الغريب ذراع توم هارد ، وقال « ليس الشرب هو الشيء الوحيد الذي أدمنته ، ثمة أمر آخر . أنا عاشق ولم أعثر بعد على من أحب . هذه مسألة هامة إذا كانت معرفتك تكفي لادراك مرماي . إنها تجعل هلاكي محتماً . لايفهمني إلا القلة » .

لجأ الغريب إلى الصمت ، وكأن الحزن غلبه ، لكن صفرة أخرى من قطار المسافرين أيقظه . « انني لم أفقد ايماني . انني أعلن هذا . كل مافي الأمر أني جلبت إلى مكان أعرف أن إيماني لن يدرك فيه » هكذا نادى بصوت أجش .

ألقى نظرة قاسية على الطفلة وأخذ يخاطبها ، دون أن يلتفت إلى الوالد . قال « ثمة امرأة قادمة » وقد بات صوته الآن حاداً رصيناً « ولطالما افتقدتها.لم تأت على زمني . قد تكونين هذه المرأة . قد يكون من تصاريف القدر أن يدعني أقف في حضرتها مرة ، في أمسية كهذه . بعد أن حطمت نفسي بالشرب ، وهي لاتزال طفلة » .

اهتز كتفا الغريب بعنف ، ولما حاول أن يلف سيجارة سقطت الورقة من بين أصابعه المرتعشة ، وتصاعد غضبه وراح يكيل السباب . هتف « يظنون من السهل أن يكون المرء امرأة ، أن يحب ، لكني أعرف أكثر » . ومن جديد استدار إلى الطفلة ، وصاح « أنا أفهم . ربما كنت الوحيد بين الرجال الذي يفهم » .

وجاست نظرته في الشارع المظلم . قال بنعومة « أعرفها ، رغم أنها لم تمر بي مرة . أعرف صراعاتها واندحاراتها . واندحاراتها هي التي حببتها إليّ . لقد تولّد عن اندحاراتها عنصرجديدفي المرأة.لدي إسم له . سميته تاندي . ابتكرت الاسم حين كنت حالماً حقيقياً وقبل أن يتلبس الشر جسدي . إنه خاصيّة استمداد القوة من الحب . إنه شيء يحتاجه الرجال من النساء ولا يحصلون عليه » .

نهض الغريب ووقف أمام توم هارد ، جسمه يتمايل خلفاً وأماماً ، وكاد يقع ، وبدل هذا خرّ على ركبتيه على الرصيف ورفع يديّ الفتاة الصغيرة إلى شفتيه الثملتين ، وقبلهما بانتشاء ، وتوسل إليها « كوني تاندي ، ياصغيرتي ، تجاسري وكوني قوية وشجاعة . هذا هو السبيل الحق . خوضي كل شيء . كوني شجاعة بما يكفي لتتجرّأي وتكوني محبوبة . كوني أكثر من مجرد رجل أو أمرأة . كوني تاندي » .

نهض الغريب وراح يترنح ماشياً على طول الشارع وبعد ذلك بيوم أو يومين استقل قطاراً وقفل عائداً إلى بيته في كيلفلاند . في الأمسية الصيفية ، بعد الحديث الذي دار أمام الفندق ، أخذ توم هارد الطفلة إلى بيت أحد الأقارب حيث دعيت لقضاء الليلة . وبينما هو يمشي وسط الظلام تحت الأشجار ، نسي صوت الغريب الهادر وعاد ذهنه ليصوغ مناقشات يحطم بها إيمان الناس بالله . نطق إسم ابنته فبدأت تبكي .

وصاحت «لاأريد أن أسمّى هكذا. أريد أن أنادى تاندي — تاندي هارد » وبكت الطفلة بكاءاً مرّاً حتى تأثر توم هارد ، وحاول أن يواسيها . توقف تحت شجرة وضمها بين ذراعيه ، وأخذ يداعبها ، وقال بحدة « كوني عاقلة الآن » لكنها لم تهدأ ، وتخلت عن حزنها باستسلام طفولي ، وصوتها يخرق سكون الشارع الليلي « أريد أن أكون تاندي . أريد أن أكون تاندي . أريد أن أكون تاندي هارد»صرخت ، هازّة رأسها وهي تجهش ، وكأن قواها الغضّة لم تكن كافية لتحمل الرؤيا التي استحضرتها كلمات السكير لأجلها .

*   *   *



قدرة الله

كان المحترم كرتس هارتمن قس الكنيسة المشيخيةفي واينسبرغ ، وقد شغل ذاك المنصب لعشر سنين . كان في الأربعين من عمره ، صموتاً متكتّماً بطبيعته . كان الوعظ ، وهو واقف في المنبر أمام الناس ، دائماً عملاً شاقاً له ، ويظل منذ صباح يوم الأربعاء وحتى مساء السبت لاينفك يفكر في الموعظتين اللتين عليه إلقاؤهما يومالأحد. ومنذ صباح الأحد الباكر ينزل إلى الغرفة الصغيرة المسمّاة مكتب ، في برج الكنيسة ويصلي . وتسود صلواته دائماً نبرة واحدة . ويتوسل راكعاً على الأرض العارية ، حانياً رأسه في حضرة المهمة التي تنتظره « أوه ، يارب ، امنحني القوة والشجاعة لأؤدي عملك ! »

كان المحترم هارتمن رجلاً طويلاً ، ذا لحية بنية . زوجته امرأة بدينة ، عصبية ، هي ابنة صاحب مصنع للملابس الداخلية في كليفلاند ، أوهايو . وكان القس نفسه مفضلاً في البلدة . أحبه الكبار لأنه كان متزناً ، بسيطاً ، ورأت فيه السيدة وايت ، زوجة صاحب البنك ، رجلاً مثقفاً مهذباً .

كانت الكنيسة المشيخية تنهض ، بين كنائس واينسبرغ الأخرى ، منعزلة نوعاً ما . كانت أضخم وأكثر جلالاً ، وقسها ينال راتباً أكبر . بل ويملك عربة خاصة به . وأحياناً في الأمسيات الصيفية ، يقودها حول البلدة مع زوجته . يخترق الشارع الرئيسي ويتردد على شارع بكي ، ينحني للناس بوقار ، بينما زوجته المتلظية بنار الغرور ، تنظر إليه من زاوية عينها ، قلقة من خشيتها أن يفزع الحصان ويهرب .

بعد مجيئه إلى واينسبرغ بسنين عديدة ، تحسنت أحوال كرتس هارتمن . لم يكن من النوع الذي يلهب حماس المتعبدين الحاد في كنيسته ، لكنه من ناحية أخرى لم يستجلب لنفسه أعداءاً . في الحقيقة انه كان رصيناً جداً ، وأحياناً يعاني من فترات مطوّلة من الندامة لأنه لم يهتف باسم الله عالياً في طرقات وأزقة البلدة . وراح يتساءل إن كان لهب الروح يسطع حقاً داخله ، وحلم بيوم يطغى فيه تيار جديد حاو قوي من الطاقة ، كريح عاتية ، على صوته وروحه ، ويرتعش الناس أمام روح الله المتجسد فيه . كان يتأمل مكتئباً كأنه يقول « أنا أحمق مسكين ، لن يقع لي هذا أبداً » ومن ثم تضيء قسماته ابتسامة حايمة ، ويضيف متفلسفاً « أه حسن ، أظنني أعمل على أفضل مايرام » .

لم يكن للغرفة الكائنة في برج الكنيسة ، حيث يصلي القس في صباح الآحاد ليزيد من قوة الله فيه ، سوى نافذة واحدة : طويلة ، وضيقة ، تنفتح إلى الخارج ولها مفاصل كالباب . على النافذة رسم يمثل المسيح يضع يده على رأس طفل ، منقوش بقطع زجاج صغيرة

يصل بينها الرصاص . وذات أحد صيفيّ في الصباح بينما هو جالس على مكتبه في غرفته ، وقد فتح أمامه كتاباً مقدساً ضخماً ، والأوراق المدوّن عليها موعظته مبعثرة ، صعق القس حين رأى ، في الغرفة الأعلى من البيت المجاور ، امرأة مستلقية على سريرها تدخن سيجارة ، وهي تقرأ في كتاب . اقترب كرتس هارتمن على رأس أصابعه من النافذة وأغلقها برفق . لقد أصيب بالرعب لفكرة وجود امرأة تدخن ، وارتجف لأن عينيه نظرتا إلى كتفين عاريين ، بعد أن رفعهما عن صفحات كتاب الله . نزل إلى المنبر ورأسه يدور في دوامة ، وألقى موعظة طويلة دون أن يفكر مرة واحدة في قسماته أو صوته . وجذبت الموعظة انتباهاً غير عادي بسبب قوتها ووضوحها . وفكر « أتساءل ان كانت مصغية ، إذا كان صوتي يحمل رسالة إلى روحها » وبدأ يأمل أن يتمكن ، في صباحات أيام الآحاد القادمة ، من قول كلمات تهز وتوقظ المرأة التي يبدو واضحاً إنها منغمسة في إثم سرّي .

كان يقطن البيت المجاور الكنيسة المشيخية ، الذي رأى القس من نافذته المنظر الذي أقلقه ، امرأتان : العمة اليزابث سويفت ، الأرملة العجوز البادية الكفاءة ، التي تملك نقوداً تودعها بنك واينسبرغ الوطني ، وتعيش مع ابنتها كيت سويفت ، المدرّسة . كانت المدرّسة تبلغ الثلاثين من العمر ، وتتمتع بقامة جميلة التقاطيع . كان لها بضعة أصدقاء ، وسمعتها تلوكها الألسن . حين راح يفكر بها تذكر كرتس هارتمن انها ذهبت مرة إلى أوروبا ، وعاشت سنتين في مدينة نيويورك .

وفكر « قد لايعني تدخينها للسيجارة أي شيء » . وتذكر أنه وهو طالب في المدرسة كان يقرأ الروايات في بعض الأحيان ، وقد قرأ في كتاب وقع بين يديه عن نساء صالحات وان كن دنيويات قليلاً ، يدخنّ . وصار يعمل في مواعظه بدفق جديد من التصميم طوال الأسبوع ونسي ، في غمرة حماسته للوصول إلى آذان وروح هذه المستمعة الجديدة ، ارتباكه أثناء وقفته في المنبر ، وبضرورة الصلاة في المكتب في صباحات أيام الآحاد .

كانت تجربة المحترم هارتمن مع النساء محدودة نوعاً ما . كان ابناً لصانع عربات من منسي ، في انديانا ، وقد شق طريقه حتى درس في الجامعة . وكانت ابنة صاحب مصنع الملابس الداخلية تقطن في بيت كان يعيش فيه خلال أيام دراسته ، وقد تزوجها بعد حب تقليدي لفترة طويلة ، وكانت الفتاة هي سبب دوامه . يوم الزفاف منح صاحب المصنع ابنته خمسة آلاف دولار ووعد بأن يترك لها في وصيته ضعف هذا المبلغ . واعتبر الكاهن نفسه محظوظاً في زواجه ، ولم يسمح لنفسه بالتفكير بنساءأخريات ، بل لم يرد أن يفكر بأخريات . ماأرادهكان أن يؤدي العمل الذي أوكله إليه الله بهدوء وجدّ .

ونشب في روح الكاهن صراع . ومن خلال رغبته في النفوذ بانصات كيت سويفت ، ومن خلال عظاته ليصل إلى أعماق روحها ، بدأ يرغب أيضاً في أن يلقي نظرة ثانية على القامة المستلقية ، بيضاء هادئة ، على السرير . وصباح أحد أيام الآحاد ، وقد جافاه النوم

بسبب أفكاره ، نهض وذهب ليجوس الشوارع حين مرّ في الشارع الرئيسي ووصل قريباً من بيت ريتشموند توقف وتناول حجراً ، ثم انطلق متوجهاً إلى غرفة برج الجرس ، وبالحجر كسر زاوية من النافذة ، وأوصد الباب وجلس إلى الطاولة أمام الكتاب المقدس المفتوح ، وانتظر . حين رفعت الستارة قليلاً عن نافذة كيت سويفت رأى ، من خلال الفجوة ، سريرها مباشرة ، لكنها لم تكن فيه . هي أيضاً كانت قد نهضت وذهبت لتتمشى ، وكانت اليد التي رفعت الستارة هي يد عمة كيت سويفت .

كاد الكاهن يبكي من الفرح من تحرره من رغبته الدنيوية بـ « التلصص » وعاد إلى بيته وهو يبارك اسم الله . وفي لحظة شريرة نسي أن يسد الثغرة في النافذة . أما قطعة الزجاج المكسورة من زاوية النافذة فجرحت قدم صبي حاف ، وهو واقف ينظر بعينين ساهمتين إلى وجه المسيح .

صباح ذلك الأحد نسي كرتس هارتمن موعظته وتحدث إلى رعاياه قائلاً انه من الخطأ أن يظن الناس كاهنهم انساناً مختاراً ، خلق مميزاً ليعيش حياة لاشائبة فيها . وأعلن « أعرف من تجربتي الخاصة أننا ، نحن خدام كلمة الله ، تحاصرنا نفس المغريات التي تغير عليكم . لقد أغويت واستسلمت للغواية . ويد الله وحدها ، التي تسند رأسي ، أنهضتني . وكما أنهضني سينهضكم أيضاً . لاتيأسوا . في ساعة إثمكم إرفعوا عيونكم إلى السموات وسيغفر لكم مرة بعد مرة » .

طرح الكاهن باصرار أفكاره حول المرأة المتمددة على السرير من ذهنه ، وبدأ يتصرف كالعاشق مع زوجته . وذات أمسية بينما هما يركبان العربة وجّه الحصان بعيداً عن شارع بكي إلى تلة غوسبول ، فوق جسر ووتر ووركس ، وهناك ، في الظلام ، أحاط خصر سارة هارتمن . وفي الصباح بعد أن تناول طعام الافطار ، واستعد للانسحاب إلى مكتبه الكائن خلف منزله ، دار حول المائدة وقبّل زوجته على خدها . وحين كانت تراوده الأفكار حول كيت سويفت يبتسم ثم يرفع عينيه إلى السماوات ، ويتمتم«تشفّع لي ، ياسيدي . ابقني في الممر الضيق مكرّساً لأداء عملي » .

والآن بدأ الصراع الحقيقي في روح الكاهن ذي اللحية البنية . فقد اكتشف صدفة أن كيت سويفت معتادة على الاستلقاء في سريرها في الأمسيات لتقرأ في كتاب . كانت تضع مصباحاً على طاولة إلى جانب السرير ، ويتدفق الضوء على كتفيها البيضاوين وعنقها العاري. في المساء ، بعد اكتشافه هذا ، جلس الكاهن إلى طاولة مكتبه من التاسعة وحتى مابعد الحادية عشرة ، وبعد أن أطفأ نورها ، غادر الكنيسة ليقضي ساعتين يمشي ويصلي في الشوارع . لم يكن يريد أن يقبّل كتفيّ وعنق كيت سويفت ، ولم يسمح لذهنه أن يحتفظ بهذه الأفكار . لم يعرف لماذا يريد . هتف وسط الظلام ، تحت الأشجار ، وهو يتجول « أنا ابن الله ويجب أن ينقذني من نفسي » . توقف عند احدى الشجيرات وأخذ ينظر إلى السماء المغطاة بالسحب . تحدث الى

الله بحميمية وقرب . « أرجوك ياأبتاه ، لاتنسني . امنحني القوة لأذهب غداً وأرمم الثغرة في النافذة . ارفع عيني ثانية إلى السماوات . ابق معي ، أنا خادمك ، وقت شدته » .

مشى الكاهن رائحاً غادياً خلال الشوارع الساكنة ، وظل لأيام وأسابيع راجف الروح . لم يفهم الاغراء الذي باغته ، ولم يسبر غور سبب اغارته . ثم راح يضع اللوم على الله ، قائلاً لنفسه انه حاول أن يبقي قدميه على الطريق الصحيحة وإنه لم يتبع سبيل الاثم ، وهتف «أثناء أيام شبابي ومن ثم طوال حياتي هنا قمت بعملي بهدوء، فلماذا أغوى الآن ؟ ماذا فعلت حتى يلقى هذا العبء على كاهلي » .

ثلاث مرات خلال خريف وشتاء ذاك العام تسلل كرتس هارتمن من منزله إلى غرفة برج الجرس ليجلس في الظلام وينظر إلى جسم كيت سويفت المتمددة على سريرها ، ومن ثم نزل ليمشي ويصلي في الشوارع . لم يفهم نفسه . ظل لأسابيع يفكر سراً في المدرّسة ، ويقول لنفسه انه قهر شهوته الدنيوية في النظر إلى جسدها . ثم وقع أمر . فحين يكون جالساً في مكتبه ، يعمل بجهد في موعظته ، تتوتر أعصابه ، ثم يقوم ليقطع الغرفة جيئة وذهاباً ، ويقول لنفسه « سأخرج إلى الشوارع » لكنه حالما يخرج من باب الكنيسة ينكر على نفسه باصرار السبب في وجوده وسط الشارع . « لن ارمم الثغرة في النافذة ، وسأجرّ نفسي لآتي إلى هنا ليلاً وأجلس في حضرة هذه المرأة دون أن أرفع عينيّ .

لن أهزم في هذا الأمر . لقد خلق الآب هذه الغواية ليختبر روحي ، وسألتمس طريقي خارج هذه الظلمة إلى ضياء الاستقامة » .

وذات ليلة من كانون الثاني ، وكان البرد قارساً ، والثلج كثيفاً في شوارع واينسبرغ قام كرتس هارتمن بآخر زيارة لغرفة برج الجرس في الكنيسة . كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة حين غادر منزله وانطلق مسرعاً حتى انه نسي أن يلبس حذاءه الواقي . كان الشارع الرئيسي خالياً من المارة ، ماعدا هوب هيغينز ، الحارس الليلي ، ولم يكن في كل البلدة مستيقظاً سوى الحارس الليلي وجورج ويلارد ، الجالس في مكتبه في دار صحيفة واينسبرغ ايغل يحاول كتابة قصة. تابع الكاهن طريقه في الشارع متوجهاً إلى الكنيسة ، شاقاً الثلج الذي تذروه الريح ، مفكراً انه هذه المرة سيفسح مجالاً واسعاً للأثم « أريد أن أنظر إلى المرأة وأتخيل أني أقبّل كتفيها ، وسأترك نفسي لتفكر في كل ماأريد » هكذا أعلن بمرارة والدموع تطفر من عينيه . فكر في أن يترك سلك الكهانة ويجرب سبيلاً آخر في الحياة ، وأعلن « سأذهب إلى إحدى المدن وأعمل . إذا كانت طبيعتي لاتستطيع صد الإثم ، سأسلم نفسي للاثم ، على الأقل لن أكون مرائياً ، أعظ كلمة الله وعقلي يفكر بكتفي وعنق امرأة ليست زوجتي » .

كانت غرفة البرج باردة في تلك الليلة الكانونية ؛ وحين دخل الغرفة علم انه إذا مكث سيمرض . كانت قدماه مبللتين من التخبط في الثلج ولم تكن هناك نار . لم تكن كيت سويفت قد ظهرت في

غرفة البيت المجاور . وجلس الرجل وقد قرر بحزم أن ينتظر . جلس على كرسيه متشبثاً بحرف الطاولة التي وضع عليها الكتاب المقدس وأخذ يحملق في الظلام وهو يفكر بأحلك الأفكار التي خطرت له في حياته . فكر في زوجته ، وبعد لحظة شعر بحقد نحوها « إنها دائماً تخجل من عاطفتها وقد خدعتني . يحق للرجل أن ينتظر من المرأة إظهار عواطفها الحيوية وجمالها . لايحق له أن ينسى أنه حيوان ، وثمة شيء داخلي ذو صفة إغريقية . سأبتعد عن هذه المرأة وأبحث عن نساء أخريات . سأحاصر هذه المدرّسة . سأطير أمام كل الرجال واذا كنت مخلوقاً ذا شهوات حسيّة إذن سأعيش لأرضي شهواتي » .

أخذ الرجل المذهل يرتعد من رأسه حتى أخمصه ، من البرد أولاً ، ومن الصراع الذي يعانيه ثانياً . مرت ساعات طويلة وشاعت الحمى في جسمه . وبدأت حنجرته تؤلمه وأسنانه تصطك . شعر بقدميه على أرض المكتب كأنهما قرصا جليد . ولم يستسلم . قال لنفسه «سأرى هذه المرأة وسأفكر بالأفكار التي لم أجرؤ مرة على التفكير بها » وهو يتشبث بطرف المكتب وينتظر .

شارف كرتس هارتمن على الموت من تأثيرات ليلة الانتظار تلك في الكنيسة ، ووجد أيضاً فيما حدث طريقة في الحياة اتبعها . في الليالي الأخرى التي انتظر خلالها لم يتمكن من أن يرى ، من خلال الثغرة في الزجاج ، أي جزء من غرفة المدرّسة غير الذي يشغله سريرها . ظل ينتظر في الظلام إلى أن ظهرت المرأة فجأة مستلقية على السرير

برداء نومها الأبيض . حين قويّ النور دعمت نفسها بين الوسائد وراحت تقرأ ، وأحياناً تدخن سيجارة . لم يظهر منها إلا كتفاها العاريان وعنقها .

في تلك الليلة الكانونية ، بعد أن شارف على الموت برداً ، وبعد أن أنزلق خياله مرتين أو ثلاث إلى أرض سحرية عجيبة ، حتى انه درّب ارادته ليعيد نفسه إلى الوعي ، ظهرت كيت سويفت . كان في غرفة البيت المجاور مصباح مضاء ، وراح المنتظر يحملق في السرير الخالي ، ومن ثم ارتمت أمام عينيه امرأة عارية ، وتمددت ، وجهها إلى أسفل ، وهي تبكي وتضرب الوسادة بقبضتيها . ثم نهضت بعد نوبة أخيرة من البكاء ، قليلاً ، ووقفت المرأة أمام الرجل ، الذي انتظر كي ينظر ويمارس التفكير ، وأخذت تصلي . بدا جسمها ، النحيل القوي ، على ضوء المصباح ، كأنه جسم الولد الواقف في حضرة المسيح على النافذة المرصّعة .

لم يتذكر كرتس هارتمن أبداً كيف خرج من الكنيسة ، نهض وقد أطلق صرخة ، وجرّ الطاولة الثقيلة على الأرض . وقع الكتاب المقدس ، مصدراً ضجة عظيمة شقت الصمت . حين انطفأ النور في البيت المجاور نزل وهو يتعثر على الدرج ومنه إلى الشارع ، مضى يمشي في الشارع ثم هرع ليدخل باب صحيفة الواينسبرغ ايغل . وجد جورج ويلارد يقطع الغرفة جيئة وذهاباً ، يعاني من صراعه الخاص ، وراح يحدثه حديثاً غير منتظم « ان سبل التوجه إلى الله لايستطيع فهم

الانسان الاحاطة بها » صرخ فوراً عند دخوله مسرعاً وأغلق الباب . وبدأ يتقدم من الشاب ، عيناه تتوهجان ، وصوته يتهدج من الحماس ، هتف « لقد وجدت النور . بعد عشر سنين في هذه البلدة ، تجلّى لي الله في جسد امرأة » وانقطع صوته ومن ثم بدأ يهمس « لم أكن أفهم ، ان ماعتبرته اختباراً لروحي اتضح انه مجرد استعداد لاتقاد جديد وأكثر جمالاً الروح . تجلّى لي الله في شخص كيت سويفت ، معلمة المدرسة ، وهي راكعة على السرير . هل تعرف كيت سويفت ؟ رغم انها قد لاتعلم بالأمر ، لكنها أداة الله ، تحمل رسالة الحق » .

استدار المحترم كرتس هارتمن وخرج راكضاً من المكتب . توقف عند الباب ، وبعد أن ألقى نظرة إلى جهتيّ الشارع المهجور ، استدار عائداً إلى جورج ويلارد ، وهتف قائلاً وهو يرفع قبضة دامية ليراها الشاب « لقد بلّغت ، لاتخف . لقد كسرت زجاج النافذة . والآن يجب تبديله كله . لقد تملكتني قوة الله وكسرته بقبضتي » .

* * *



المعلمة

تكدّس الثلج عميقاً في شوارع واينسبرغ . كانت قد بدأت تثلج في حوالي الساعة العاشرة صباحاً وعلت الريح وجرفت الثلوج كالسحب في الشوارع الرئيسية . والطرقات الموحلة المتجمدة المؤدية إلى البلدة كانت ملساء تماماً ، وغطى الثلج الوحل في بعض الأماكن . قال ويل هندرسن « سيطيب الانزلاق بالعربات » وهو واقف على البار في حانة إد غريفيث . خرج من الحانة وقابل سيلفستر ويست الصيدلي يتعثر في مشيته في شبه غطاء للحذاء سميك يسمى ArticO . قال الصيدلي « سيجعل الثلج الناس يأتون إلى البلدة يوم السبت » . وقف الرجلان يتناقشان في أمورهما . وضرب ويل هندرسن الذي يرتدي معطفاً خفيفاً وبدون غطاء للحذاء ، كعب قدميه اليسرى بالاصبع الكبير لقدمه اليمنى ، ولاحظ الصيدلي بحكمة « سيكون الثلج مفيداً للقمح » .

سرّ الشاب جورج ويلارد ، الذي لم يكن ثمة مايقوم به ، لأنه لم يكن يرغب بالعمل في ذاك اليوم . لقد طبعت الصحيفة الأسبوعية وأخذت إلى مكتب البريد مساء الأربعاء ، وبدأ الثلج يهطل يوم الخميس. في الثامنة ، بعد أن مرّ قطار الصباح ، وضع مزلجين في جيبه وتوجه إلى بحيرة ووتر ووركس ، لكنه لم يتزلج . ترك البحيرة واتخذ الدرب الموازي لنهر واين كريك إلى أن وصل إلى حقل من شجر الزان . هناك أضرم ناراً عند طرف أحد الجذوع . وجلس هو على الطرف الآخر للجذع يفكر . حين بدأ الثلج بالهطول ، والريح بالهبوب ، أسرع يجمع مزيداً من الوقود للنار .

كان المراسل الشاب يفكر في كيت سويفت ، التي كانت ذات يوم معلمته هو . في الأمسية السابقة لذهابه إليها ليأخذ كتاباً أرادته أن يقرأه ، وظل معها وحده مدة ساعة . تحدثت إليه المرأة للمرة الرابعة أو الخامسة بجدية بالغة ، ولم يفهم شيئاً مما قالت . وبدأ يصدق انها ربما كانت تحبه ، ووجد هذه الفكرة ممتعة ومزعجة .

قفز عن الجذع واقفاً وأخذ يكوّم الفروع على النار . بعد أن نظر حوله ليتأكد من انه وحيد ، راح يتكلم بصوت عال وكأنه في حضرة المرأة ، وأعلن « أوه ، انك تفشين السر ، تعلمين انك تفعلين . سأعرف كل شيء عنك . انتظري وسترين » .

نهض الشاب وعاد يطرق الدرب إلى البلدة تاركاً النار تتلظى في الغابة . وبينما هو يخترق الشوارع قرقعت المزلجتان في جيبه . في

غرفته الخاصة في بيت ويلارد الجديد أضرم ناراً في المدفأة واستلقى على السرير . وبدأت تتردد على ذهنه أفكار شبقة ، فأسدل ستارة النافذة وأغمض عينيه ونحّى وجهه صوب الجدار . ضمّ وسادة بين ذراعيه وراح يعصرها مفكراً أول الأمر بالمعلمة ، التي أثارت بكلماتها شيئاً داخله ، ومن ثم بهيلين وايت ، ابنه صاحب البنك النحيلة ، وكان معها في شبه علاقة حب مدة طويلة .

قرابة الساعة التاسعة من تلك الأمسية تكدس الثلج عميقاً في الشوارع وصار البرد قارساً . وبات من الصعب التنقل ، وأظلمت المتاجر وزحف الناس مبتعدين إلى بيوتهم . تأخر قطار المساء القادم من كليفلاند كثيراً ، ولكن لم يكن ثمة من يهتم لوصوله . في حوالي العاشرة كان جميع سكان البلدة الألف والثمانمائة نياماً ماعدا أربعة .

كان هوب هيغينز ، الحارس الليلي ، نصف يقظ . كان أعرج ويستخدم عصا ثقيلة . في الليالي الظلماء يحمل مصباحاً . ويتعثر ماشياً في طول الشارع الرئيسي وعرضه ، خلال أكوام الثلج ، يجرب أقفال أبواب المتاجر . وبعد أن يتأكد من اقفالها جميعاً ينحدر مسرعاً عند الزاوية إلى نُزُل ويلارد الجديد ويقرع الباب . ويلزم بقية الليل جانب المدفأة ، وقال للصبي النائم على السرير الصغير في مكتب الفندق «اذهب أنت إلى سريرك ، وسأعمل أنا على أن تبقى المدفأة متوقدة » .

جلس هوب هيغينز قرب المدفأة ونزع حذاءه . حين لجأ الصغير إلى النوم بدأ يفكر في أموره الخاصة . قرر أن يدهن بيته في الربيع ،

وجلس قرب المدفأة يحسب كلفة الدهان والعمل ، مما جعله يفكر في حسابات أخرى . كان الحارس الليلي في الستين من العمر وأراد أن يتقاعد . في الحرب الأهلية كان جندياً . وقد ناله معاش تقاعدي ضئيل . وأمل أن يجد طريقة جديدة لكسب عيشه ، وطمح إلى أن يصبح مربياً محترفاً لحيوان أبو مقرض . وكان لديه مسبقاً أربعة مخلوقات وحشية صغيرة غريبة الشكل ، يستخدمها الرياضيون في ملاحقة الأرانب ، يضعها في قبو منزله . وفكر « حالياً لدي ذكر وثلاث إناث . إذا حالفني الحظ ، سيكون لدي قرابة الربيع أثنا عشرة أو خمس عشرة منها . بعد عام سأتمكن من الاعلان عن بيع القوارض في الصحف الرياضية » .

استقر الحارس الليلي في كرسيه وقد خلا رأسه من الأفكار . لم ينم . لقد درّب نفسه طوال سنين كثيرة على الجلوس لساعات خلال الأمسيات الطويلة ، لاهو نائم ولا يقظ . في الصباح يكون نشطاً وكأنه قد نام .

مع هوب هيغينز ، المستقر بأمان على كرسيه خلف المدفأة ، كان هناك فقط ثلاثة يقظين في واينسبرغ . جورج ويلارد في مكتب صحيفة الايغل يتظاهر بالعمل في كتابة قصة ، لكنه في الحقيقة يتابع تفكيره الذي بدأه في الصباح قرب النار في الغابة . والمحترم كرتس هارتمن جالساً في برج جرس الكنيسة ، في الظلام يحضر نفسه لاستقبال رؤى من الله ، وكيت سويفت ، المعلمة ، تستعد لمغادرة منزلها لتتمشى في العاصفة .

كانت الساعة العاشرة والنصف حين انطلقت كيت سويفت ، دون أن تخطط للنزهة ، وكأن الرجل والفتى ، بواسطة التفكير ، دفعاها للخروج إلى الشوارع الشتائية . كانت العمة اليزابث سويفت قد ذهبت إلى مركز المقاطعة بخصوص عمل ما يتعلق بمكتب الرهونات ، حيث توظف مبلغاً من المال ، ولن تعود حتى اليوم التالي . وفي المنزل في غرفة المعيشة ، جلست الأبنة قرب المدفأة الكبيرة تسمى الموقد الأساسي ، وراحت تقرأ في كتاب . وفجأة قفزت على قدميها ، ثم انتزعت ثوبها عن المنصب الموجود بجانب الباب ، وهرعت خارجة من البيت .

حين صارت في سن الثلاثين لم تكن كيت سويفت معروفة في واينسبرغ باعتبارها امرأة جميلة . لم تكن بشرتها صافية ، ووجهها مغطى بالبقع دلالة سوء الصحة . حين مشت وحدها في الليل خلال الشوارع الشتائية بدت جميلة ، ظهرها مستقيم ، وكتفاها عريضان ، وقسماتها كقسمات وجه آلهة صغيرة قائمة على قاعدة في حديقة وسط الضوء الخافت لليلة صيفية .

خلال بعد الظهر ذهبت المعلمة لتقابل الدكتور ويلينغ بشأن حالتها الصحية . وقد أنّبها الطبيب ، وأعلن أنها معرّضة لخطر فقدان حاسة السمع . وكان تصرفاً احمقاً من كيت سويفت أن تخرج في العاصفة ، وربما خطراً .

لم تتذكر المرأة ، وهي سائرة في الشوارع ، كلمات الطبيب ، ولم

تكن لتعود لو أنها تذكرتها أصابها برد شديد لكنها بعد آن تمشت مدة خمس دقائق لم تعد تأبه بالبرد . اجتازت أولاً شارع بيتها ، ثم عبرت ميزانين للقش وضعا على الأرض أمام معاف . واتجهت إلى ترنيون بايك . مشت على طول الترنيون بايك إلى مخزن ندوينترز ، ومالت شرقاً متتبعة شارعاً فيه بيوت واطئة أفضى عبر تلة غوسبل إلى شارع سكر المنحدر إلى واد ضحل ، مروراً بمزرعة أيك سميد لتربية الدواجن ، ومن ثم إلى بحيرة ووتر وور كس . أثناء سيرها ، خفت الشعور الجريء ، الثائر الذي دفعها لمغادرة المنزل ، فعادت أدراجها .

كان في شخصية كيت سويفت شيء قارص ومحرّم . شعر به الجميع . في المدرسة تبقى صامتة ، باردة ، متجهمة ، لكنها تظل مع ذلك قريبة من تلاميذها . وبين الحين والحين يجتاحها شيء ما فتبدو سعيدة . كان كل الأطفال يحسّون بأثير سعادتها . ويبقون فترة من الزمن بلا عمل ، ويكتفون بالجلوس على مقاعدهم والنظر إليها .

كانت المعلمة تمشي في غرفة الدرس جيئة وذهاباً ، وقد ضمّت يديها خلف ظهرها ، وهي تتكلم بسرعة كبيرة . لم تكن تهتم بنوع الموضوع الذي يخطر على ذهنها . وذات يوم حدثت الأولاد عن تشارلز لامب ، ونسجت حكايات صغيرة محببة . غريبة عن حياة الكاتب الراحل . حكت القصص بمزاج شخص عاش في بيت واحد مع تشارلز لامب ، ويعرض كل اسرار حياته الخاصة . ويضطرب

الأولاد قليلاً ، ويظنون أنه لابد أن تشارلز لامب كان يعيش في واينسبرغ .

في مناسبة أخرى حدثتهم عن بنفينوتوسيلايني (١). هذه المرة ضحكوا . كم جعلت من الفنان القدير شخصاً متفاخراً ، صخّاباً ، محبباً ! وحوله أيضاً صاغت بعض الحوادث . كانت إحداها عن استاذ موسيقى ألماني يسكن في غرفة تقع فوق مكان سكني سيلايني ، في مدينة ميلان ، جعلت الأولاد يقهقهون . وضحك شوغرز ماكنتس ضحكاً عنيفاً حتى انه أغمي عليه ووقع عن مقعده ، وضحكت كيت سويفت معه ، وفجأة اجتاحها من جديد شعور البرد والتجهم .

في الليل الشتوي حين كانت تسير خلال الشوارع المقفرة ، المغطاة بالثلج ، حدث في حياة المعلمة تغيير مفاجىء . ورغم انه لاأحد في واينسبرغ شك بها ، الا أن حياتها كانت مفعمة بالمغامرات . ولكن ظلت ، يوماً بعد يوم ، وهي تعمل في المدرسة ، أو وهي سائرة في الشوارع ، يتصارع داخلها أكثر الأحداث غرابة . كان أهل البلدة ينظرون إليها كعانس متماسكة ، ولأنها كانت تتكلم بحدة ملتزمة بنفسها ، ظنوا انها خالية من كل شعور انساني ، مما كان له أبلغ الأثر في تشويه حياتهم . والحقيقة انها كانت أكثرهم شحناً بالعواطف . وكانت تضطر ، أكثر من مرة ، خلال خمس سنين منذ عودتها من أسفارها واستقرارها في واينسبرغ وعملها كمعلمة ، للخروج من المنزل والسير في منتصف الليل ، لتكافح الغضب الجامح داخلها .

(١) بنفينوتو سيلليني (١٥٠٠ — ١٥٧١) : نحات إيطالي .

وذات ليلة حين كانت تمطر تغيبت مدة ست ساعات ، وحين عادت إلى البيت تشاجرت مع العمة اليزابث سويفت . قالت الأم بحدة « كم أنا سعيدة لأنك لست رجلاً ، طالما انتظرت عودة أبيك إلى البيت ، دون أن أعلم انه تورط في مأزق جديد . لقد نلت نصيبي من الشك ، ولا يمكنك لومي إذا لم أرغب في رؤية أسوأ جانب منه يتجسد فيك » .

* * *

كان عقل كيت سويفت يضطرم بأفكار عن جورج ويلارد . وقد وجدت في شيء كتبه حين كان تلميذاً صغيراً ، قبساً من عبقرية ، وأرادت أن تلهب هذا القبس . وذات يوم في الصيف ذهبت إلى مكتب الصحيفة ووجدت الفتى غير مشغول ، فأخذته معها إلى أرض السوق ، وهناك جلسا على ضفة النهر المعشوشبة وتحدثا . حاولت المعلمة أن تعيد إلى ذهن الفتى فكرة عن الصعوبات التي قد يواجهها ككاتب ، وأعلنت « سيكون عليك أن تعرف الحياة » ، وارتعش صوتها رصانة . ثم أمسكت الفتى من كتفيه ، وادارته نحوها لتتمكن من النظر في عينيه . ولو رآها عابر سبيل لظن بأنهما على وشك العناق . وشرحت له « إذا أردت أن تصبح كاتباً فعليك أن تكف عن العبث بالكلمات . من الأفضل أن تكف عن الكتابة إلى أن تكون في حال أفضل من الاستعداد . الآن حان وقت العيش . لاأبغي اخافتك ، لكني أريدك أن تفهم أهمية ماأنت مقدم عليه . لاتكن مجرد بائع كلمات . إن مايجب تعلّمه هو معرفة مايفكر به الناس ، وليس مايقولونه » .

في المساء السابق لليلة الخميس العاصفة ، حين جلس المحترم كرتس هارتمن في برج الجرس في الكنيسة ينتظر لينظر إلى جسدها ، كان الفتى جورج ويلارد قد ذهب لزيارة المعلمة وليستعير كتاباً . في ذلك الحين حدثت الواقعة التي أربكت الفتى وحيّرته . كان قد وضع الكتاب تحت ذراعه واستعد للذهاب ، وعادت كيت سويفت لتتحدث برصانة كبيرة . كان الليل يحث خطاه ، والضوء في الغرفة يزداد خفوتاً . وحين استدار ليذهب نطقت باسمه بنعومة ، وبحركة مندفعة تمسكت بيده . ولما كان المراسل الشاب ينمو بسرعة إلى طور الرجولة فان جاذبيته الذكرية ، ممزوجة بجمال الفتى ، أثارا قلب المرأةالمستوحشة . وطغت عليها رغبة عارمة بتعريفه على فحوىالحياة ، وبجعله يفسرها بصدق وأمانة . مالت إلى الأمام ، وراحت شفتاها تمسان خده . في اللحظة نفسها وعى ، ولأول مرة ، تقاطيع جسمها الجميلة . وارتبكا معاً ، ولكي تريح مشاعرها صارت فظة ومستبدة . فصاحت بانفعال « ماالفائدة ؟ ستمر عشر سنين قبل أن تبدأ بفهم ماأقصد بحديثي إليك » .

* * *

ليلة حدوث العاصفة ، وبينما القس جالس في كنيسته ينتظرها ، ذهبت كيت سويفت إلى مكتب صحيفة واينسبرغ إيغل ، وهي تنوي أن تتحدث إلى الفتى ثانية . بعد المسير الطويل في الثلج شعرت بالبرد ، والوحدة ، والتعب . بينما هي تخترق الشارع الرئيسي رأت نوراً

يسطع من واجهة المطبعة على الثلج وفتحت الباب بتصميم . ودخلت .
ظلت جالسة قرب المدفأة في المكتب مدة ساعة تتحدث عن الحياة .
تحدثت برصانة متحمسة . والدافع الذي حثها على الخروج في الثلج
انصب منها على شكل كلام . وازدهر امامها . كما يحدث أحياناً
أمام أولاد المدرسة . وتاقت توقاً شديداً لتنفتح باب الحياة للفتى .
الذي كان تلميذها ورأت انه يملك من الموهبة مايؤهله لفهم الحياة .
كان حماسها شديداً جداً حتى انه انتقل إلى جسدها . ومن جديد
تشبثت يداها بكتفيه وأدارته إليها . وبرقت عيناها وسط الضوء
الخافت . ثم نهضت وضحكت ، ليس بحدّة كما هي عادتها ، بل
ضحكة غريبة ، مرتعشة . قالت « يجب أن أذهب ، إذا بقيت برهة
أخرى فسأرغب بتقبيلك » .

وساد الاضطراب مكتب الصحيفة . استدارت كيت سويفت
ومشت نحو الباب . كانت معلمة ، لكنها كانت امرأة أيضاً . حين
نظرت إلى جورج ويلارد ، استحوذت عليها رغبة مشبوبة بأن يحبها رجل ما .
وقد تملكت جسدها ألف مرة من قبل كالعاصفة . وتحت ضوء
المصباح لم يعد جورج ويلارد يبدو مجرد فتى غر ، بل رجلاً مستعداً
لأداء دور رجل .

وتركت المعلمة جورج ويلارد يضمها بين ذراعيه . وفي غرفة
المكتب الصغيرة الدافئة أصبح الهواء ثقيلاً فجأة ، وخارت قواها .
ومالت على طاولة المحاسبة قرب الباب لتستند ، وانتظرت . حين

تقدم منها ووضع يده على كتفها استدارت وتركت جسدها يسقط متثاقلاً عليه . وزاد اضطراب جورج ويلارد فوراً . ظل للحظة يضم جسد المرأة بقوة إليه ، ومن ثم استقامت ، وراحت القبضتان الحادتان الصغيرتان تضربان على وجهه . بعد أن ركضت المعلمة وتركته وحيداً راح يمشي جيئة وذهاباً في المكتب وهو يسب بحنق .

وسط هذه الفوضى ظهر المحترم كرتس هارتمن . حين دخل ظن جورج ويلارد أن البلدة أصابها مس الجنون . وأعلن القس ، وهو يهز قبضته المدمّاة في الهواء ، أن المرأة ، التي كان جورج يضمها قبل برهة بين ذراعيه ، هي أداة الله تحمل رسالة الحق .

* * *

أطفأ جورج المصباح المعلّق قرب النافذة وأوصد باب المطبعة وذهب إلى البيت . ولج مكتب الفندق ، ماراً بهوب هيغينز ، الضائع وسط أحلامه حول تربية ابن قارض . وصعد إلى غرفته . كانت نار المدفأة قد خمدت وخلع ملابسه في البرد . حين أوى إلى السرير كانت الملاءات كأنها من الثلج الجاف .

تقلّب جورج ويلارد في سريره الذي استلقى عليه في فترة بعد الظهر ، معانقاً الوسادة وفي رأسه تدور أفكار حول كيت سويفت . ورنّت كلمات القس ، الذي ظنه مجنوناً ، في أذنيه . وحملقت عيناه في أنحاء الغرفة . مرت نوبة الحنق ، الطبيعية بالنسبة للذكر المحتار ،

ثم حاول أن يفهم كنه ماحدث ، فلم يقدر. وقلّب مرة بعد أخرى ، ومرت الساعات وشعر بأن نهاراً جديداً قد بدأ . في الساعة الرابعة جرّ الأغطية حتى عنقه وحاول أن ينام . حين جاءه النعاس وأغلق عينيه ، رفع يده وراح يتلمّس في الظلام ، وغمغم بصوت ناعس « لقد فاتني شيء ، فاتني شيء كانت كيت سويفت تحاول اخباري به » . ثم نام وفي واينسبرغ كان هو آخر انسان في تلك الليلة الشتائية يأوي إلى النوم .

* * *



كان هو ابن زوجة آل روبنسن وكان يملك ذات مرة مزرعة على جانب الطريق المؤدية إلى ترنيون بايك ، شرقي واينسبرغ وتبعد ميلين عن حدود البلدة . كان بيت المزرعة مطلياً باللون البني ، والستائر المعلقة على جميع النوافذ المواجهة للطريق تكون دائماً مسدلة . في الشارع أمام المنزل يرتع سرب من الدجاج ، مع دجاجتي حبش ، وسط الغبار الكثير . عاش اينوك في المنزل مع أمه في تلك الأيام ، وحين كان فتى يافعاً ذهب ليتعلم في ثانوية واينسبرغ . يتذكره العجائز شاباً هادئاً ، مبتسماً ، يميل إلى الصمت . حين يدخل البلدة يمشي في منتصف الشارع وأحياناً يقرأ كتاباً . ويصيح سائقو القطعان ويقسمون على أن يجعلوه يعرف أين هو ، لكي يفسح لهم الطريق ويدعهم يمرون .

حين كان في الحادية والعشرين ذهب العجوز اينوك إلى مدينة نيويورك وظل ابن مدينة لخمسة عشر عاماً . درس اللغة الفرنسية والتحق بمعهد للفنون ، على أمل أن ينمّي ملكة الرسم لديه . وخطط

في ذهنه للذهاب إلى باريس ليكمل ثقافته الفنية بين العمالقة هناك ، لكنه لم يفلح .

لم تجر الأمور لصالح اينوك روبنسن . كان رسمه جيداً وكانت لديه العديد من الأفكار الغريبة المرهفة مخبّأة في رأسه كان يمكن أن يعبر عنها بواسطة ريشة الرسام ، لكنه ظل دائماً طفلاً مما شكّل عقبة في طريق تطوره الدنيوي . انه لم يكبر وطبعاً لم يتمكن من فهم الناس ، ولم ينجح في جعل الناس يفهمونه . لقد ظل الطفل داخله يصطدم بالأحداث ، بالوقائع كالنقود والجنس والآراء . وفي ذات مرة صدمته سيارة وارتطم بعمود حديدي ، مما أقعده . وهذا أحد الأمور التي جعلت الأحداث تجري لغير صالح اينوك روبنسن .

في مدينة نيويورك ، في أول عهده بها قبل أن تربكه حقائق الحياة وتحبطه ، رافق العديد من الشبان . انخرط بمجموعة أخرى من الفنانين الشبان ، من الفتيان والفتيات ، وأحياناً يأتون لزيارته مساء في غرفته . وذات مرة سكر وأخذ إلى مركز البوليس ، وأرعبه رئيس القسم كثيراً ، وفي مرة أخرى حاول أن يقيم علاقة مع امرأة من البلدة قابلها على الرصيف أمام بيته . ومشت المرأة واينوك معاً مسافة ثلاثة أبنية ، ثم خاف الشاب وهرب . كانت المرأة سكرى وقد تسلّت بالحادثة . مالت على جدار أحد المباني وراحت تضحك من كل قلبها حتى أن أحد المارة وقف وأخذ يضحك معها . وذهب الأثنان معاً ،

ولايزالان يضحكان ، وابتعد اينوك متسللاً إلى غرفته يرتجف من غيظه .

كانت الغرفة التي سكن فيها الشاب روبنسن في نيويورك تواجه ساحة واشنطن ، وكانت طويلة وضيقة كالرواق . ومن المهم أن تثبت هذا في ذهنك . فقصة اينوك هي في الحقيقة قصة غرفة أكثر منها قصة رجل .

إلى هذه الغرفة كان أصدقاء اينوك الشاب يدخلون في المساء . لم يكونوا يتميزون بشيء غير عادي عدا كونهم فنانين من خلال الكلام الكل سمع بالفنانين المتكلمين . وعلى مدى تاريخ العالم المعروف كانوا يتجمعون في غرف ويتكلمون . يتكلمون عن الفن بجدية متحمسة تصل إلى حد الانفعال. ويولون أحاديثهم من الأهمية أكثر مما تستحق .

أذن كانوا يجتمعون ويدخنون السجائر ويتحدثون واينوك روبنسن ، فتى المزرعة القريبة من واينسبرغ ، بينهم . يجلس في الزاوية وعلى الأغلب لايقول شيئاً . ويا للطريقة التي كانت عيناه الكبيرتان الزرقاوان الطفوليتان تحملقان ! على الجدران علقت لوحات رسمها بنفسه ، رسومات بدائية ، نصف منتهية . وكان اصدقاؤه يتحدثون عنها . يسترخون على كراسيهم ، يتكلمون ويتكلمون ورؤوسهم تهتز من جنب إلى جنب . وتلقى كلمات حول الخط والقيم والتكوين ، كلمات كثيرة ، وهي نفسها تقال دائماً .

أراد اينوك أن يتكلم أيضاً لكنه لم يعرف كيف يبدأ . كان شديد

الارتباك بحيث لا يتكلم بانسجام . وحين يحاول يتلعثم ويتأتى ويبدو له صوته غريباً صريفياً . وهذا مايجعله يصمت . كان يعرف مايريد قوله ، لكنه عرف أيضاً انه لايستطيع بأي حال أن يقوله . حين يدور الحديث حول لوحة رسمها ، يشعر برغبة بالانفجار قائلاً شيئاً مثل : « انكم لاتصلون إلى النقطة المهمة ، الصورة التي ترون لاتتألف من الأشياء التي ترونها وتقولون الكلمات حولها . ثمة أمر آخر ، شيء لاترونه على الاطلاق ، شيء لاتجتهدون لرؤيته . انظروا إلى تلك التي هناك ، هنا قرب الباب ، التي يسقط عليها ضوء من النافذة البقعة الداكنة القريبة من الشارع التي ربما لاتلاحظونها أبداً ، هي بداية كل شيء . ثمة أجمة من البلسان هناك كالتي تنمو عادة على جانب الطريق أمام بيتنا هناك في واينسبرغ ، أوهايو ، وثمة شيء مخبأ بين نبات البلسان . انه امرأة ، نعم . لقد وقعت عن حصان والحصان غاب عن الأنظار . ألا ترون كيف ينظر العجوز قائد العربة حوله بقلق ؟ انه ثاد غريباك الذي يملك مزرعة في آخر الدرب . انه يخمن ان ثمة شيئاً في البلسان ، شيئاً مخبأ ، لكنه لايعرف تماماً .

« انه امرأة ، هذا مؤكد ! انه امرأة و ، آه ؛ ما أجملها ! انها مصابة وتتالم لكنها لا تصدر أي صوت . ألا ترون هذا ؟ انها ترقد ساكنة ، بيضاء وساكنة ، ويشع الجمال منها وينتشر فوق كل شيء . انه منعكس على السماء هناك في الخلف وفي جميع أرجاء المكان . لم أحاول رسم المرأة ، طبعاً . انها أجمل من أن ترسم . ماأبلد الحديث

عن التكوين وماشابهه ! لماذا لاتنظرون إلى السماء ومن ثم تركضون مبتعدين كما كنت أفعل وأنا صبي هناك في واينسبرغ ، أوهايو ؟ » .

هذا نموذج من الشيء الذي خاف الشاب اينوك روبنسن أن يقوله للضيوف الذين أتوا إلى غرفته حين كان شاباً في مدينة نيويورك ، لكنه دائماً ينتهي بعدم قول أي شيء . ومن ثم بدأ يشك في نفسه . كان يخشى أن لاتكون مشاعره واضحة التعبير في اللوحات التي رسمها . وكف عن دعوة الناس إلى غرفته وقد سيطر عليه مزاج شبه ساخط ، وسرعان ماااعتاد على اغلاق الباب . صار يرى أنه يكفي مازاره الناس في غرفته ، وانه لم يعد يحتاج إليهم وبخيال سريع بدأ يخلق أناسه الخاصين الذين يستطيع أن يتحدث إليهم فعلاً ، ويشرح لهم مالم يستطع شرحه للناس الحقيقيين . وراحت أشباح الرجال والنساء الذين يعرفهم ، تسكن غرفته ، من خلال كلماته التي يرددها . وكأن كل مارآه اينوك روبنسن ترك لديه بعضاً من جوهر نفسه ، شيئاً لم يستطع صوغه أو تغييره ليلائم خياله ، جانباً يمكنه أن يفهم كل الأشياء المشابهة للمرأة المجروحة المستلقية خلف البلسان في اللوحات .

لقد كان الفتى ذو العينين الزرقاوين الرقيقتين ذاتياً كاملاً ، مثل كل الأطفال . لم يكن يريد أصدقاء لسبب بسيط هو أن لاطفل يحب الأصدقاء . أراد أن يكون أغلب الناس مطابقين لعقله ، ممهم يستطيع أن يتحدث حقاً ، أن يرفع صوته جهوراً ويؤنب لساعات ، أن يكونوا ، فلنقل ، خدماً لخياله . بين هؤلاء كان دائماً واثق النفس

جريئاً . بوسعهم أن يتحدثوا ، بحق ، بل ويطرحوا آرائهم الخاصة ، لكنه في آخر الأمر يكون هو المتحدث الأخير والأفضل . كان أشبه بكاتب مشغول بين شخوص خياله ، لقد كان ملكاً بعينين صغيرتين زرقاوين ، يسكن غرفة بستة دولارات تواجه ساحة واشنطن في مدينة نيويورك .

ثم تزوج اينوك روبنسن . فقد بدأ يشعر بالوحشة وبالحاجة للمس أناس حقيقيين من لحم ودم بيديه . ومرت الأيام بدت فيها غرفته خالية ، واستبدت الشهوة بجسده وتعاظمت الرغبة في خياله . في الليل تخترق داخله حمم غريبة ، تبقيه يقظاً . تزوج فتاة تجلس إلى جانبه في معهد الفنون ، وترغب بالسكن في شقة في بروكلن ، وأنجبت امرأته طفلين ، وحصل اينوك على عمل في محل لرسم لوحات للاعلانات التجارية .

وهكذا بدأت حقبة أخرى من حياة اينوك . بدأ يشترك في لعبة جديدة . وانقضت فترة شعر خلالها انه فخور جداً بنفسه ، لأدائه دور المواطن المنتج في العالم . وتخلى عن جوهر الأشياء وراح يتلاعب بالحقائق . في الخريف صوّت في الانتخابات ، وصارت له صحيفة ترمى له إلى الشرفة كل صباح . في المساء ، أثناء عودته إلى البيت من العمل ، ينزل من الحافلة ويمشي برصانة خلف أحد رجال الأعمال ، محاولاً جهده أن يبدو ثرياً جداً ومهماً . بالنسبة لدفع الضرائب رأى أن يحيط نفسه علماً بمجريات الأمور ، وقال لنفسه بوقار مصغّر

مسل « انني أغدو على جانب من الأهمية ، وأشكل جزءاً لايستهان به من أحداث الولاية ، والمدينة وكل شيء » . وذات مرة ، في طريق عودته من فيلادلفيا ، تناقش مع رجل قابله في القطار. تحدث اينوك عن استصوابه لامتلاك الدولة السكك الحديد وتشغيلها ، وقدم له الرجل سيجاراً . وأشار اينوك إلى أن هذه الخطوة من الدولة ستكون لها نتائج جيدة، وازداد حماسه ، وهو يتكلم . فيما بعد راح يتذكر كلماته باستمتاع . وهمس لنفسه وهو يرتقي الدرج في شقته في بروكلن « لقد أعطيت ذاك الرجل أفكاراً تشغله » .

من المؤكد أن زواج اينوك لم يخفق ، بل أنهاه هو بنفسه . فقد بدأ يشعر بالاختناق وبأنه محاصر بحياته داخل الشقة ، وبات يشعر نحو زوجته بل نحو أولاده كما شعر مرة نحو أصدقائه الذين كانوا يزورونه . وبدأ يلقي أكاذيب صغيرة ، ويتعلل بارتباطه بالأعمال ، لتتاح له فرص الحرية للسير وحيداً في الشوارع ليلاً ، ثم بعد أن توفر له هذا ، عاد واستأجر سرّاً الغرفة المواجهة لساحة واشنطن . ثم توفت السيدة آل روبنسن في المزرعة القريبة من واينسبرغ ، وحصل على ثمانية آلاف دولار من البنك الذي كان وصياً على عزبتها . هذا الطارىء هو الذي أخرج اينوك تماماً من عالم البشر . فأعطى النقود لزوجته وقال لها انه لم يعد يطيق العيش في الشقة ، فبكت وغضبت وهددت ، لكنه اكتفى بالحملقة فيها ، ثم خرج يتبع طريقه . في الحقيقة ان زوجته لم تأبه كثيراً. رأت أن اينوك مجنون قليلاً وخافت منه بعض الشيء . وحين تأكدت

من انه لن يعود أبداً ، أخذت الولدين وذهبت إلى قرية في كونكتيكت حيث عاشت كفتاة . أخيراً تزوجت رجلاً يعمل في شراء وبيع العقارات وكانت سعيدة تماماً .

وهكذا ظل اينوك روبنسن في غرفة نيويورك بين أناس خياله ، يلعب معهم ، ويحدثهم ، سعيداً كطفل . كان اناس اينوك مجموعة غريبة ، أظن أنهم كانوا مستنبطين من أناس حقيقيين رآهم ، ولسبب غامض أثاروا اهتمامه . كان ثمة امرأة تحمل سيفاً بيدها ، وعجوز بلحية طويلة بيضاء يتجول يتبعه كلب ، وفتاة صبية جورباها دائماً هابطان ومتدليان فوق حذائها . ولابد انه كان يوجد من هذه الأشباح دزينة ، خلقها عقل اينوك روبنسن الطفل ، وعاشت معه في الغرفة .

كان اينوك سعيداً . يدخل إلى الغرفة ويوصدها ، ويبدأ يتحدث بصوت عال . بهيئة سخيفة من الجدية ، يوجه التعليمات ، معلقاً على الحياة . كان سعيداً راضياً بالاستمرار في كسب عيشه من مكتب الاعلانات إلى أن حدث شيء . ولاشك بأن ماحدث عظيم لأنه عاد ليعيش في واينسبرغ وصرنا نعرف أخباره . هذا الحدث كان امرأة . هكذا . لقد كان سعيداً ، وكان لابد أن يدخل شيء إلى عالمه . كان على شيء ما أن يخرجه من غرفة نيويورك ليعيش حياته مغموراً ، شخصية حقيرة مهزوزة ، يطفو قافزاً من شارع إلى شارع من بلدة أوهايو في المساء بعد أن تغيب الشمس خلف سقف مخزن ويسلي موير لرعاية الخيل .

ولنعد لما حدث . فقد أخبر به جورج ويلارد ذات ليلة . رغب بالتحدث مع أحد ، واختار المراسل الصحفي الشاب ، لأنه صادف أن تقابلا حين كان الشاب في مزاج يسمح له بالفهم . وبدأ العجوز حديثه يحثه حزن غض ، حزن شاب ، حزن فتى يكبر في قرية عند نهاية العام . كان الحزن في قلب جورج ويلارد دون سبب ، لكنه ناسب اينوك روبنسن .

في الليلة التي تقابلا فيها وتحدثا هطل المطر . مطر تشريني رذاذي . لقد حل وقت الأثمار من العام وكان يجب أن تكون الليلة مقمرة ، والجو منعماً بتباشير صقيع قارس حاد ، لكنه لم يحدث ، بل أمطرت ، وتحت مصابيح الشارع الرئيسي لمعت برك الماء الصغيرة . وفي الغابات المظلمة ، خلف أرض السوق ، قطر الماء من الأشجار السوداء . وتحت الأشجار التصقت الأوراق بجذورها الناتئة من الأرض . وفي خلفيات حدائق البيوت في واينسبرغ امتدت فروع نبات البطاطا الجافة الذابلة على الأرض . الرجال الذين انتهوا من تناول عشائهم وخططوا للذهاب إلى المدينة لقضاء السهرة بالتحدث مع غيرهم من الرجال في خلفية أحد المتاجر ، غيّروا رأيهم . خرج جورج ويلارد يجوس تحت المطر ، وكان سعيداً لأنها تمطر . هكذا أحس . كان مثل اينوك روبنسن في الأمسيات حين كان العجوز يخرج من غرفته ويبدأ بالتسكع وحيداً . سار الأمر على هذا المنوال دائماً ، حتى ان جورج ويلارد كان يظن انه ليس من علائم الرجولة أن يبكي ويتصرف بحمق . لقد رقدت أمه

مريضة شهراً وكان لهذا يد في حزنه . ولكن ليس كثيراً . وفكر بنفسه وبالشبان الذين يسبب لهم الحزن دائماً .

تقابل اينوك روبنسن تحت ظلة خشبية منشورة فوق الرصيف أمام مخزن فويت للعربات في شارع موي ، على بعد بسيط من الشارع الرئيسي لواينسبرغ . انطلقا من هناك خلال الشوارع المغسولة بالمطر إلى غرفة العجوز الكائنة في الطابق الثالث من بناية هيغينز . رافقه الفتى راغباً . بعد أن تحدثا عشر دقائق طلب منه اينوك روبنسون الرحيل . خاف الفتى قليلاً ، لكنه لم يكن مرة في حياته أكثر فضولاً . ولطالما سمعه الناس يقول عن العجوز انه مخبول نوعاً ما ، ورأى انها شجاعة ورجولة أن يرافقه . من البداية ، وهما لايزالان في الشارع تحت المطر ، راح العجوز يتكلم بطريقة عجيبة ، يحاول أن يحكي حكاية الغرفة الكائنة في ساحة واشنطن وحياته فيها . قال بلهجة اقرار « ستفهم إذا حاولت جيداً . لقد نظرت إليك حين مررت بي في الشارع وأظن أنك تفهم . ليس الأمر صعباً. كل ماعليك عمله هو أن تؤمن بما أقول ، أنصت فقط وآمن . هذا كل شيء » .

كانت الساعة السابعة والنصف من ذاك المساء حين وصل اينوك العجوز ، وهو يحدث جورج ويلارد في الغرفة في بناية هنفنر ، إلى النقطة الحيوية ، إلى حكاية المرأة ، والسبب الذي جعله يغادر المدينة ليقضي حياته وحيداً مدحوراً في واينسبرغ . جلس على سرير نقال موضوع قرب النافذة ، ورأسه بين يديه وجورج ويلارد جالس على

كرسي بجوار طاولة . على الطاولة مصباح كيروسين . كانت الغرفة نظيفة تماماً ، رغم انها تكاد تخلو من أثاث . وبينما الرجل يتحدث ود ّ ويلارد لو انه هو أيضاً يجلس على السرير . أراد أن يحيط بذراعيه الرجل العجوز . وسط الظلام شبه الشامل تحدث الرجل وأنصت الفتى وقد ملأه الأسى .

قال اينوك روبنسن « لقد دخلت الغرفة بعد أن كانت قد خلت لسنين من أي زائر . رأتني في ردهة البيت وتعارفنا . لاأعرف ماذا فعلت في غرفتها . فلم أدخلها أبداً . أظن انها كانت موسيقية تعزف على الكمان . كانت بين الحين والآخر تدق عليّ الباب وأفتحه ، فتدخل وتجلس إلى جانبي . تجلس فقط وتنظر حولها ولاتقول شيئاً . مهما يكن ، لم تكن تقول مايستحق الاهتمام » .

نهض العجوز عن السرير وراح يتحرك في الغرفة . كان المعطف الذي يرتديه مبللاً من المطر وثمة قطرات من الماء تسقط بصوت خافت على الأرض . حين عاود الجلوس على السرير ، قام جورج ويلارد عن كرسيه وجلس إلى جواره .

« وشعرت بميل نحوها . لقد جلست هناك في الغرفة معي ، وكانت ضخمة الحجم بالنسبة للغرفة . شعرت إنها تحتل مكان كل شيء آخر . تكلمنا فقط عن أمور تافهة ، لكني لم أكن أستطيع الجلوس دون حراك أردت أن ألمسها بأصابعي وأن أقبّلها . كانت يداها قويتين جداً ووجهها جميلاً جداً ، وكانت تنظر إليّ طول الوقت » .

صمت صوت العجوز المرتجف واهتز جسمه وكأنما بفعل الصقيع . همس « كنت خائفاً ، خائفاً حتى الرعب . ولم أعد أرغب بدخولها عليّ حين تقرع بابي ، لكني لم أستطع الجلوس ساكناً . وقلت لنفسي « لا ، لا » لكني قمت وفتحت الباب مع ذلك . لقد كانت ناضجة جداً ، في الواقع . كانت امرأة . ظننت إنها ستكبر أكثر مني في تلك الغرفة » .

أمعن اينوك روبنسن النظر في جورج ويلارد ، وعيناه الطفوليتان الزرقاوان تلمعان على ضوء المصباح . وارتعش من جديد . وشرح « أردتها وطوال الوقت لم أكن أريدها ثم رحت أحكي لها عن الناس ، عن كل ماله معنى بالنسبة لي . حاولت أن أظل صامتاً ، أن أحتفظ بنفسي لنفسي ، لكني لم أقدر . شعرت مثل شعوري عندما أفتح لها الباب . أحياناً أتألم حين أفكر انها ذهبت ولم تعد أبداً » .

قفز العجوز واقفاً على قدميه وصوته يرتجف إنفعالاً « وذات أمسية حدث شيء . كدت أجن لاجعلها تفهمني ، لأجعلها تعلم كم أنا شيء كبير في تلك الغرفة . أردتها أن ترى مدى أهميتي . قلت لها هذا مراراً كثيرة . وحين حاولت أن تذهب ، هرعت وأغلقت الباب ، وصرت أتبعها . تكلمت وتكلمت ، ثم على حين فجأة تحطم كل شيء . فقد ظهرت في عينيها نظرة علمت منها انها فهمت . ربما كانت تفهم طوال الوقت . وكدت أخرج عن طوري . لم أحتملها . أردتها أن تفهم

ولكن ، ألا ترى ، لم أتمكن من إفهامها . حسبت عندئذ إنها ستفهم كل شيء ، واني سأغوص ، سأغرق . وهذا ماحدث.لاأعلم لماذا » .

تهالك العجوز على الكرسي قرب المصباح وأنصت الفتى ، وقد ملأه الروع . قال الرجل « إمض يافتى . لاتبق هنا لحظة واحدة . حسبت أني سأرتاح حين أحكي لك ولكن لا . لم أعد أرغب بالكلام ، إمض » .

هز جورج ويلارد رأسه وشاب صوته نبرة أخرى وهو يقول « لاتقف الآن . قص عليّ الباقي . ماذا حدث ؟ قص عليّ بقية القصة » .

قفز اينوك روبنسن واقفاً على قدميه وأسرع إلى النافذة المطلة على شارع واينسبرغ الرئيسي المقفر . وتابعه جورج ويلارد . وقف الإثنان بمحاذاة النافذة . الفتى ذو السيماء الرجولية ، الطويل ، والرجل الطفل الضئيل الكثير التجاعيد . وتابع الصوت الطفولي المشتاق قصته . شرح قائلاً « سببتها ، تفوهت بكلمات قذرة . أمرتها أن تذهب وأن لاتعود أبداً . أوه ، لقد قلت أشياء مريعة . في أول الأمر تظاهرت بعدم الفهم ، لكني أصررت . صرخت وضربت الأرض بقدمي . جعلت البيت يرجّع أصداء سبابي . لم أرد أن أراها بعد ذلك ، وعرفت ، بعد أن تفوهت ببعض الكلمات ، اني لن أراها أبداً » .

انقطع صوت العجوز وهز رأسه ، وقال بهدوء وحزن « لقد تحطم كل شيء ، وخرجت من الباب وتبعتها الحياة التي كانت تسكن

الغرفة . وأخذت معها كل أناسي . كلهم خرجوا من الباب خلفها . هذا ماحدث » .

استدار جورج ويلارد وخرج من غرفة اينوك روبنسن . وبينما هو خارج من الباب ، في الظلام بمحاذاة النافذة ، سمع صوت العجوز الواهن ينشج ويشتكي . قال الصوت « أنا وحيد ، وحيد تماماً هنا . كانت غرفتي دافئة وأليفة لكني الآن وحيد وحدة مطلقة » .

* * *

يقظة

كان لبيل كاربنتر بشرة داكنة ، وعينان رماديتان ، وشفتان ممتلئتان . طويلة وقوية . حين تغلبها الأفكار القاتمة تغضب وتتمنى لو كانت رجلاً لتتصارع مع أحدهم بالأيدي . كانت تعمل في محل لبيع القبعات النسائية تديره السيدة كيت ماكهيو ، وطوال النهار تجلس وتطرز القبعات قرب احدى النوافذ في خلفية المتجر . كانت ابنة هنري كاربنتر ، كاتب الحسابات ، في بنك واينسبرغ الوطني الأول ، تعيش معه في بيت عتيق كئيب يقع في الطرف الأقصى لشارع بكي . كان البيت محاطاً بأشجار الصنوبر لاينمو عشب تحتها . وثمة إفريز أنبوبي قصديري صدىء منزلق على متبّتاته في خلفية المنزل ، وحينما تهب الريح يرتطم بسقف سقيفة صغيرة ، مصدراً ضجيجاً موحشاً هادراً يستمر أحياناً طوال الليل .

حين كانت فتاة صغيرة جعل هنري كاربنتر حياتها لاتطاق . ولكن لما بدأت تنتشي وتغدو كاملة الأنوثة فقد سيطرته عليها . كانت

حياة كاتب الحسابات مؤلفة من عدد لايحصى من الحقارات. حين يتوجه إلى البنك صباحاً يدخل خزانة ويرتدي معطف ألباكاأسود، وقد أصبح رثاً بفعل الزمن . حين يعود مساء إلى بيته يرتدي معطف ألباكا أسود آخر . وكل مساء يكوي الملابس التي يخرج بها ، وقد ابتكر مجموعة من الألواح لهذا الغرض . يضع سروال بذلة الخروج بين لوحتين ، ويضغط اللوحين معاً ببراغي ثقيلة . في الصباح يمسح اللوحين بقطعة قماش مبللة ، ويضعهماقائمين خلف باب غرفة الطعام . إذا أزيحا من مكانهما أثناء النهار ، يصبح أخرس من الغضب ولايستعيد توازنه قبل مرور أسبوع .

كان محاسب البنك متنمراً قليلاً ويخاف من ابنته . فقد علمت ، كما أعرف ، بقصة معاملته القاسية لأمها وباتت تكرهه . وفي أحد الأيام جاءت إلى البيت ظهراً ، وهي تحمل قبضة من الوحل الرخو جلبتها من الطريق ، إلى البيت . بهذا الوحل لطّخت وجه الألواح التي يستخدمها في كي السراويل ، ثم عادت إلى عمتها وقد أحست بالارتياح والسعادة .

وكانت بيل كاربنتر تتنزه أحياناً مع جورج ويلارد ليلاً . في الخفاء كانت تحب شاباً آخر ، لكن علاقتها الغرامية ، التي لايعرف بأمرها أحد ، سبّبت لها الكثير من القلق . كانت مغرمة بإد هاندبي ، وهو ساق في حانة إد غريفيث ، وكانت تخرج للتنزه مع المراسل الشاب كنوع من إراحة المشاعر . لم تكن تظن ان موقعها في الحياة

سيسمح لها أن ترى بصحبة ساق ، ثم تتنزه تحت الأشجار مع جورج ويلارد وتدعه يقبّلها لتهدّىء من اشتياقها الذي كان ملحّاً جداً على طبيعتها . شعرت انه بامكانها الاحتفاظ بالشاب احتياطاً . أما إد هاندبي فلم تكن متأكدة منه .

كان هاندبي ، الساقي ، طويل القامة ، عريض الكتفين في حوالي الثلاثين ، يسكن غرفة تقع فوق حانة غريفيث . كانت قبضتاه ضخمتين ، وعيناه صغيرتين بشكل غير عادي ، لكن صوته كان ناعماً وهادئاً ، وكأنه يجاهد ليخفي القوة الكامنة في قبضتيه .

حين كان في الخامسة والعشرين ورث الساقي مزرعة كبيرة من عم له في انديانا . وحين بيعت ، جلبت مبلغ ثمانية آلاف دولار ، صرفها إد خلال ستة أشهر . فقد ذهب إلى صاندسكي ، على بحيرة إرى ، وراح يعربد عربدة رعناء ، ملأت أخبارها بعد ذلك مدينته بالرعب . فقد أخذ يبعثر نقوده هنا وهناك ، ويقود العربات في الشوارع ، ويقيم حفلات خمر لحشود من الرجال والنساء ، ويلعب الورق مخاطراً بمبالغ كبيرة ، ويرافق خليلات كلّفته أثوابهن مئات الدولارات . وذات ليلة في منتجع يدعى سيدار بوينت ، اشتبك في شجار ، وهاج كالوحش . كسر بقبضته مرآة كبيرة في غرفة الغسل من أحد الفنادق ، ثم انطلق يهشم النوافذ ويكسّر الكراسي في قاعات الرقص لمجرد متعة سماع تهشم الزجاج على الأرض ، ورؤية الرعب في عيون الموظفين القادمين من صاندسكي لقضاء الأمسية في المنتجع مع عشيقاتهم .

لم تبلغ علاقة إد هاندي وبيل كاربنتر في الظاهر أي شيء . لم ينجح سوى في قضاء أمسية واحدة معها . في تلك الأمسية استأجر حصاناً وعربة من مخزن ويسلي موير . وصحبها في نزهة . وبات مقتنعاً تماماً بأنها المرأة التي تلائم طبيعته ، وانه يحب الحصول عليها ، وباح لها برغباته . كان الساقي مستعداً للزواج وللبدء بمحاولة كسب العيش لاعالة زوجته ، لكنه كان بسيطاً جداً بحيث صعب عليه شرح مقاصده . وآلمه جسده من شدة وطأة الرغبات الجسدية ، وبجسده كان يعبر عن نفسه . أخذ بائعة القبعات بين ذراعيه وضمها بقوة رغم تملصاتها ، وقبّلها حتى خارت قواها . ومن ثم أعادها إلى البلدة وتركها تغادر العربة ، وقال لها وهو يوجه العربة مبتعداً « حين أضمك مرة ثانية لن أدعك تفلتين . لايمكنك العبث بي » . ثم قفز من العربة ، وأمسك كتفيها بيديه القويتين قائلاً « في المرة القادمة سأحتفظ بك إلى الأبد . عليك أن تقرري عزمك . انه أمر يخصنا معاً وسأحصل عليك قبل أن أحاول » .

وذات مساء في كانون الثاني ، وقد ظهر القمر الجديد ، خرج جورج ويلارد يتنزه ، وكان إد هاندي يرى أن جورج يقف حجر عثرة في سبيل حصوله على بيل كاربنتر . في وقت مبكر من تلك الأمسية دخل جورج إلى قاعة البليارد في محل رانسوم سربك مع ست ريتشموند وآرت ويلسون ، ابن لحام البلدة . وقف ست ريتشموند وظهره إلى الجدار وظل صامتاً ، لكن جورج ويلارد تحدث . كانت

قاعة البليارد مملوءة بفتيان واينسبرغ وقد انهمكوا في أحاديث مع النساء . ودخل المراسل الشاب في هذا الجو . قال إن على النساء أن يعتنين بأنفسهن ، وإن الشاب الذي يخرج مع فتاة ليس مسؤولاً عما يحدث . وبينما هو يتكلم كان ينظر حوله ، راغباً في جذب الانتباه . ظل شاغلاً الانتباه مدة خمس دقائق ثم بدأ آرت وياسون الكلام . كان آرت يتعلم مهنة الحلاقة في دكان كال بروز . وقد بدأ لتوه يعتبر نفسه خبيراً في أمور مثل البيسبول ، وسباق الخيل ، والشرب ، والخروج مع النساء . وراح يحكي عن ذات مساء حين دخل هو ورجلان من واينسبرغ دار البغاء في مركز المقاطعة . وضع إبن اللحام سيجاراً في طرف فمه وبينما هو يتكلم كان يبصق على الأرض . قال مفاخراً « لم تربكني النساء في ذات المكان رغم إنهن حاولن جاهدات. حاولت إحدى فتيات الدار أن تعربد ، لكني هزأت بها . فحالما بدأت تتكلم قمت وجلست في حضنها . وضحك كل من كان في الغرفة حين قبلّتها . لقد علمّتها إن تدعني وشأني » .

خرج جورج ويلارد من غرفة البليارد إلى الشارع الرئيسي . الطقس شديد البرد منذ عدة أيام ، وهبت الرياح العالية على البلدة قادمة من بحيرة إرى ، على بعد ثمانية عشر ميلاً إلى الشمال ، لكن منذ تلك الليلة خمدت الرياح وجعل القمر الجديد الأمسية رائعة الجمال . ترك جورج ويلارد الشارع الرئيسي ، دون أن يفكر إلى أين يذهب أو ماذا يريد ، وراح يمشي خلال الشوارع الخافتة الإضاءة والمملوءة بهياكل البيوت .

حين يكون خارج البيت ، تحت السماء السوداء المرصّعة بالنجوم ينسى رفاق قاعة البليارد . وبسبب الظلام ولأنه وحيد بدأ يتكلم بصوت عال . وانساب بروح مسرحية يجرس الشارع . مقلداً رجلاً ثملاً ثم تخيل نفسه جندياً يرتدي حذاءاً لماعاً يصل حتى ركبتيه ويضع سيفاً يقرقع أثناء سيره . تخيل نفسه ضابطاً ، يستعرض صفاً طويلاً من الجنود الواقفين بانتباه ، وراح يتفحص تجهيزاتهم . ووقف أمام إحدى الشجرات وراح يؤنب « عدّتك ليست مرتّبة » قال باحتداد « كم مرة يجب أن أتحدث عن هذه النقطة ؟ يجب أن يكون كل شيء حسب النظام هنا . أمامنا مهمة صعبة ولا يمكن تنفيذ أية مهمة صعبة بدون نظام » .

وتعثّر الشاب في مشيته متأثراً بكلماته ، وأضاف « ثمة قانون للجيوش وللرجال أيضاً » متمتماً ، وغاص في التأمل « يبدأ القانون بأمور صغيرة ويتوسع حتى يشمل كل شيء . يجب أن يكون في كل شيء نظام ، في أماكن عمل الناس ، في ثيابهم ، في أفكارهم . أنا نفسي يجب أن أكون نظامياً . يجب أن أعرف القانون . يجب ان أتصل بشيء نظامي وكبير بنشط في الليل كنجم . يجب أن أتعلم شيئاً بطريقتي الأولية ، أن أعطي وأنشط وأتعامل مع الحياة ، مع القانون » .

توقف جورج ويلارد قرب سياج وتدىّ بجانب مصباح الشارع ، وراح جسمه يرتجف . فلم يفكر من قبل بمثل هذه الأفكار التي خطرت له ، وتساءل عن مصدرها . بدا للوهلة الأولى أن ثمة صوتاً خارجه

يتكلم . وذهل وابتهج لفكرته وحين تابع طريقه راح يتحدث عن الأمر بحماسة « من الأفضل الخروج من قاعة رانسوم سربك للبليارد والتفكير هكذا ، من الأفضل أن أبقى وحيداً . إذا تكلمت مثل آرت ويلسون سيفهمني الشباب لكنهم لن يفهموا ماكنت أفكر به هنا » .

في واينسبرغ ، كما في جميع مدن أوهايو قبل عشرين عاماً ، كان ثمة قطاع يعيش فيه عمال النهار . ولما لم يكن عهد المصانع قد حل بعد ، كان العمال يشتغلون في الحقول أو يشكلون جزءاً من الأيدي العاملة في سكك الحديد . كانوا يعملون إثنا عشرة ساعة في اليوم ويحصلون على دولار واحد مقابل يوم شاق في العمل. البيوت التي يسكنونها صغيرة وسيئة البناء وموادها من الخشب ، مع حديقة في المؤخرة . أكثر الأماكن راحة هي المخصصة للأبقار وربما للخنازير ، فهي تؤوى في سقيفة صغيرة تقع في طرف الحديقة .

مشى ويلارد خلال الشوارع ، برأسه المملوء بالأفكار المتلاطمة ، ذات أمسية كانونية. كان الشارع خافت الضوء وثمة بقع منه كانت بدون رصيف . وفي المشهد المنتشر حوله كان هناك شيء ألهب خياله الذي انتعش لتوه . لقد ظل عدة عام يسخّر أوقاته الغريبة لقراءة الكتب ، وقد قرأ حديثاً حكاية حول الحياة في مدن العالم القديم للقرون الوسطى ، وعادت إلى ذاكرته بوضوح شديد حتى انه تعثّر من غرابة الشعور بزيارة مكان كان جزءاً من وجود سابق ثانية . وبدافع ماانحدر من

الشارع إلى زقاق مظلم صغير يقع خلف السقيفات التي تأوى فيها الأبقار والخنازير .

ظل في الزقاق نصف ساعة ، يشتّم رائحة الحيوانات القوية القريبة منه جداً ، وترك لذهنه أن يبعث بالأفكار الجديدة الغريبة التي تولدت لديه . لقد أيقظت نتانة رائحة الروث بالذات ، وسط الجو النقي الجميل ، شيئاً مُسكِراً في رأسه . البيوت الفقيرة الصغيرة المضاءة بمصابيح الكيرسين ، والدخان المتصاعد من المداخن يمتد مستقيماً في الجو النقي ، وقباع الخنازير ، والنساء المرتديات أثواباً رخيصة سوقية وهن يغسلن الصحون في المطابخ ، ووقع خطى الرجال الخارجين من البيوت والمتوجهين إلى مخازن وحانات الشارع الرئيسي ، والكلاب النابحة والأولاد الزاعقون — كل هذه الأشياء جعلته يبدو ، وهو كامن في الظلام ، منفصلاً ومستقلاً بشكل غريب عن كل أوجه الحياة .

أخذ الشاب المنفعل ، وهو غير قادر على حمل ثقل أفكاره ، ينتقل بحذر على طول الزقاق . هاجمه كلب واضطر لإبعاده بضربه بالاحجار ، وظهر رجل على باب أحد المنازل وشتم الكلب ، دخل جورج إلى أرض جرداء ورمى برأسه إلى الخلف ونظر إلى السماء . شعر بنفسه كبيراً بما لايوصف وجديداً بعد التجربة البسيطة التي كان يمر بها ، ومد يديه ، بنوع من دفقة شعورية ، في وجه السماء المترامية فوقه وهو يتمتم بالكلمات . وطغت عليه رغبة النطق بالكلمات ،

لاتشكل مع بعضها أي معنى ، وغمغم « موت ، ليل ، البحر ، خوف ، جمال » .

خرج جورج ويلارد من الأرض البور وعاد ليقف على الرصيف المقابل للبيوت . شعر أن كل الناس في الشارع يجب أن يكونوا إخوة وأخوات بالنسبة له وودّ لو كانت لديه الشجاعة ليدمرهم للخروج من منازلهم وليصافحوا ، وفكر « لو كان ثمة امرأة هنا لاحتضنتها وركضنا حتى ننهلك سوياً ، عندئذ سنشعر بالارتياح » تابع طريقه وفكرة المرأة في رأسه واتجه صوب بيت بيل كاربنتر . ظن إنها ستفهم حالته وانه سيحقق في حضورها مركزاً طالما تاق لاحرازه . في الماضي حين كان معها ذات مرة وقبّلها على شفتيها تركها وهو غاضب من نفسه . شعر كأنه شخص استغل لهدف غامض ولم يستمتع بالشعور . أما الآن فصار يرى فجأة انه بات أكبر من أن يستغل .

حين وصل جورج إلى بيت بيل كاربنتر كان قد سبقه إليه زائر . فقد كان إد هاندبي قد أتى وهو ينادي على بيل لتخرج من المنزل وحاول أن يتكلم معها . أراد أن يطلب من الفتاة أن تذهب معه وتكون زوجته ، ولكن حين أتت ووقفت أمام الباب فقد ثقته بنفسه وصار نكداً ، وزمجر « إبتعدي عن ذالك الولد » قاصداً جورج ويلارد . ومن ثم ، ولما لم يعد لديه مايقوله ، استدار ليرحل وأضاف « إذا رأيتكما معاً سأحطم عظامك وعظامه » ، وكان الساقي قد أتى ليتودد ، لاليهدد وغضب من نفسه لهذا الفشل .

بعد مغادرة عاشق بيل دخلت وهرعت من فورها إلى الطابق العلوي . ومن نافذة في الجزء العلوي من المنزل رأت إد هاندي يعبر الشارع ويجلس على عدّة حصان أمام بيت أحد الجيران. وجلس الرجل في الضوء الخافت دون حراك واضعاً رأسه بين يديه . أسعدها المشهد ، وحين تقدم جورج ويلارد من الباب رحبت به باسراف وسرعان مااعتمرت قبعتها . حسبت وهي تجوب الشوارع مع الشاب ويلارد أن إد هاندي سيتبعها وأرادت أن تجعله يعاني .

سارت بيل كاربنتر والمراسل الشاب تحت الأشجار وفي هواء الليل المنعش مدة ساعة . كان جورج ويلارد مملوءاً بالكلمات الكبيرة . لقد ظل معه إحساس القوة الذي تملّكه أثناء الساعة التي قضاها في الظلام وسط الزقاق ، وراح يتحدث بجراءة ، ومشى باختيال وهو يهز يديه بحرية . أراد أن يجعل بيل كاربنتر تدرك إنه يعي ضعفه السابق وانه قد تبدّل . وأعلن ، مقحماً يديه في جيبه ، وهو ينظر بشجاعة في عينيها « ستجدينني مختلفاً . لاأعرف لماذا ولكنه هكذا . عليك أن تعامليني كرجل وإلا دعيني وشأني . هذا قراري » .

تجولت الفتاة مع الشاب في الشوارع الهادئة تحت القمر الجديد . حين أفرغ جورج جعبته من الكلام انحدرا إلى شارع جانبي وعبرا جسراً مؤدياً إلى ممر يرتقي جانب التل . بدأ التل عند بحيرة محطة المياه وتابعا حتى أرض سوق واينسبرغ . على سفح التل نمت شجيرات

كثيفة وأشجار صغيرة وكان بين الشجيرات فسح صغيرة مكشوفة مكسوّة بعشب طويل ، وقد بات الآن يابساً متجمداً .

بينما كان جورج ويلارد يمشي خلف المرأة مرتقياً التل راح قلبه يخفق مسرعاً واستقام كتفاه . وقرر فجأة أن بيل كاربنتر على وشك أن تستسلم له . وشعر أن القوة الجديدة التي انبثقت فيه كانت تترك أثرها وقد أدّت إلى السيطر على الفتاة . أسكرته الفكرة باحساس القدرة الذكرية ، مع أنه انزعج لأنها لم تكن تصغي إليه وهما يتنزهان ، لكن مرافقتها له إلى هذا المكان ألغى كل شك . أمسكها من كتفيها وأدارها نحوه ووقف ينظر إليها ، وفكر وعيناه تومضان بالزهو « الأمر يختلف . كل شيء بات مختلفاً » .

لم تقاوم بيل كاربنتر ، وحين قبّلها على شفتيها ارتمت عليه بتثاقل ونظرت عبر كتفيه إلى الظلام . كان في موقفها سمة الانتظار . ومن جديد ، كما حدث في الزقاق ، تدفق ذهن جورج ويلارد بالكلمات ، وهمس بالكلمات وهو يضم الفتاة بقوة وسط الليل الراكد . همس « شبق ، شبق وليل ونساء » .

لم يدر جورج ويلارد ماذا دهاه في تلك الليلة فوق التل . بعد ذلك حين عاد إلى غرفته ، ودّ لو يبكي وكاد يجن غضباً وحقداً . كره بيل كاربنتر وتأكد إنه سيبقى على كرهه لها طوال حياته . فحين كان فوق التل أخذ الفتاة إلى إحدى الفُسَح المكشوفة المعشوشبة بين الشجيرات وركع إلى جانبها . وكما وقع في الأرض البور ، قرب

منازل العمال ، رفع يديه امتناناً للقدرة الجديدة المنبثقة داخله ، وانتظر المرأة لتتكلم وإذا بأد هاندبي يظهر .

لم يرغب الساقي بضرب الشاب ، الذي ظنه يعمل على انتزاع فتاته . رأى أن الضرب ليس ضرورياً ، وان في داخله قوة من أجل تحقيق هدفه دون استخدام قبضتيه . قبض على جورج من كتفيه وأنهضه على قدميه ، ثم حمله بيد واحدة وهو ينظر إلى بيل كاربنتر الجالسة على العشب . وبحركة واسعة سريعة من ذراعه رمى بالشاب وتركه ينبطح بعيداً بين الشجيرات وبدأ يستأسد على المرأة ، التي كانت قد نهضت واقفة ، قال بفظاظة « إنك لست مخاصة ، كنت على وشك أن أكف عن إزعاجك . لو لم أكن أحبك كثيراً لتركتك وشأنك » .

حملق جورج ويلارد المتمدد على يديه وركبتيه بين الشجيرات في المشهد الماثل أمامه وحاول جاهداً أن يفكر . واستعد للهجوم على الرجل الذي أهانه . وبدا له انه من الأفضل كثيراً أن يضرب على أن يقذف به جانباً باحتقار .

قفز المراسل الشاب ثلاث مرات على إد هاندبي ، وفي كل مرة كان الساقي يقذفه إلى مكانه بين الشجيرات ، بعد أن يقبض عليه من كتفيه . كان الرجل الأقوى مستعداً للاستمرار في تمرينه إلى مالانهاية لكن رأس جورج ويلارد ارتطم بجذور شجرة وهمد بلا حراك . بعد ذلك أمسك إد هاندبي بيل كاربنتر من ذراعها ومشى بها مبتعداً .

سمع جورج الرجل والمرأة يشقان طريقهما عبر الشجيرات ، وشعر بقلبه مريضاً وهو يزحف نازلا التل . كره نفسه وكره القدر الذي جلب له المهانة . وحين استعادت ذاكرته ساعة وقوفه وحيداً في الزقاق ارتبك وسكن منصتاً في الظلام ، علّه يسمع الصوت خارجه ، ودام وقتاً قصيراً جداً قبل أن يزوده بشجاعة جديدة في قلبه . حين قاده الطريق إلى البيت ثانية إلى الشارع ذي البيوت المنسّقة لم يحتمل المشهد وأخذ يركض ، أراد أن يبتعد عن المنطقة سريعاً التي بدت له الآن حقيرة مبتذلة .

*　　*



شاذ

من مجلسه على صندوق في السقيفة الخشبية المحشورة كنبات شائك على خلفية مخزن كاولي وابنه في واينسبرغ ، لم يتمكن إلمر كاولي ، الشريك الأصغر ، من أن يرى من خلال النافذة القذرة ما بداخل مطبعة صحيفة واينسبرغ إيغل . كان إلمر يضع رباطاً جديداً في حذائه. لم يدخل بسهولة واضطر لخلع الحذاء. وجلس والحذاء بيده ينظر إلى ثقب كبير في كعب أحد جوربيه . ثم رفع بصره سريعاً فرأى جورج ويلارد ، المراسل الصحفي الوحيد في واينسبرغ ، واقفاً وظهره إلى الباب الخلفي لمطبعة الايغل ، ينظر حوله بشرود . وهتف الشاب والحذاء في يده « حسن ، حسن ، ماذا بعد ! » وقفز واقفاً على قدميه وزحف مبتعداً عن النافذة .

زحف الاحمرار إلى وجه إلمر كاولي وبدأت يداه ترتجفان . في مخزن كاولي وابنه وقف بائع متجول يهودي قرب طاولة المحاسبة يتحدث إلى والده . تخيل إن باستطاعة المراسل أن يسمع مايقال وظن

انه حانق . كان واقفاً ، وفردة الحذاء لاتزال في يده ؛ في زاوية من السقيفة يطأ بقدم ترتدي جورباً على الأرض الخشبية .

لم يكن مخزن كاولي وابنه يطل على شارع واينسبرغ الرئيسي . كانت الواجهة تطل على شارع مومي ، وخلفه كان محل فويت لصنع العربات ، وسقيفة لإيواء أحصنة المزارعين . من أمام المخزن امتد زقاق يقابل خلفيات مخازن الشارع الرئيسي . وطول النهار تمر عربات أثقال صغيرة وعربات البضائع ، لجلب البضائع وأخذها ، رائحة غادية . المخزن بحد ذاته لايوصف . قال عنه ويل هندرسن ذات مرة انه يبيع كل شيء ولاشيء . وفي الواجهة قبالة شارع مومي برزت قطعة فحم بحجم برميل تفاح ، لتدل على إن طلبات الفحم قدأرسلت ، وإلى جانب كتلة الفحم وضعت ثلاثة أقراص من العسل صار لونها أسمرَ قذراً وهي في أطُرها الخشبية .

ظل العسل موجوداً في واجهة المخزن مدة ستة أشهر . كان معروضاً للبيع مثل مشجب المعاطف ، وأزرار حمالة واضحة ، وعلب من مانع الرشح ، وزجاجات لعلاج الروماتزم ، وبديل للقهوة يشارك العسل في رغبته الصبور لخدمة الجمهور .

وكان إيبنزر كاولي ، الذي وقف في المخزن ينصت إلى الثرثرة الملحاحة من الكلمات المنهمرة من بين شفتي البائع المتجول ، طويلاً وهزيلاً وبدا كأنه لم يغتسل . على عنقه الرفيع كان كيس دهن كبير مغطى جزء منه بلحيته الرمادية . كان يرتدي معطفاً من طراز الأمير

ألبرت . كان قد ابتاع المعطف ليكون رداء يوم العرس . وقبل أن يصبح تاجراً كان إيبنزر مزارعاً ، وبعد زواجه بات يرتدي معطف الأمير ألبرت للذهاب إلى الكنيسة أيام الآحاد وبعد ظهر أيام السبت حين يذهب إلى البلدة ليتاجر . حين باع المزرعة ليمتهن التجارة بات يواظب على ارتداء المعطف . وقد شحب لونه مع مرور الوقت وغطته بقع الزيت ، لكن إيبنزر كان دائماً يشعر إنه مكتمل الهندام ومستعد لمواجهة النهار في البلدة .

لم يكن إيبنزر التاجر سعيداً في حياته ولم يكن سعيداً حين كان مزارعاً . لكنه كان يعيش . كانت عائلته ، المكونة من ابنة تدعى مبيل وابنه ، تعيش معه في شقة فوق المخزن ولم تكن حياتهما مكلفة . لم تكن مصاعبه مالية . لكن تعاسته كتاجر كانت في خوفه كلما دخل عليه بائع متجول ليبيع سلعة . فيقف خلف طاولة الحساب ويهز برأسه. كان يخشى أولاً أن يرفض بعناد أن يشتري وبذا يخسر فرصة البيع ثانية ، ثانياً أن لايكون عنيداً بما يكفي ويشتري في لحظة ضعف ما لا يقدر على بيعه .

حين رأى إلمر كاولي ، في المخزن صباحاً ، جورج ويلارد واقفاً ينصت ولاشك عند الباب الخلفي لمطبعة صحيفة الايغل . ثار في الإبن شعور طالما سبب غضبه . وتكلم البائع الجوال وأنصت إيبنزر ، وكل شيء فيه يعبر عن القلق ، قال البائع الجوال « هاأنت ترى كيف يتم الأمر بسرعة » وقد عرض للبيع قطعة معدن صغيرة

مسطحة تستعمل كبديل لأزرارالقبة . وبيد واحدة فتح قبة قميصه بسرعة ثم عاد فثبتها . وقال بنبرة واهنة متملقة « أقول لك ، لقد تخلص الناس من كل ذاك العبث بأزرار القبة وأنت الآن مؤهل للربح الوفير من جراء هذا التغيير القادم . إنني أعينك وكيلاً وحيداً في هذه المدينة . خذ عشرين دزينة من هذه المثبتات ولن أرى مخزنك مرة أخرى . سأدع لك الميدان » .

مال البائع المتجول عبر الطاولة وربت باصبعه على صدر إيبنزر وألحّ « إنها فرصة لاتعوض وأريدك أن تنتهزها . لقد دلني صديق إلياك ، قال لي « قابل كاولي إنه رجل حيوي » .

صمت البائع المتجول وانتظر . أخرج كتاباً من جيبه وراح يدوّن الطلب . دخل إلمر كاولي إلى المخزن ولايزال الحذاء في يده ، وتجاوز الرجلين المنشغلين ، متوجهاً إلى خزانة عرض زجاجية قرب الباب الأمامي . تناول مسدساً رخيصاً من الخزانة وأخذ يلوح به . وزعق « إخرج من هنا ! لانريد أية مثبتات قبات هنا » وخطرت له فكرة « إنتبه ، إنني لاأهدد . لاأقول إني سأطلق النار ، ربما تناولت هذا المسدس لاتفرج عليه . ولكن يجمل بك أن تغادر المكان . نعم ياسيد ، أقصد ماأقول . يحسن بك أن تلملم أغراضك وترحل » .

ارتفع صوت ابن صاحب الدكان حتى الصراخ وتسلل خلف طاولة المحاسبة وأخذ يتقدم من الرجلين . هتف « يكاد يصيبنا الجنون في هذا

المكان ! لن نبتاع أي شيء حتى نبدأ بالبيع . سنكف عن أن نكون غريبي الأطوار ونستقبل أناساً يحملقون وينصتون . إخرج من هنا » .

رحل البائع ، بعد أن جمع نماذج المثبتات عن الطاولة مسرعاً ووضعها في حقيبة جلدية سوداء ، وفرّ . كان قصيراً وساقاه مقوستان كثيراً وكان يركض بارتباك . علقت الحقيبة السوداء في الباب فتعثر ووقع . بعد أن نهض عن الرصيف غمغم غاضباً « إنه مجنون ، مجنون ولاشك ! » وهرع مبتعداً .

في المخزن حملق إلمر كاولي ووالده كل في الآخر . والآن بعد أن زال السبب المباشر لغضبه ، طغى الارتباك على الصبي ، وأعلن «حسن ، كنت أقصد ماقلت . أعتقد أننا ظللنا شاذين وقتاً طويلاً » وتوجه إلى خزانة العرض وأعاد المسدس . وجلس على برميل أحضره وربط حذاءه الذي كان يحمله بيده . كان ينتظر كلمة تفاهم من والده ، ولكن حين تكلم إيبنزر عملت كلماته على إثارة غضب الأبن من جديد ، وترك الشاب المخزن دون أن يجيب ، وهرش التاجر لحيته الرمادية باصبعه الطويل القذر ، ثم نظر إلى إبنه وعلى وجهه النظرة المترددة القلقة نفسها التي قابل بها البائع المتجول . وقال بنعومة « سأنشّي ، حسن ، حسن ، سأغسل وأكوي وأنشّي ! »

خرج إلمر كاولي من واينسبرغ ومشى على الطريق الريفية الموازية لسكة الحديد . لم يدر أين يذهب أو ماذا يفعل . وفي حماية ممر عميق حيث يغوص الطريق ، بعد أن ينعطف بحدّة إلى اليمين ، تحت سكة

الحديد توقف وعاد الانفعال الذي كان سبب ثورته في المخزن يعبر عن نفسه ، هتف بصوت عال « لن أكون شاذاً — لن أكون إمرىء ينظر إليه الناس وينصتون . سأكون كغيري . سأبرهن هذا لجورج ويلارد . سيرى . سأبرهن له » .

وقف الشاب المنذهل وسط الطريق وحملق جهة البلدة . لم يكن يعرف المراسل جورج ويلارد ولم يضمر أية مشاعر خاصة حول الشاب الطويل الذي يجوب البلدة ليجمع أخبارها . لقد كان المراسل قد توصل ، أثناء تردده على المكتب ومطبعة الواينسبرغ ايغل ، إلى تأييد شيء ما في تفكير التاجر الشاب . ظن إن الشاب الذي يمر ويتردد على مخزن كاولي وابنه ويقف ليتحدث إلى الناس في الشارع لابد قد فكر به وربما كان يضحك منه . شعر إن جورج ويلارد ينتمي إلى نمط البلدة ، إنه كان يجسد خصائص البلدة ، يمثل في شخصه روح البلدة . وما كان لإلمر كاولي أن يصدق أن جورج ويلارد مرّ أيضاً بأيام بؤس ، وإنه نهش عقله ذاك الجوع الغامض والرغبات السرية اللامسمّاة . أما كان يمثل الرأي العام ، وأليس الرأي العام في واينسبرغ هو الذي حكم على آل كاولي بأنهم شاذون ؟ أما كان يمشي وهو يصفر ويضحك وهو يشق الشارع الرئيسي ؟ ألا يعمل المرء حين يقوم بضرب شخصيته على ضرب العدو الأعظم — ذاك الشيء المبتسم الذي يتابع طريقه — حكم واينسبرغ !

كان إلمر كاولي طويلاً بشكل غير عادي وذراعاه طويلتان

وقويتان . وشعره ، وحاجباه ، واللحية الملساء التي بدأت تنمو على ذقنه ، كانت جميعاً شاحبة حتى البياض . وأسنانه تنتأ من بين شفتيه وعيناه كانتا زرقاوين بزرقة الكرات التي لالون لها والمسمّاة « آغي » ويحملها صبية واينسبرغ في جيوبهم . كان إلمر يقطن واينسبرغ منذ عام ولم يتعرف على أي صديق . لقد فكر انه مقدر عليه أن يمضي في الحياة دون أصدقاء ، وكره الفكرة .

طرق الشاب الطويل الطريق متجهم الوجه ، ويداه محشورتان في جيبيّ بنطاله . كان الطقس بارداً والرياح قارسة ، ولكن سرعان ما بدأت الشمس تشرق وبات الطريق لزجاً طينياً . كانت أعالي حواف الطين المتجمد الذي يحدد الطريق قد بدأت تذوب وعلق الطين بحذاء إلمر ، وبردت قدماه . بعد أن قطع عدة أميال حاد عن الطريق ، وعبر حقلاً ودخل غابة . وفي الغابة جمع بعض الأغصان لاضرام النار ، وإلى جانب هذه النار جلس يتدفأ ، بائس الجسم والعقل .

جلس مدة ساعتين قرب النار . ثم نهض وتسلل بحذر بين دغل من الشجيرات ، اقترب من السور ونظر عبر الحقول إلى منزل ريفي صغير محاط بسقيفات واطئة . ارتسمت ابتسامة على شفتيه وبدأ يحرك ذراعيه مشيراً إلى رجل كان يقشر الذرة في أحد الحقول .

لقد كان التاجر الشاب ، في أوقات بؤسه ، يعود إلى المزرعة حيث قضى فترة طفولته وحيث ثمة مخلوق بشري آخر شعر إن بامكانه أن يفضي له بمكنونات نفسه . كان الرجل الموجود في المزرعة عجوزاً

نصف عاقل يدعى موك . كان ذات يوم يعمل لصالح إيبنزر كاولي وظل في المزرعة بعد أن بيعت. قطن العجوز في إحدى السقيفات غير المدهونة خلف المنزل وصار يقضي وقته متسكعاً بين الحقول .

عاش موك نصف المجنون سعيداً . آمن إيماناً طفولياً بذكاء الحيوانات التي شاركته في السقيفات ، وحين يكون وحيداً يقيم أحاديث طويلة مع الأبقار ، والخنازير ، بل حتى مع الدجاج المتجول في أرجاء باحة مخزن الحبوب . وهو الذي علّم مستخدمه السابق تعبير « أغسَل وأكوى » . حين يثار ويندهش بأي شيء يبتسم بغموض ويتمتم « سأغسَل وأكوى حسن ، حسن ، سأغسَل وأكوى وأُنشى » .

حين ترك العجوز شبه المجنون تقشير الذرة وأتى إلى الغابة لمقابلة إلمر كاولي ، لم يندهش ولا أهتم بشكل خاص بظهور الشاب المفاجيء. قدماه أيضاً كانتا باردتين وجلس على الجذع قرب النار ، ممتناً للحرارة وواضح اللامبالاة بكل ماقد يقوله إلمر .

تحدث إلمر برصانة وحرية مطلقة ، وهو يتحرك في المكان ويلوح بيديه . أعلن « أنت لاتفهم ماخطبي ولهذا لاتأبه ، أما بالنسبة لي فالأمر يختلف . أنظر كيف كان الأمر معي دائماً . أبي غريب الأطوار وأمي أيضاً . حتى الملابس التي كانت أمي ترتديها لم تكن مثل ملابس بقية الناس ، وانظر إلى ذاك المعطف الذي يخرج به أبي ليتجول في البلدة . هو أيضاً يظن انه مكتمل الهندام . لماذا لايشتري واحداً جديداً ؟

انه لايكلف كثيراً . سأقول لك لماذا . أن أبي لايعرف وحين كانت أمي لاتزال على قيد الحياة لم تكن تعرف أيضاً . ميبل مختلفة . انها تعرف كل شيء لكنها لاتبوح . مع ذلك ، أنا سأفعل ، لن يحملق بي أحد بعد اليوم . ولكن انظر هنا ياموك ، أبي لايدري إن مخزنه هناك في البلدة هو مجرد لخبطة شاذة ، وإنه لن يبيع أبداً الأشياء التي يشتريها . إنه لايدرك أي شيء . أحياناً ينتابه بعض القلق ويقول إن البضاعة غير مربحة فيذهب ويشتري غيرها . في الأمسيات يجلس قرب النار في الطابق العلوي ويقول إن التجارة ستدرّ الربح بعد فترة . إنه ليس قلقاً . إنه غريب الأطوار ، ليس لديه من المعرفة مايقلقه » .

وثار الشاب أكثر فأكثر ، ووقف ليحملق في الوجه الآخر غير المعبّر للنصف المجنون ، وصاح « هو لايعرف ولكن أناأعرف. أعرف جيداً جداً ، ولاأقوى على الاحتمال . لقد اختلف الأمر حين كنا نعيش هنا. كنت أعمل وفي الليل آوي إلى السريروأنام.لم أكن أرى الناس كثيراً وأفكر كما أفعل الآن . في المساء ، هناك في المدينة ، أذهب إلى مكتب البريد أو إلى المحطة لأرى القطار قادماً ، ولاأحد يخاطبني . كل واحد يقف في زاوية ويضحك ويتكلمون لكنهم لايقولون لي شيئاً . أذهب ولاأقول شيئاً . لاأستطيع » .

وأصبح غضب الشاب بلا حدود ، وصرخ رافعاً بصره إلى الأغصان العارية للاشجار « لن أحتمل هذا . لم أخلق لأحتمله » .

أثار وجه الرجل البليد الجالس على الجذع قرب النار جنونه ، والتفت المر ورماه بنظرة نيرانية وعاد وحدق في الطريق المؤدية إلى واينسبرغ . زعق « عُد إلى عملك ، ماذا ينفعني حديثي إليك ؟ » وخطرت له فكرة وانخفض صوته . تمتم « أنا أيضاً جبان ، هه ؟ هل تعرف لماذا أتيت كل هذه المسافة مشياً ؟ كان يجب أن أخبر أحداً وكنت أنت الوحيد الذي يمكنني الافضاء إليه لقد اصطدت شاذاً آخر ، في الواقع . هربت ، هذا مافعلت . لم أستطع مواجهة شخص مثل جورج ويلارد . كان عليّ أن آتي إليك . يجب أن أخبره وسأفعل » .

ارتفع صوته من جديد حتى الصراخ وتحركت ذراعاه « سأقول له ، لن أكون شاذاً . لايهمني ماذا يظنون ، لن أحتمل هذا » .

هرع إلمر كاولي مبتعداً عن الغابة مخلفاً نصف المجنون جالساً على الجذع أمام النار . وسرعان مانهض العجوز واجتاز السياج عائداً إلى عمله في الذرة . أعلن « سأغسل وأكوى وأنشّى . حسن ، حسن ، سأغسل وأكوى » . لقد كان موك مهتماً بالأمر . تابع طريقه إلى ممر إلى حقل تقف فيه بقرتان تقضمان عيدان القش . قال للأبقار « كان إلمر هنا ، إلمر مجنون . عليك أن تقفي خلف العيدان حيث لايراك . سيؤذي أحدهم ، سوف يفعل » .

في الثامنة من ذات المساء أدخل إلمر كاولي رأسه من الباب الأمامي لمكتب صحيفة واينسبرغ إيغل حيث كان جورج ويلارد جالساً يكتب ، وقد أرخى قبعته فوق عينيه وعلى وجهه نظرة تصميم متجهمة . قال ، وقد خطا إلى الداخل وأغلق الباب « تعال واخرج معي » . أبقى يده

على أكرة الباب وكأنه مستعد لمنع أي إنسان من الدخول .« هيا إخرج معي ، أريد أن أراك » .

مشى جورج ويلارد والمر كاولي في شارع واينسبرغ الرئيسي . كانت الأمسية باردة وقد ارتدى جورج ويلارد معطفاً جديداً وبدا أنيقاً جداً ومهندماً . أقحم يديه في جيبي المعطف ونظر نظرة تساؤل إلى رفيقه . طالما رغب في أن يصادق تاجراً شاباً ويعرف مايجول في رأسه . والآن هاقد أتيحت له الفرصة وهو مبتهج . فكّر « ترى بماذا يفكر ؟ ربما لديه خبر يفيد الصحيفة . لايمكن أن يكون حريقاً لأني لم أسمع جرس الحريق وليس ثمة من يركض » .

في شارع واينسبرغ الرئيسي ، في أمسية باردة من تشرين الثاني ، لم يظهر إلا بعض الناس وهم يسرعون الخطى محنيي الظهور ليصلوا إلى مدفأة خلف أحد المخازن . كانت واجهات المخازن مجمّدة والرياح تقرقع علامة التنك المعلقة فوق مدخل الدرج المؤدي إلى مكتب الدكتور ويلينغ . أمام بقالة هيرن ثمة سلة تفاح ومشجب مملوء بمكانس جديدة قائم على الرصيف . وقف المر كاولي وواجه جورج ويلارد . حاول أن يتكلم وبدأت ذراعاه تقفزان إلى أعلى وأسفل . وراح وجهه يتحرك حركات تشنجية . بدا كأنه على وشك الصراخ ، وهتف « أوه ، عد أنت ، لاتبق معي هنا . ليس لدي ماأقوله لك . لاأريد أن أراك أبداً » .

ظل التاجر الشاب الذاهل يجوب شوارع واينسبرغ لثلاث ساعات

وقد عماه الغضب ، ودفعه فشله لإعلان تصميمه على أن لايكون شاذاً . جثم إحساس الانحدار عليه مريراً ورغب في البكاء . بعد ساعات من الغمغمة العقيمة في وجه العدم المسيطر على الظهيرة وفشله في حضور المراسل الشاب ، وجد إنه لايرى أي بصيص لأمل لمستقبله .

ومن ثم خطرت له فكرة . وبدأ يرى وسط الظلام الذي يسربله شعاع ضوء . توجه إلى المخزن الذي بات مظلماً الآن ، حيث انتظرت شركة كاولي وابنه أكثر من سنة عبثاً لتادر التجارة ربحاً ، تسلل داخلاً بهدوء وتلمّس برميلاً يقف قرب المدفأة في المؤخرة . في البرميل تحت النشارة كان ثمة علبة تنك تحوي فراطة شركة كاولي وابنه . كل مساء يضع إيبنزر كاولي العلبة في البرميل حين يغلق المخزن ويصعد لينام ، وكان يقول لنفسه ، قاصداً اللصوص « لن يفكروا أبداً في مكان مهمل كهذا » .

أخذ إلمر عشرين دولاراً ، قطعتين من فئة العشرة دولارات ، من اللفّة التي تحوي حوالي الأربعمائة دولار ، وهي الفراطة المتبقية من بيع المزرعة . وأعاد العلبة مكانها تحت النشارة وخرج بهدوء إلى الباب الأمامي وعاد يجوب الشوارع .

لقد كان واضحاً له إن الفكرة التي خطرت له قد تضع حداً لكل تعاسته . قال لنفسه « سأرحل ، سأهرب من المنزل » كان يعرف إن قطار بضائع محلياً يمر من واينسبرغ عند منتصف الليل ويتوجه إلى كليفلاند ، ويصل عند الفجر . سيركب خفية . وحين يصل إلى

كليفلاند سيضيع بين الحشود وهناك سيحصل على عمل في أحد المحلات ويصادق بقية العمال ولن يعرفه أحد . عندئذ سيتمكن من التحدث والضحك . لن يكون شاذاً بعد ذلك وسيكون له أصدقاء . سيصبح للحياة دفء ومعنى كلما للآخرين .

راح الشاب الأخرق ، وهو يمشي في الشوارع ، يضحك على نفسه لأنه كان غاضباً وخائفاً قليلاً من جورج ويلارد . قرر أن يجري حديثه مع المراسل الشاب قبل مغادرة البلدة . أن يحدثه عن أمور ، وقد يتحداه ، يتحدى كل واينسبرغ من خلاله .

توجه إلمر إلى مكتب فندق ويلارد الجديد منتشياً بأمل جديد ، وقرع الباب بعنف . فتح له صبي ناعس العينين ينام على سرير خفيف في المكتب . لم يكن يأخذ أي راتب لكنه كان يتناول الطعام على مائدة الفندق ويحمل بفخر لقب «موظف ليلي» . تصرف إلمر بشجاعة أمام الصبي ، وبإلحاح.وأمره « أيقظه . قل له أن يأتي إلى المحطة . يجب أن أراه فأنا راحل على القطار المحلي . قل له أن يرتدي ثيابه ويأتي . ليس لدي متسع من الوقت » .

أنهى القطار مهمته في واينسبرغ وكان عمال القطار يربطون العربات ، ويلوحون بالمصابيح ويستعدون لمتابعة رحلتهم جهة الشرق . فرك جورج ويلارد عينيه وعاد لارتداء معطفه الجديد ، وهرع صوب رصيف المحطة وهو يضطرم بالفضول . قال « حسن ، هاأنا . ماذا تريد ؟ هل لديك ماتفضي به إلي . هه ؟ » .

حاول إلمر أن يشرح . بلّل شفتيه بلسانه ونظر إلى القطار الذي بدأ يزمجر ويسير على السكة . قال « حسن ، في الواقع » ثم فقد السيطرة على لسانه ، وتمتم بطريقة شبه مفككة « سأغسل وأكوى . سأغسل وأكوى وأنشّى » .

رقص إلمر كاولي غضباً وهو واقف بجانب القطار الهادر في الظلام. تناول رصيف المحطة . تقافزت الأضواء في الهواء وطفرت في كل اتجاه أمام عينيه . تناول فئتيّ العشرة دولارات من جيبه وحشرهما في يد جورج ويلارد . هتف « خذهما ، لاأريدهما . إعطيهما لأبي ، لقد سرقتهما » وبزمجرة غضب استدار وبدأ يسلخ الهواء بذراعيه الطويلين. وراح يضرب كأنه يقاوم ليتحرر من يدين تضمانه ، وهو يضرب جورج ويلارد مرة بعد مرة على صدره ، والعنق ، والفم . تدحرج المراسل الشاب على الرصيف شبه غائب عن الوعي وقد داخ بتأثير قوة الضرب العظيمة . قفز على متن القطار السائر وركض فوق سطوح العربات ، ثم قفز إلمر هابطاً إحدى العربات المسطحة وتمدد على وجهه ثم نظر خلفه محاولاً أن يرى الرجل الواقف في الظلام . وهاج به الكبرياء ، فهتف « لقد بيّنت له . أظنني بيّنت له انني لست شاذاً . أظنني أريته انني لست شاذاً » .

* * *

الكذبة غير المرويّة

كان راى بيرسن وهال وينترز عاملين مستخدمين في مزرعة تقع على مسافة ثلاثة أميال شمال واينسبرغ . في أوقات بعد ظهيرة أيام السبت يأتيان إلى البلدة ويتجولان في شوارعها مع رفاقهما من الريف .

كان راي هادئاً ، يميل إلى العصبية ، يبلغ الخمسين من العمر بلحية سمراء وكتفين مستديرين بسبب العمل الكثير والمضني . كان يختلف في طبيعته عن هال وينترز كأكثر ما يمكن لرجلين أن يختلفا .

كان راي رجلاً جاداً تماماً ، وله زوجة ضئيلة ، حادة التقاطيع ، وحادة الصوت أيضاً . عاش الاثنان ، مع نصف دزينة من الأولاد هزيلي الأرجل ، في بيت مزعزع ، إلى جانب جدول ماء يمر بالقرب من الطريق الخلفية لمزرعة ويلز حيث يعمل راي .

أما هال وينترز ، رفيقه في العمل ، فكان شاباً صغيراً . لم يكن من عائلة ند وينترز ، المحترمة جداً في واينسبرغ ، ولكن كان أحد

ثلاثة أبناء لعجوز يدعى ويندبيتر يملك منشرة قرب يونينفيل على بعد ستة أميال ، وكان ينظر إليه كل سكان واينسبرغ على انه عجوز فاسد لارجاء منه .

سيتذكر الناس الذين يقطنون الجزء الشمالي من أوهايو حيث تقع واينسبرغ العجوز ويندبيتر بسبب ميتته المأساوية الغريبة . فقد ثمل ذات أمسية في البلدة وراح يقود عربته متوجهاً إلى بيته في يونينفيل على طول خطوط سكة الحديد . أوقفه هنري براتنبرغ ، اللحام ، القاطن في مكان ماعلى الطريق ، عند طرف البلدة وأخبره انه لابد سيقابل القطار آتياً إليه لكن ويندبيتر لطمه بسوطه وتابع مسيره . حين صدمه القطار وقتله مع حصانيه رأى الحادثة مزارع وزوجته كانا يقودان عربتهما عائدين إلى بيتهما على طريق قريبة . قالا إن ويند بيتر العجوز كان واقفاً على مقعد عربته يكيل السباب واللعنات على القطار المندفع ، وانه كان يصرخ صراخاً عالياً من البهجة حين انطلقت الخيول ، التي جنّت من سيطه المغالي ، نحو الموت المؤكد . سيذكر الشبان أمثال الشاب جورج ويلارد وسث ريتشموند الحادثة بحيوية تامة . فبالرغم من أن كل إنسان في بلدتنا قال إن العجوز سيذهب رأساً إلى جهنم وإن المجتمع سيكون أفضل حالاً بدونه ، كانوا هم يخنون يقيناً سريّاً بأنه كان يعرف ماذا يفعل وقد اعجبوا بشجاعته المجنونة . إن لكل الشبان مواسم من الرغبة بأن يموتوا ميتة مجيدة بدل أن يكون الواحد منهم مجرد موظف في محل بقالة ويقضي حياة رتيبة .

لكن هذه ليست حكاية ويندبيترز وينترز ولاحكاية ابنه هال الذي يعمل في مزرعة ويلز مع راي بيرسن . إنها قصة راي . مع ذلك ، من الضروري التحدث قليلاً عن الشاب هال حتى تدخل في الجو العام .

كان هال شاباً سيئاً . كلهم قال هذا . في عائلتهم كان هناك ثلاثة ذكور ، جون ، هال وأدوارد ، جميعهم عريضو الأكتاف ضخام مثل ويندبيتر العجوز وجميعهم مصارعون وعشاق النساء ، وبشكل عام سيئوون .

وكان هال أسوأهم ودائماً منخرطاً في عمل شيطاني ما . ذات مرة سرق مجموعة ألواح خشب من منشرة والده وباعها في واينسبرغ . وبالنقود اشترى بذلة من النوع الرخيص الزاهي اللون . وشرب حتى سكر وحين عاد والده وهو يهذي وسط البلدة باحثاً عنه ، تقابلا وتقاتلا بالأيدي في الشارع الرئيسي وقبض عليهما ووضعا في زنزانة واحدة .

ذهب هال ليعمل في مزرعة ويلز لأنه كان هناك معلمة في مدرسة ريفية استحوذت على خياله . لم يكن يتعدى الثانية والعشرين من العمر عندئذ لكنه كان قد انخرط في علاقة أو اثنتين مما كان يسمّى في واينسبرغ بـ « مآزق النساء » . وكل من سمع بافتتانه بمعلمة المدرسة تأكد من أن نتيجتها ستكون وخيمة : كان يقال « سيكتفي بتوريطها ، سترون » .

إذن قلنا إن هذين الرجلين ، راي وهال ، كانا يعملان في حقل

ذات يوم في أواخر شهر تشرين الأول . كانا يقشران الذرة وأحياناً يلقي أحدهما كلمة فيضحكان . ثم صمتا . وكانت يدا راي وهو الأكثر حساسية ودائماً يولي الأمور اهماماً أكبر ، قد تشققتا وتسببتا في إيلامه . وضعهما في جيبيّ معطفه وراح يمد نظره عبر الحقول . كان يطغى عليه مزاج حزين ، ذاهل ويتأثر بجمال الريف . لو انك تعرف ريف واينسبرغ في الخريف وكيف ترش التلال الواطئة بتدرجات اللون الأصفر والأحمر لفهمت شعوره . وأخذ يفكر بوقت سابق ، قبل وقت طويل حين كان صغيراً يعيش مع والده ، ثم خبازاً في واينسبرغ ، وكيف كان يتجول في تلك الأيام قاصداً الغابة ليجمع الجوز ، ويصطاد الأرانب ، أو فقط يمشي بلا هدف ويدخن الغليون . وقد حدث زواجه إبان يوم من التجوال . فقد أقنع فتاة تعمل في متجر والده بالذهاب معه وقد حدث أمر . كان يفكر في بعد ظهيرة ذات اليوم وكيف أثّر في كل حياته حين استيقظت فيه روح الاحتجاج. كان قد نسي وجود هال وراح يتمتم بالكلمات ، وقال بصوت خفيض « لقد خدعني الله ، نعم هذا ماحدث ، خدعتني الحياة وجعلتني أبله » .

ارتفع صوت هال ويتزز وكأنه قد فهم أفكاره « حسن ، هل كان الأمر يستحق العناء ؟ ماذا فيه ، هه ؟ ماذا في الزواج وكل ذلك ؟ » سأل ثم ضحك . حاول هال أن يتابع الضحك لكنه هو أيضاً استحوذه

مزاج رصين ، وبدأ يتكلم برصانة « هل يجب أن يفعله المرء ؟ هل يجب أن يقيَّد ويُحزم ويُقاد عبر الحياة كحصان ؟ » .

لم ينتظر هال جواباً بل قفز واقفاً على قدميه وأخذ يسير رائحاً غادياً بين أكوام الذرة . كان يزداد ثورة أكثر فأكثر . وفجأة انحنى إلى أسفل والتقط طرف كوز ذرة ورماه إلى السياج ، وقال « لقد أوقعت نل غنثر في ورطة ، أقول لك ، ولكن إياك أن تفوه بكلمة » .

نهض راي بيرسن ووقف يحدق به . كان أقصر من هال بحوالي قدم ، وحين تقدم أصغرهما ووضع كلتا يديه على كتفي الأكبر كان جديراً أن يصوّرا . وقفا وسط الحقل الخالي وأرتال الذرة تقف هادئة خلفهما والتلال الصفراء والحمراء تبدو عن بعد ، وتحولا من مجرد عاملين لامبالين إلى رجلين يبث كل منهما الحياة في الآخر . شعر هال بهذا وبما أن هذه هي طريقته ضحك وقال بفظاظة « حسن ، ياوالدي العجوز ، هيا ، إنصحني . لقد ورّطت نل . ربما تكون قد مررت بالتجربة نفسها . أعرف أن ماسيقوله أي إنسان هو أفضل مايمكن عمله ، ولكن مارأيك ؟ هل أتزوج واستقر ؟ هل أسلّم نفسي للنير حتى أهرم كحصان عجوز ؟ أنت تعرفني ياراي . لايمكن لأحد أن يحطمني ولكني أستطيع تحطيم نفسي . هل أفعل أو أقول لنيل أن تذهب إلى الشيطان ؟ هيا ، قل لي أنت . مهما قلت ياراي ، سأنفذ » .

لم يتمكن راي من الاجابة . ترك يديّ هال واستدار وتوجه رأساً إلى مخزن الحبوب . كان حساساً وطفرت الدموع من عينيه . كان

يعرف انه لايوجد سوى شيء واحد يقوله لهال وينترز . ابن ويندبيتر العجوز ، شيء واحد ووحيد يتوافق مع كل تجارب ومعتقدات الناس ، أما فيما يخص حياته فلم يستطع أن يقول مايعلم إن عليه قوله .

في الرابعة والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم كان راي يتمتم وهو يمشي في الفناء حين بدت زوجته آتية على الطريق بمحاذاة النهير وراحت تناديه. بعد حديثه مع هال لم يعد إلى حقل الذرة بل أخذ يقوم ببعض الأعمال حول المخزن . كان قد أنهى لتوه الأعمال الليلية الروتينية ورأى هال متهندماً ومستعداً لقضاء ليلة صاخبة في البلدة ، وخرج من البيت الريفي وغاب في الطريق . مشى مجهداً خلف زوجته في الطريق إلى بيته ، وهو ينظر إلى الأرض ويفكر . لم يفهم ماذا حل بحياته . إنه كلما رفع عينيه ورأى جمال الريف تحت النور الغارب يرغب بعمل شيء لم يقم به من قبل أبداً ، أن يصرخ أو يزعق أو يضرب زوجته بكلتا قبضتيه أو شيء يعادله في غرابته ورعبه . تابع مسيره على الدرب يهرش رأسه محاولاً أن يفهم . وألقى نظرة قاسية إلى ظهر زوجته لكنها بدت مطمئنة .

لم تكن تطلب منه سوى أن يذهب إلى البلدة ليبتاع البقالة ، وما إن تخبره بما تريد حتى تبدأ بتوبيخه ، فتقول « أنت دائماً تهذي . الآن أريدك أن تسرع ، لايوجد في البيت أي شيء العشاء وعليك أن تذهب إلى البلدة وتعود على وجه السرعة » .

دخل راي إلى البيت وتناول المعطف من مشجب خلف الباب . كان ممزقاً عند الجيوب وكانت القبة لامعة . دخلت زوجته غرفة النوم

وعادت التو وهي تحمل في يدٍ ثوباً متسخاً ، وفي الأخرى ثلاثة دولارات فضية ، وبكى طفل في مكان ما من المنزل بمرارة ونهض كلب كان نائماً قرب المدفأة وتثاءب.ومن جديد أنّبته زوجته ، سألت « سيظل الأولاد يبكون ويبكون . لماذا تهذر دائماً ؟ » .

خرج راي من البيت واجتاز السياج إلى الحقل . كان الظلام يتنامى والمشهد الممتد أمامه يزداد جمالاً . كانت جميع التلال الواطئة مغسولة بالألوان بل وكانت مجموعات من الشجيرات في الزوايا قرب السياج تنتفض بالجمال . بدا العالم كله لراي بيرسن يعج بشيء خاص أحس به نفسه حين وقف مع هال في حقل الذرة ينظر واحدهما في عينيّ الآخر .

لقد كان جمال الريف المحيط بواينسبرغ يغمر راي في تلك الأمسية الخريفية . هذا كل مايمكن أن يقال عنها . لم يقدر على احتمالها . وفجأة نسي كل شيء عن كونه مجرد عامل ريفي عجوز هادىء ، وبعد أن رمى بالمعطف الممزق راح يركض عبر الحقل . وبينما هو يركض كان يصرخ صرخات احتجاج ضد حياته ، والحياة كلها ، وكل مايجعل الحياة بشعة . هتف في الفيافي الخالية المترامية حوله « لم يكن هناك وعد . لم أعد زوجتي ميني بأي شيء وهال لم يعد نل بشيء. أعرف أنه لم يفعل . هي رافقته إلى الغابة ، هكذا أرادت . أرادت مأأراده هو . لماذا أدفع الثمن ؟ لماذا يدفع هال ؟ لماذا يدفع أي إنسان ؟ لاأريد لهال أن يغدو عجوزاً متهدماً . سأخبره . لن أدع الأمور تسير

على هذا المنوال . سألحق بهال قبل أن يبلغ البلدة وسأخبره » .

ركض راي مرتبكاً ومرة تعثر ووقع . وظل يقول في عقله ، « يجب أن ألحق بهال وأخبره » ورغم أن أنفاسه ترددت مسرعة ظل يسرع أكثر فأكثر . وأثناء الركض كان يفكر بأشياء لم تخطر على بال منذ سنين طويلة — كيف إنه وقت زواجه كان قد خطّط للذهاب إلى الغرب ، إلى عمه في بورتلاند ، في أوغون — وكيف انه لم يرغب في أن يكون عاملاً في مزرعة ، بل فكر أن يتجه غرباً إلى البحر ويصبح بحاراً أو يحصل على عمل في مزرعة كبيرة ويركب الحصان إلى المدن الغربية ، أن يصرخ ويضحك ويوقظ الناس في بيوتهم بصيحاته الوحشية . ثم تذكر أثناء الركض طفولته وشعر في خياله بأيديهم تتشبث به . كل أفكاره عن نفسه كانت مسخرة للتفكير في هال وتخيل أن الأطفال أيضاً يتشبثون بالشاب ، وصاح « إنهم صُدَف الحياة ياهال ، إنهم ليسوا لي أو لك ، لاعلاقة لي بهم » .

بدأ الظلام يمتد فوق الحقول وراي بيرسن يركض ويحث خطاه . وتحولت أنفاسه إلى نشيج قصير . حين وصل إلى السياج الواقع عند طرف الطريق وواجه هال وينترز ، ـمل الهندام يدخن غليوناً وهو يمشي مرحاً ، لم يقو على إجباره بما فكر به وما أراده

لقد فقد راي بيرسن أعصابه وهذه في الحقيقة هي نهاية قصة ما وقع له . كان الظلام قد ساد حين وصل إلى السياج فوضع يديه على أعلى قطعة منه ووقف يحملق . قفز هال وينترز ليجتاز خندقاً وحين

اقترب من راي وضع يديه في جيبيه وضحك . وبدا انه نسي ما حصل في حقل الذرة وحين رفع يده القوية وأمسك بماركة معطف راي ، هز الرجل العجوز كما لو انه يهز كلباً أساء التصرف » .

قال « إذن جئت لتحدثني ، هه ؟ حسن ، لاتتعب نفسك في قول أي شيء . لست جباناً وقد حزمت أمري » ضحك ثانية وقفز عائداً عبر الخندق . ثم قال « نل ليست بلهاء . انها لم تطلب أن أتزوجها . أنا أريد الزواج منها . أريد أن أستقر وأنجب أطفالاً » .

ضحك راي بيرسن أيضاً . لقد شعر كأنه يضحك على نفسه وعلى العالم أجمع .

بعد أن اختفت قامة هال وينترز عن الأنظار في الغروب المنتشر فوق الطريق المؤدية إلى واينسبرغ ، عاد ومشى ببطء مجتازاً الحقول إلى حيث ترك معطفه الممزق . ولابد أن بعض الذكريات عن أمسيات ممتعة قضاها مع الأولاد النحيلي الأرجل ، في البيت المتداعي قرب النهر ، قد خطرت على باله ، لأنه تمتم ببعض الكلمات ، وقال بروّية « ان الأمر سواء ، كنت سأكذب عليه في كل الأحوال » واختفت قامته هو أيضاً داخل عتمة الحقول .



شراب

قدم توم فوستر إلى واينسبرغ من سينسيناتي حين كان لايزال صغيراً ويستطيع أن يتأثر بكثير من الإنطباعات . كانت جدته قد تربت في مزرعة مجاورة للبلدة ، ولما كانت فتاة صغيرة التحقت بمدرسة واينسبرغ وقت كانت واينسبرغ قرية مؤلفة من إثني عشر أو خمسة عشر منزلاً مجتمعاً حول متجر عام في الترنيون بايك .

يالها من حياة عاشتها تلك العجوز منذ أن رحلت عن القرية الحدودية ، وكم كانت تلك العجوز الضئيلة قوية ، قادرة ! فقد زارت كنساس ، وكندا ، ومدينة نيويورك ، في جولة مع زوجها الميكانيكي ، قبل أن يموت . بعد ذلك ذهبت لتستقر مع ابنتها ، وكانت هذه الأخيرة متزوجة بدورها من ميكانيكي وتقطن كفنجتن ، بكنتكي ، على الضفة الأخرى النهر المقابلة لسينسيناتي .

ومن ثم بدأت السنون العصيبة بالنسبة لجدة توم فوستر . فأولاً

قُتِيل صهرها على يد رجل بوليس أثناء أحد الاضرابات ، ثم مرضت والدة توم وماتت أيضاً . وكانت الجدة قد أدخرت مبلغاً صغيراً من المال ، لكنها انفقته على مرض ابنتها وعلى نفقة الجنازتين . وأضحت عجوزاً شبه متهدمة عاملة ، تعيش مع حفيدها فوق دكان للسلع المستعملة ، في شارع جانبي من سينسيناتي . أمضت خمس سنين تقشط الأرضيات في بناء حكومي ، ثم حصلت على عمل كغاسلة صحون في مطعم . وتشوه منظر يديها . حين كانت تتناول ممسحة أو يد مكنسة تبدو يداها كأنهما ساقا كرمة زاحفة عجوز يابستان تتشبثان بشجرة .

وعادت العجوز إلى واينسبرغ حالما سنحت لها فرصة العودة .
فذات أمسية في طريقها إلى البيت من العمل ، عثرت على محفظة تحوي على سبعة وثلاثين دولاراً ، مما أفرج حالها . كانت الرحلة بمثابة مغامرة كبيرة بالنسبة للصبي . كانت الساعة قد تجاوزت السابعة ليلاً حين عادت الجدة إلى البيت وهي تشد قبضتها على المحفظة بيديها العجوزين ، وكانت شديدة التأثر حتى عجزت عن الكلام . وألحت على مغادرة سينسيناتي في تلك الليلة ، قائلة انهما إذا بقيا حتى الصباح فلا بد أن يعثر عليهما صاحب النقود ويسبب لهما المتاعب . واضطر توم ، البالغ الثالثة عشر من العمر ، أن يمشي إلى المحطة مجهداً مع العجوز ، حاملاً كل ممتلكاتهما الأرضية ملفوفة بملاءة مهترئة ومدلاة على ظهره.ومشت العجوز الى جواره تحثه على الاسراع وقد التوى

فمها العجوز الأدرد بحركة عصبية . حل التعب بتوم وأراد أن ينزل الحزمة عند اجتيازهما للشارع ، فرفعتها له بسرعة ولولم يرتدع لعتلتها على ظهرها بنفسها . حين استقلا القطار وخرج بهما من المدينة كان ابتهاجها يعادل ابتهاج فتاة صغيرة ، وراحت تحدث الصبي الذي لم يسمعها تتكلم بهذه الطريقة من قبل .

وطوال الليل أثناء مسير القطار ، أخذت الجدة تقص على توم حكايا من واينسبرغ وكيف انه سيستمتع بحياة يعمل فيها في الحقول ويصطاد الحيوانات البرية في الغابة . ولم تصدق ان القرية الصغيرة التي عرفتها قبلها بخمسين سنة قد نمت وأصبحت بلدة مزدهرة أثناء غيابها ، وفي الصباح حين وصل القطار إلى واينسبرغ رفضت أن تنزل وقالت « إنها ليست كما ظننت . قد يكون الأمر صعباً عليك هنا » . وتابع القطار طريقه ووقف الاثنان مرتبكين ، لايعلمان اين يتجهان ، وأمامهما البرت لونغوورث ، المسؤول عن الأمتعة .

لكن الأمور مع توم فوستر سارت على مايرام ، فهو من النوع الذي ينجح في أي مكان . استخدمت السيدة وايت ، زوجة صاحب البنك ، جدته لتعمل في المطبخ وحصل هو على عمل صبي اسطبل في مخزن حبوب صاحب البنك ، الآجري الجديد .

كان من الصعب الحصول على خدم في واينسبرغ . وكانت المرأة التي تحتاج إلى مساعدة في بيتها تستخدم « فتاة بالأجرة » تصر على الجلوس على المائدة مع العائلة . وسئمت السيدة وايت فتيات الأجرة

وانتهزت الفرصة وتمسكت بالعجوز القادمة من المدينة . وفرشت للصبي مكاناً يأوي إليه في الطابق العلوي من المخزن . وشرحت السبب لزوجها ، قالت « يمكنه أن يقص العشب ويلبي متطلباتنا حين لاتحتاج الأحصنة لعناية » .

كان توم فوستر ضئيل الجسم بالنسبة لسنه ، رأسه كبير ومغطى بشعر قاس أسود منتصب يبرز ضخامة رأسه . صوته كان أنعم مايمكن سماعه من أصوات ، وكان هو نفسه لطيفاً جداً وهادئاً بحيث انه غاص في حياة البلدة دون أن يلفت أدنى قدر من الانتباه .

قد يتساءل المرء من أين حصل توم فوستر على رقته . ففي سينسيناتي كان يعيش في حي تجوس شوارعه مجموعات من الصبية الخشنين ، وخلال سنوات تكوّنه كان يختلط بهؤلاء الصبية . وعمل لفترة كساعي في شركة تلغراف يسلم الرسائل في حي تكثر فيه بيوت البغاء . كانت النسوة تعرف توم وأحببنه والصبية الخشنون أحبوه أيضاً .

انه لم يعمل أبداً على تأكيد ذاته ، مما كان يساعده على الهرب . لقد ظل بطريقة غريبة واقفاً في ظل جدار الحياة ، وقد قدّر له أن يبقى في الظل . وقد رأى الرجال والنساء في بيوت اللذة ، وأحس بممارساتهم العرضية والمريعة للحب . رأى صبياناً يتقاتلون وأنصت إلى حكاياهم عن الكفاح والسكر ، بثبات ، وبلا للغرابة ، دون أن يتأثر .

وذات مرة سرق توم . حدث ذلك حين كان لايزال يعيش في المدينة . كانت جدته مريضة وكان هو دون عمل . ولم يبق في البيت

مايؤكل ، فذهب إلى دكان بيع عدّة الأحصنة الكائن في شارع جانبي وسرق دولاراً وخمسة وسبعين سنتاً من درج الفراطة .

كان يدير محل بيع عدة الأحصنة رجل عجوز له شارب طويل ، ورأى الصبي يتلكأ في المكان ، ولم يشك في شيء . وحين خرج إلى الشارع ليتحدث إلى سائق خيل فتح توم درج الفراطة وأخذ النقود ثم ذهب . وقبض عليه بعد ذلك وأنهت جدته المسألة بأن صارت تأتي مرتين في الأسبوع على مدى شهر وتنظف الدكان . خجل الصبي ، لكنه كان سعيداً أيضاً . وقال لجدته « لابأس ان أشعر بالخجل وأفهم أشياء جديدة » . ولم تفهم ماذا قصد ، لكنها كانت تحبه ولم يهمها إن فهمت أم لا .

أمضى توم فوستر عاماً في اسطبل صاحب البنك ثم فقد عمله هناك . فهو لم يولّ الجياد عناية جيدة وكان مصدراً مستمراً لارباك زوجة صاحب البنك . قالت له أن يقص عشب المرج فنسي ، وكانت ترسله إلى المتجر أو إلى مكتب البريد فلا يعود وينضم إلى مجموعة من الشبان والصبية ويقضي فترة بعد الظهر معهم ، يتسكع ، ينصت إليهم وأحياناً ، حين يُخاطَب يقول بضع كلمات . وكما كان الحال في المدينة في بيوت البغاء ومع الصبية المشاكسين في جوسهم الشوارع ليلاً ، كذلك في واينسبرغ بين أهلها . لقد كانت لديه القدرة على أن يكون جزءاً من الحياة وفي الوقت نفسه منفصلاً عنها .

بعد أن فقد توم عمله في بيت بانكروايت لم يعد يعيش مع جدته ، رغم إنها غالباً ما كانت تأتي لزيارته . استأجر غرفة في مؤخر بناء خشبي صغير يملكه العجوز روفوس وايتنغ . كان البيت قائماً في شارع ديوين ، ليس بعيداً عن الشارع الرئيسي ، وقد استخدم لسنوات عديدة كمكتب محاماة من قبل رجل عجوز ، وقد بات من الضعف وكثرة النسيان مامنعه من ممارسة مهنته لكنه لم يدرك مدى عجزه . أحب توم وأعطاه الغرفة مقابل دولار في الشهر . بعد الظهر ، بعد أن يذهب المحامي إلى بيته ، يغدو المكان ملكاً للصبي يقضي فيه الوقت مستلق على الأرض قرب المدفأة ويفكر بالأشياء . في المساء تأتي إليه جدته وتجلس على كرسي المحامي لتدخن الغليون بينما يظل توم صامتاً ، كما يفعل عادة في حضور أي إنسان .

وغالباً ما كانت العجوز تتكلم بحماسة عظيمة . أحياناً تغضب من حادث ما وقع في منزل صاحب البنك وتقضي ساعات تنثر توبيخاتها . واشترت من جيبها الخاص ممسحة وراحت تكشط مكتب المحامي باستمرار . وبعد أن يغدو نظيفاً تماماً ويفوح نظافة تشعل غليونها الطيني وتبدأ بتدخينه مع توم ، وتقول للصبي المستلقي على الأرض إلى جانب كرسيها « حين ستحين ساعة موتك سأموت أنا أيضاً » .

استمتع توم فوستر بالحياة في واينسبرغ ، وتولى أعمالاً غريبة ، فقطع الأخشاب من أجل مدافىء المطابخ ، وقص العشب أمام المنازل . وفي أواخر أيار وبداية حزيران قطف التوت البري في الحقول . كان

يتوفر لديه وقت التسكع وكان يحب هذا . كان بانكر وايت قد أعطاه معطفاً قديماً كبيراً جداً عليه ، لكن جدته قصت منه ، وكان عنده أيضاً معطف واق من المطر ، حصل عليه من المصدر نفسه ، وكان مزيناً بالفرو ، ومهترىء في بعض الأماكن ، لكن المعطف كان دافئاً وفي الشتاء ينام توم فيه . كان يظن أن طريقته في العيش جيدة جداً وكان سعيداً ورضي بأسلوب الحياة الذي هيأته له واينسبرغ .

لقد كان توم فوستر يسعد بأتفه الأشياء الصغيرة ، ولهذا ، كما أظن ، أحبه الناس . وكان محل بقالية هيرن يحمص القهوة في بعد ظهيرة يوم الجمعة ، استعداداً لزحمة المبيعات يوم السبت . ويغزو العبق القوي الشارع الرئيسي الأسفل ، ثم يظهر توم فوستر ويجلس على صندوق في مؤخرة المتجر . ويظل في مكانه مدة ساعة دون أن يبدي حركة ، وقد امتلأ كيانه بالعبق اللذيذ الذي يجعله شبه سكران بالسعادة . ويقول برفق «كم أحبها . إنها تجعلني أفكر في أشياء بعيدة ، بأماكن وأشياء تشبهها» .

وذات مساء شرب توم فوستر حتى ثمل . حدث هذا بطريقة غريبة . فهو لم يكن قد شرب مرة من قبل ، ولم يتناول . ي أي شراب مسكر طوال حياته ، ولكن في ذلك الوقت أحس بحاجة للشرب وهكذا ذهب وفعلها .

في سينسيناتي ، حيث كان يعيش ، كان توم قد اكتشف أموراً كثيرة ، حول البشاعة والجريمة والشهوة . والحقيقة انه عرف أشياء

أخرى وأكثر مما عرف أي شخص آخر في واينسبرغ . ومسألة الجنس بشكل خاص تعرف عليها بطريقة مريعة تماماً وتركت أثراً عميقاً في تفكيره . وفكر بعد أن رأى النسوة واقفات أمام البيوت القذرة في الليالي الباردة والنظرة البادية في عيون الرجال الذين يتوقفون ليتكلموا معهن ، ان يطرح مسألة الجنس كأنها من حياته . وقد أغرته امرأة من الحي ذات مرة ورافقها إلى إحدى الغرف . ولم تبارح ذاكرته رائحة الغرفة ولا النظرة الشبقة الطافحة من عيني المرأة . شعر بالقرف بطريقة رهيبة وترك الأمر ندبة دائمة على روحه . وكان طالما قد ظن أن النساء مخلوقات بريئة كل البراءة ، وأقرب شبهاً بجدته ، ولكن بعد تلك التجربة في الغرفة ألغي النساء من تفكيره . كانت طبيعته رقيقة إلى حد انه لم يكن يستطيع أن يحقد على أي شيء ، ولما لم يفهم السبب قرر أن يلجأ إلى النسيان .

وظل توم ناسياً إلى أن قدم إلى واينسبرغ . فبعد أن أمضى سنتين هناك بدأ شيء يتحرك داخله . لقد رأى الشبان في كل مكان يمارسون الحب وكان هو نفسه شاباً . وقبل أن يعي ماحدث له كان قد وقع في العشق بدوره . ـب هيلين وايت ، ابنة الرجل الذي عمل لحسابه ، ووجد نفسه يفكر بها ليلاً .

وكانت هذه مشكلة لتوم عالجها بطريقته الخاصة . ترك نفسه يفكر بهيلين وايت كلما لاحت قامتها في مخيلته ولم يهتم إلا بشكل أفكاره . كان يخوض قتالاً ، قتالاً هادئاً حثيثاً صغيراً خاصاً به ، ليحافظ على

رغباته ضمن المجال الذي رأى انه يخصها ، ولكن بشكل عام كان يشعر بالانتصار .

ثم حلت الأمسية الربيعية التي ثمل فيها . في تلك الليلة كان توم عنيفاً . كأنه وعل الغاب الذي أكل من عشب يثير الجنون . وقد بدأ الأمر ، وتطور ، وانتهى في ليلة واحدة ، ويمكنك التأكد من انه لم يصل أحد في واينسبرغ إلى حال أسوأ مما وصل إليه حال توم .

فأولاً كانت الأمسية من النوع الذي يُسكر الطبيعة الحساسة . كانت الأشجار النامية على طول الشوارع المأهولة قد ارتدت حديثاً ثوباً من الأوراق الخضراء، وفي الحدائق الكائنة في خلفيات البيوت كان الرجال منشغلين في تهيئة مساكب الخضروات ، وقد غمر الجو صمت تام من الترقب يثير الدم في العروق .

ترك توم غرفته في شارع دوين حالما بدأ الليل الشاب يعلن عن نفسه. فمشى أولاً متنقلاً بين الشوارع ، بخطى ناعمة هادئة ، مقلباً أفكاراً حاول أن يصيغها في كلمات . قال إن هيلين وايت هي لهب يتراقص في الهواء وانه هو شجرة صغيرة بلا أوراق تشرئب بقوة في وجه السماء . ثم قال انها ريح ، ريح قوية عاتية ، آتية من ظلام بحر عاصف وانه قارب تركه صياد على شاطىء البحر .

أسعدت تلك الفكرة الفتى فسار متمهلاً يعبث بها . دخل الشارع الرئيسي وجلس على حاجز حجري أمام دكان واكر للتبغ . ظل يتمشى متسكعاً لساعة وهو ينصت إلى أحاديث الرجال ، لكنها لم تثر

انتباهه كثيراً وانساب مبتعداً . ثم قرر أن يسكر ودخل حانة ويلي وابتاع قنينة ويسكي . وخرج قاصداً خارج البلدة ، وقد وضع القنينة في جيبه ، يبغي أن يكون وحيداً ليقلّب المزيد من الأفكار وليشرب المزيد من الويسكي .

سكر توم وهو جالس على طرف أرض حديثة الاخضرار إلى جانب الطريق على بعد حوالي ميل شمالي البلدة . أمامه امتدت طريق بيضاء وخلفه كان بستان تفاح في ذروة إزهاره . شرب جرعة من القنينة ومن ثم استلقى على العشب . أخذ يفكر بأوقات الصباح في واينسبرغ وكيف كانت أحجار درب العربات في بيت بانكر وايت مبللة بالندى وتتلألأ في نور الصباح . فكّر في الأمسيات في المخزن حين تمطر وكان يستلقي يقظاً ينصت إلى قرع حبات المطر ويشم عبق الجياد والتبن . ثم راح يفكر في العاصفة التي مرت تهدر في واينسبرغ قبل أيام واستعاد ، عائداً بذهنه ، الليلة التي قضاها في القطار مع جدته وهما قادمان من سينسيناتي . وتذكر بجدّة كم بدا غريباً أن يجلس المرء هادئاً في المقصورة ويشعر بقوة المحرك تهز القطار وهو يشق طريقه في الليل .

سكر توم خلال وقت قصير . واستمر في الشرب من القنينة بينما الأفكار تتوارد على ذهنه ولما أخذ رأسه يدور نهض وراح يمشي على الطريق الخارجية من واينسبرغ . كان هناك جسر على الطريق الخارجة من واينسبرغ شمالي بحيرة أري وتابع الفتى الثمل طريقه إلى الجسر .

وهناك جلس . حاول أن يشرب ثانية ولكن حين انتزع السدادة شعر بالقرف وأعادها مكانها . كان رأسه يهتز خلفاً وأماماً فجلس على حجر قريب من الجسر وتنهد . خيل إليه إن رأسه يدور كدولاب الهواء ثم ينطلق في الفضاء وأخذت ذراعاه وساقاه تتخبطان دون أرادته .

عاد توم إلى البلدة في الحادية عشرة . عثر عليه جورج ويلارد يتجول فأدخله إلى مطبعة صحيفة الايغل ، ثم انتابه الخوف من أن يثير الفتى فوضى في المكان ، فساعده للذهاب إلى الزقاق .

انزعج المراسل لأمر توم فوستر ، وأخذ الفتى السكران يتحدث عن هيلين وايت وقال انه كان معها على شاطىء البحر وانه مارس الحب معها . وكان جورج ويلارد قد رأى هيلين وايت تمشي في الشارع مع أبيها أثناء المساء وقرر أن توم غائب عن الوعي . ومن جديد اضطربت عاطفة كان يكنّها لهيلين وايت في قلبه ، وغضب . قال « الآن كف عن هذا . لاأسمح أن يُقحَم اسم هيلين وايت في هذا الأمر . لن أسمح بهذا » وبدأ يهز كتفي توم ، محاولاً أن يفهمه ، وقال من جديد « كفى » .

أمضى الشابان ثلاث ساعات في اجتماعهما الغريب ، في المطبعة . وبعد أن استعاد القليل من وعيه أخذ جورج توم ليتمشيا ، ووجدا منطقة الريف ثم جلسا على جذع شجرة عند طرف الغابة . كان ثمة شيء في سكون الليل قرّبهما معاً ، ولما بدأ رأس الفتى الثمل يتوازن تحادثا .

قال توم فوستر « ممتع أن يكون المرء سكراناً . لقد علمني شيئاً . لست مضطراً للسكر مرة أخرى ، فبعد هذه المرة سيصبح تفكيري أكثر وضوحاً . أنت تفهم ماأعني »

لم يفهم جورج ويلارد ، لكن غضبه حول هيلين وايت مر وشعر بميل نحو الصبي الشاحب المرتجف ، كما لم يشعر نحو أي إنسان . وأصر بقلق أمومي ، على إنهاض الفتى والتنزه معه . وعادا من جديد إلى المطبعة وجلسا صامتين في الظلام .

لم يستطع المراسل أن يفهم فحوى الهدف الذي يرمي إليه توم فوستر من تصرفه . حين عاد توم للحديث عن هيلين وايت تفاقم غضبه من جديد وأخذ يعنفه ، قال بحدة « كف عن هذا الحديث ، أنت لم تكن معها . لماذا تقول هذا الكلام ؟ لماذا تكرر هذه الأقوال ؟ والآن كف عن الحديث ، أتسمع ؟ » .

وأوذي توم . لم يتشاجر مع جورج ويلارد لأنه لم يكن قادراً على اثارة شجار . لذا نهض وذهب . ولما كان جورج ويلارد ملحاحاً مد يده ، وبعد أن وضعها على ذراع الفتى ، حاول أن يشرح له

قال برفق « حسن ، لاأعلم كيف أشرح . لقد كنت سعيداً . أنت تفهم ماأعني . لقد اسعدتني هيلين وايت والليل أيضاً . أردت أن أعاني لأن كل إنسان يعاني ويخطىء . فكرت بأمور كثيرة أقوم بها ، لكنها لم تنجح . إنها جميعاً تسبب الأذى للآخرين . »

تعالى صوت توم فوستر ، وثار لأول مرة في حياته . قال « كان الأمر كممارسة الحب ، هذا ماأقصد ، ألاترى وجهة نظري ؟ إن مافعلته سبب لي الأذى وجعل كل شيء غريباً ، ولهذا قمت به ، وأنا سعيدأيضاً . لقد تعلمت درساً ، نعم ، هذا ماأردت . ألاتفهم ؟ أردت أن أتعلم الكثير لهذا قمت به » .

* * *



موت

كان الدرج المؤدي إلى عيادة الدكتور ريفي ، في بناية هوفنر فوق متجر أطعمة باريس المجففة ، مضاء بخفوت . في أعلى الدرج عُلِّق مصباح له مدخنة مثبّتة بحامل إلى الجدار . وللمصباح عاكس من القصدير ، وقد بات اسمر من الصدأ وغطاه الغبار . كان الناس يتبعون بأقدامهم أقدام الكثيرين ممّن سبقوهم ، وكانت ألواح خشب الدرج الناعمة قد استسلمت تحت ضغط الأقدام ووصمت بعلامات عميقة .

عند أعلى الدرج تنحدر إلى اليمين فتجد نفسك أمام باب الدكتور ، وإلى اليسار كان هناك رواق مظلم مملوء بسقط المتاع ، بكراس قديمة ، وأحصنة للنجار ، وسلالم خشبية وصناديق فارغة ملقاة كلها في الظلام تنتظر أن تزل إليها قدم . وكان هذا الركام يخص شركة أطعمة باريس المجففة . فكلما أصبحت منضدة للحساب أو صف من الرفوف في المتجر بلا فائدة ، حمله المستخدمون إلى الطابق العلوي ورموه فوق الركام .

كان مكتب الدكتور ريفي كبيراً كمخزن الحبوب ، وثمة مدفأة منتفخة قائمة وسط الغرفة ، تجمّعت حول قاعدتها كومة من النشارة ، وقد ثبّتت في مكانها بألواح ثقيلة مسمّرة إلى الأرض . عند الباب وضعت طاولة ضخمة كانت ذات مرة جزءاً من أثاث متجر هيريك للألبسة ، وقد استخدمت لعرض الملابس الحديثة . كانت مملوءة بالكتب والقناني ، وأدوات الجراحة . قرب طرف الطاولة وقفت ثلاث تفاحات تركها جون سبانيارد ، وهو يعمل في مشتل وكان صديقاً الدكتور ريفي ، وقد أخرج التفاحات الثلاث من جيبه وهو خارج من الباب .

في أواسط عمره ، كان الدكتور ريفي طويلاً وبشعاً . ولم تكن اللحية التي رباها فيما بعد قد ظهرت بعد ، ولكن فوق شفته العليا كان شارب أشقر قد بدأ ينمو . لم يكن لبقاً ، كما أصبح حين كبر ، وكان شديد الانشغال بمشكلة التخلص من يديه وقدميه .

في فترات بعد الظهر صيفاً ، وبعد مرور سنين عديدة على زواجها ، وقد بات ابنها جورج في الثانية عشر أو الرابعة عشر من عمره ، كانت اليزابث تصعد أحياناً الدرج المهترىء إلى مكتب الدكتور ريفي . وكانت قامة المرأة الطويلة بطبيعتها قد بدأت تنحني وتهن مجرجرة نفسها بهمة فاترة . كانت تزور الطبيب ظاهرياً بحجة صحتها ، ولكن في نصف المرات كانت تذهب لأمور لا تمت لصحتها بشكل رئيسي . لقد كانت تتحدث مع الطبيب عن صحتها ولكن حديثهما كان يدور في معظمه

حول حياتها ، حول حياتيهما والأفكار التي تجول في خاطرهما وهما يعيشان في واينسبرغ .

كان الرجل والمرأة يجلسان في المكتب الخالي الكبير ينظر أحدهما إلى الآخر وكانا متشابهين كثيراً . واختلفا في الصفات الجسدية ، وفي لون العينين أيضاً ، وطول الأنف ، وظروف حياتيهما ، لكن المعنى الذي يضمره كل منهما كان واحداً ، ويتطلب التحرر نفسه ، وكان يمكن أن يتركا الانطباع نفسه في ذهن الناظر إليهما . بعد ذلك ، حين كبر في العمر وتزوج امرأة حسناء ، صار يحدثها عن الساعات التي قضاها مع المرأة المريضة وعبر عن أشياء لم يكن قادراً على البوح بها لاليزابث . كاد ان يكون شاعراً في سنوات شيخوخته ، واتخذت طريقته في الاشارة إلى ما حدث له منحى شعرياً . كان يقول « أتى عليّ حين من حياتي شعرت فيه بحاجتي للصلاة فخلقت آلهة وصليت لهم . لم أتلُ صلواتي بالكلمات ولا ركعت بل كنت أجلس ساكناً على كرسي . وبعد الظهر حين يهيمن الحر والهدوء على الشارع الرئيسي أو في الشتاء حين تكون الأيام كئيبة ، يأتي الآلهة إلى المكتب وقد ظننت أن لاأحد يعلم بأمرهم . ثم اكتشفت ان هذه المرأة اليزابث تعرف ، وانها تتعبد الآلهة نفسها أيضاً. وفهمت انها كانت تأتي إلى المكتب علّها تجد الآلهة هناك وكانت تفرح لأنها لن تكون وحيدة . لقد كانت تجربة لا يمكن تفسيرها رغم أني أظن انها تحدث دائماً لرجال ونساء في كل مكان .

* * *

في فترات بعد الظهر الصيفية ، حين كانت اليزابث والطبيب يجلسان في المكتب ، ويتحدثان عن حياتيهما ، كانا يتحدثان عن حياة الآخرين أيضاً . أحياناً يتفوه الطبيب بحكم فلسفية ، ثم يقهقه مسروراً . وأحياناً ، بعد فترة صمت ، تقال كلمة أو يلقى تلميح فاذا بحياة المتكلم تتوهج بضياء غريب ، وتغدو الأمنية رغبة ، أو يلتهب حلم ، شبه ميت ، بالحياة فجأة . وكانت الكلمات في أغلب الأحيان ، تأتي من المرأة تتفوه بها دون أن تنظر إلى الرجل .

وفي كل مرة زارت فيها زوجة صاحب الفندق الدكتور كانت تأخذ حريتها أكثر قليلاً في الكلام ، وبعد أن تقضي ساعة أو ساعتين في حضرته تهبط الدرج إلى الشارع الرئيسي وهي تشعر انها متجددة قوية أمام بلادة أيامها . كانت تمشي مشية تقترب من تهادي فتاة هيفاء ، ولكن حين تعود إلى كرسيها قرب نافذة غرفتها ، ويهيمن الظلام وتحضر لها فتاة تعمل في الفندق عشاءها على صينية ، كانت تتركه يبرد . وتتهافت أفكارها عائدة إلى فترة صباها بكل اشتياقها المفعم للمغامرة وتتذكر سواعد الرجال الذين ضموها إليهم حين أتيحت لها المغامرة . تذكرت خاصة أحدهم كان لفترة عشيقها ، وكان خلال لحظات هيامه يهتف باسمها أكثر من مائة مرة ، مردداً نفس الكلمات بجنون مرة بعد مرة « غاليتي ! غاليتي ! غاليتي الحبيبة ! » لقد كانت الكلمات ، كما ظنت ، تعبر عن شيء كانت تود لو حققته في حياتها .

بدأت زوجة صاحب الفندق المريضة ، في غرفتها في الفندق العتيق الرث، تبكي ، وغطت وجهها بيديها ، وهي تهتز أماماً وخلفاً . وتتردد كلمات صديقها الوحيد ، الدكتور ريفي ، في أذنيها ، وهو يقول « الحب كالريح يثير العشب تحت الأشجار في ليلة حالكة . لايجب أن تنظري إلى الحب على انه محدّد . انه الحدث القدسي في الحياة . إذا حاولت ان تكوني محدّدة واثقة بشأنه ، وان تعيشي تحت الأشجار ، حيث تهب نسمات الليل الرقيقة ، سرعان ماتأتي الفحة حر خيبة النهار الطويل ويتجمّع التراب الخشن من مرور العربات على الشفاه الملتهبة التي رقّقتها القبلات » .

لم تستطع اليزابث ويلارد أن تتذكر أمها التي ماتت حين لم تكن هي تتجاوز الخامسة من العمر . وقضت طفولتها بأكثر الأشكال تصادفية يمكن تصورها . كان أبوها رجلاً أراد أن يترك وشأنه لكن مشاغل الفندق لم تكن لتدعه وشأنه . وقد عاش ومات رجلاً مريضاً . كان ينهض كل يوم بوجه بشوش ، ولكن ما إن تحين الساعة العاشرة صباحاً حتى يفرغ قلبه من كل فرح . حين يشتكي نزيل من الطعام في غرفة طعام الفندق ، أو تتزوج إحدى الفتيات اللواتي يرتّبن الأسرّة وترحل ، يضرب الأرض غضباً ويسب . في المساء حين يأوي إلى السرير يفكر في ابنته التي تكبر وسط تيار الناس المندفعين داخلين خارجين من الفندق ، ويغلبه الحزن.وبينما الفتاة تكبر ومن ثم صارت

ترافق الشباب مساء أراد أن يحدثها ، وحاول ولم ينجح . كان دائماً ينسى مايريد أن يقول ، ويقضي الوقت متزمراً من أشغاله .

خلال صباها الأول ثم بعد اكتمال أنوثتها حاولت اليزابث ان تكون مغامرة حقيقية في الحياة . في سن الثامنة عشرة استحوذ عليها حب الحياة إلى درجة انها لم تعد عذراء ، ورغم انه كان لديها دزينة عشاق قبل زواجها من توم ويلارد ، إلا إنها لم تخُض مغامرة مدفوعة بالرغبة وحدها . وكجميع نساء العالم ، أرادت حباً حقيقياً . كان هناك دائماً شيء تبحث عنه بلا وعي ، بانفعال ، كأنه أعجوبة مخبّأة في الحياة . لقد كانت الفتاة الجميلة الطويلة ، بخطوتها الواسعة المتهادية التي تنزهت تحت الأشجار مع الرجال ، تمد يدها إلى الظلام محاولة أن تقبض على يد أحدهم ، كانت تحاول أن تبحث بين هذيان الكلمات المنهمرة من بين شفاه الرجال الذين غامرت معهم عما تعتبره الكلمة الصحيحة .

لقد تزوجت اليزابث من توم ويلارد، الموظف في فندق والدها، لأنه كان بين يديها ، وقد أرادت أن تتزوج حين تملكها قرار الزواج . وظلت تعتقد لفترة من الزمن ، كما تفكر معظم الفتيات الصغيرات ، أن الزواج سيغير وجه الحياة لها .فاذا ماراود عقلها شك من عاقبة الزواج من توم كانت تعجّل باستبعاده . في ذلك الوقت كان والده مريضاً على فراش الموت وكانت هي مرتبكة بسبب النتيجة العقيمة التي نجمت عن علاقة تورطت فيها لتوها . كانت بقية الفتيات اللواتي

في سنها في واينسبرغ يتزوجن من رجال تعرفهم تمام المعرفة ، من موظفين في محلات بقالة أو مزارعين شبان . في المساء كن يتمشين مع ازواجهن في الشارع الرئيسي ، وحين تمر بهن يبتسمن لها بسعادة . وبدأت ترى انه ربما كان الزواج في حقيقته يحوي روعة خفية ما . كانت الزوجات الصغيرات اللواتي تتحدث معهن يتكلمن عنه برقة وخجل ، فيقلن « ان دخول رجل في حياتك يغير أموراً كثيرة » .

في الليلة السابقة ليوم زفافها تحدثت الفتاة المرتبكة مع والدها ، وبعد ذلك صارت تتساءل إن لم تكن تلك الساعات التي قضتها وحدها مع الرجل المريض هي التي أدت إلى اتخاذها قرار الزواج . لقد تحدث الأب عن حياته ونصح ابنته ان تتجنب الانزلاق إلى لخبطة اخرى . لقد كان يسيء معاملة توم ويلارد ، مما جعلها تسرع الدفاع عن الموظف . وثار الرجل المريض وحاول أن يغادر السرير ، وحين منعته من التمشي راح يشتكي ، قال « انني لاأدع وشأني ، ورغم اني قمت بعمل شاق إلا اني لم أتمكن من تسديد نفقات الفندق . لاأزال حتى الآن أدين بالمال للبنك . ستكتشفين هذا بعد رحيلي » .

أصبح صوت الرجل المريض متوتراً رصيناً ، ولما لم يكن بامكانه النهوض ، مد يده وجذب رأس الفتاة وقرّبه من رأسه ، وهمس « ثمة سبيل الخلاص ، لاتتزوجي توم ويلارد أو أي رجل آخر فيواينسبرغ . هناك ثمانمائة دولار في علبة تنك موجودة في صندوقي . خذيهاواذهبي ».

وعاد صوت الرجل المريض برماً ، وأعلن « يجب أن تعديني ،

وإذا لم تعدي بعدم الزواج فأقسمي بأن لاتخبري توم عن النقود . انها لي واذا اعطيتك إياها فمن حقي أن أطلب هذا الطلب . اخفيها ، انها تعوضك عن فشلي كأب . فقد يتضح لك ذات يوم إنها بمثابة باب ، باب كبير مفتوح أمامك . هيا الآن ، أقول لك اني على وشك الموت ، اعطني وعدك » .

* * *

في عيادة الدكتور ويفي جلست اليزابث ، عجوز مرهقة كئيبة في الحادية والأربعين على كرسي بجوار المدفأة ونظرت إلى الأرض . وجلس الدكتور عند طاولة صغيرة قريبة من النافذة ، أصابعه تتلاعب بقلم رصاص موجود على المقعد . تحدثت اليزابث عن حياتها الزوجية . وأصبح حديثها مجرداً ونسيت زوجها ، ولم تعد تذكره إلا كنموذج اضافي لإبراز أهمية حكايتها ، وقالت بمرارة « ثم تزوجت ولم يتحسن الوضع أبداً . فحالما بدأت الحياة صرت أخاف . ربما لأنني عرفت الكثير من قبل ، وربما اكتشفت الكثير خلال ليلتي الأولى .. لم أعد أذكر » .

« كم كنت بلهاء : عندما أعطاني والدي النقود وحاول أن يقنعني بالتخلي عن فكرة الزواج ، لم أنصت إليه . فكرت فيما قالته لي الفتيات اللواتي تزوجن عنه وأردت أن أتزوج أيضاً . لم يكن توم ماأردت ، بل الزواج . حين أوى ابي إلى النوم ملت على طرف

النافذة وفكرت في سبيل الحياة الذي اخترته . لم أرد أن أكون امرأة سيئة . لقد كانت البلدة ملأى بحكايا عني . بل لقد بدأت أخاف أن يغير توم رأيه » .

بدأ صوت المرأة يرتجف إثارة . وخطر للدكتور زيفي ، الذي بدأ يحبها دون أن يعلم ، وهم عجيب . لقد خيل إليه انه بينما المرأة تتحدث كان جسمها يتبدل ، وانها صارت أصغر سناً ، هيفاء وقوية . ولما لم يتمكن من ابعاد هذا الوهم من عقله أجرى عليه تعديلاً بارعاً ، وتمتم « أن الكلام يفيد جسمها وعقلها معاً » .

أخذت المرأة تروي واقعة حدثت في بعد ظهر أحد الأيام بعد مرور بضعة أشهر على زواجها ، وأصبح صوتها أكثر ثباتاً ، قالت « في وقت متأخر من بعد الظهر خرجت لأتنزه وحدي بالعربة . كانت لدي عربة صغيرة ومهر رمادي وضعته في اسطبل موير . كان توم يدهن ويعد بعض الغرف في الفندق . كان محتاجاً إلى نقود وحاولت عزم أمري على اخباره بشأن الثمانمائة دولار التي أعطانيها والدي . ولم أقدر على عقد العزم . لم أكن أحبه كثيراً . كان دائماً ملوث اليدين والوجه بالدهان في تلك الأيام ويفوح برائحة الدهان أيضاً . كان يحاول أن يرمم الفندق العتيق ، ويجعله جديداً مقبول المظهر » .

استقامت المرأة المثارة جداً في كرسيها وقامت بحركة طفولية سريعة بيدها وهي تحكي عن نزهتها بالعربة وحدها بعد ظهر يوم ربيعي . قالت « كان الجو غائماً ويهدد بهبوب عاصفة . جعلت الغيوم السوداء

اخضرار الأشجار والعشب يبرز بشدة حتى أن الألوان بهرت عينيّ . ابتعدت عن الترنيون بايلك مسافة ميل أو نحوه ومن انحدرت إلى طريق جانبية . أسرع المهر خطاه مرتقياً التل ثم منحدراً منه ، وأحسست بضيق في صدري ، وانتابتني الأفكار . وددت لو أهرب من أفكاري ، وصرت أضرب الحصان . وثبتت الغيوم السوداء في مكانها وبدأت تمطر . أردت أن أركض بأقصى سرعة ، أن أتابع الركض إلى الأبد . أردت أن أخرج من البلدة ، من ثيابي ، من زواجي ، من جسدي ، من كل شيء . كدت أقتل الحصان ، وانا أحثه على الركض ، ولما يعد بوسعه الركض أكثر مما فعل تركت العربة ورحت أركض على قدميّ في الظلام إلى أن وقعت وآذيت خاصرتي . لقد أردت أن أهرب من كل شيء ، لكني أردت أن أهرب إلى هدف ما أيضاً . أتفهم ، ياعزيزي ماأعني ؟ »

قفزت اليزابث عن الكرسي وراحت تتمشى في المكتب . مشت كما لم يظن الدكتور ريفي انه رأى أحداً يمشي من قبل . كان جسمها كله يميل بايقاع أسكره . حين اقتربت وركعت على الأرض بجانب كرسيه ، ضمها بين ذراعيه وراح يقبلها بهيام . وقالت محاولة أن تتابع قصة نزهتها الوحشية « كنت أبكي طوال الطريق إلى البيت » ولم ينصت اليها ، بل تمتم « عزيزتي ! عزيزتي الحبيبة ! آه ياعزيزتي الحبيبة ؟ » وفكر انه لايضم بين ذراعيه المرأة المرهقة ذات الاحدى والأربعين عاماً بل فتاة حبيبة بريئة كانت قادرة بقوة معجزة ما أن تقذف بنفسها خارج حدود جسد المرأة المتهدمة .

لم ير الدكتور ريفي المرأة التي ضمها بين ذراعيه حتى مماتها . بعد ظهر ذاك اليوم الصيفي في المكتب ، وكان على وشك أن يصبح عاشقها ، وقعت حادثة صغيرة شبه غريبة وضعت حداً لحبه السريع . فبينما الرجل والمرأة يضمان بعضهما بقوة سمع صوت وقع أقدام ثقيل على الدرج المؤدي إلى المكتب . قفز الاثنان واقفين على قدميهما ولبثا ينصتان وهما يرتعشان . كان الضجيج صادراً عن موظف شركة أطعمة باريس المجففة ، الذي رمى صندوقاً فارغاً فوق ركام الأغراض في الردهة محدثاً هديراً عالياً ، ونزل بخطى ثقيلة هابطاً الدرج . تبعته اليزابث بعدئذ مباشرة تقريباً . ومات فجأة ذاك الشيء الذي انتعش داخلها أثناء حديثها مع صديقها الأوحد . أصابتها الهستريا ، وكذا الدكتور ريفي ، ولم تعد ترغب في متابعة الحديث . مشت في الشارع ودمها لايزال يغرد في جسدها ، ولكن حين خرجت من الشارع الرئيسي ورأت أمامها أضواء نُزُل ويلارد الجديد ، بدأت ترتجف وارتعشت ركبتاها حتى ظنت اللحظة انها ستقع وسط الشارع .

قضت المريضة آخر بضعة أشهر من حياتها تشتاق الموت . ومضت على الدرب المؤدي إلى الموت ، باحثة ، مشتاقة . تخيلت الموت على هيئة شخص وقد جعلته أحياناً يبدو شاباً قوياً أسود الشعر ، يركض عبر التلال ، وأحياناً رجلاً متجهماً صامتاً ترك عليه السعي لكسب العيش علامات وتشوهات . كانت تمد يدها وهي وسط ظلام غرفتها ، مخرجة إياها من تحت أغطية السرير ، متخيلة أن الموت مخلوق حي يمد

لها يده . فتهمس « اصبر ؛ ياحبيبي ، ابق شاباً وجميلاواصبر » .

في المساء حين أثقل المرض وطأته عليها وأفشل مساعيها في اخبار ابنها جورج بأمر الثمانمائة دولار المخبأة ، تركت سريرها وزحفت حتى منتصف الغرفة تتوسل إلى الموت أن يمنحها ساعة حياة أخرى ، توسلت قائلة « إنتظر ياعزيزي ! الولد ! الولد ! الولد ! » وحاولت بكل قواها أن تدفع عنها ذراعيّ حبيبها اللتين طالما تاقتا بقوة لضمتهما .

* * *

ماتت اليزابث في أحد أيام آذار في العام الذي بلغ فيه إبنها الثامنة عشر ، ولم يفهم الشاب الصغير إلا القليل عن معنى موتها . ولم يكن إلا للزمن أن يفهمه . لقد رآها طوال شهر مستلقية شاحبة ساكنة لاتفوه بحرف في سريرها ، ومن ثم في بعد ظهر أحد الأيام ، استوقفه الطبيب في الردهة وتبادل معه بضع كلمات .

دخل الشاب غرفته وأغلق الباب . كان يتملكه شعور غريب فارغ في منطقة بطنه ، وظل لحظة يحملق في الأرض ثم قفز واقفاً وخرج ليتمشى . مرّ على طول رصيف المحطة ، وتجول في المناطق الآهلة مخلفاً وراءه بناء المدرسة الثانوية ، وقد استغرق تماماً في التفكير في شؤونه الخاصة . لم يؤثر به الموت كثيراً ، وفي الواقع كان منزعجاً قليلاً لأن أمه ماتت في ذلك اليوم . كان قد تسلّم لتوه رسالة من هيلين وايت ، إبنة صاحب بنك البلدة ، جواباً على واحدة منه . وفكر

بشبه غضب « كان يمكن أن أذهب وأراها هذا المساء أما الآن فيجب أن أستبعد الفكرة » .

ماتت اليزابث في بعد ظهيرة يوم جمعة الساعة الثالثة . كان الجو بارداً وممطراً في الصباح ولكن الشمس بزغت بعد الظهر . قبل أن تموت ظلت مشلولة مدة ستة أيام غير قادرة على الكلام أو الحركة ، ليس فيها حي غير عقلها وعيناها . جاهدت خلال ثلاثة من الأيام الستة ، وهي تفكر بولدها ، وتحاول أن تقول بعض الكلمات بخصوص مستقبله ، وفي عينيها نظرة استغاثة مؤثرة جداً حتى ان كل من رآها احتفظ بذكرى المرأة وهي تموت في رأسه لسنوات . حتى توم ويلارد الذي طالما كره زوجته ، نسي كرهه وانهمرت الدموع من عينيه واستقرت في شاربه . كان شاربه قد بدأ يشيب وقد صبغه توم . كان ثمة زيت معدّ خصيصاً لهذا الغرض ، وكانت الدموع ، العالقة في الشارب ويمسحها بيده ، قد شكّلت بخاراً اشبه بالضباب . كان وجه توم أثناء الحزن يبدو كوجه جرو أمضى وقتاً طويلاً في جو قارس .

عاد جورج إلى المنزل من الشارع الرئيسي ليلاً يوم وفاة أمه ، وبعد أن دخل غرفته لينفض شعره وثيابه ، مشى في الردهة ومنها إلى الغرفة التي تمدّد فيها الجثة . كانت هناك شمعة على طاولة الزينة قرب الباب ، وقد جلس الدكتور ريفي على كرسي بجوار السرير . نهض الطبيب وهمّ بالخروج . ومد يده كأنما ليحيي الشاب لكنه سحبها

ثانية بحركة خرقاء . كان جو الغرفة مثقلاً بوجود إنسانين خجولين ، وهرع الرجل خارجاً .

جلس إبن المرأة المتوفاة على كرسي وراح ينظر إلى الأرض ، يفكر بشؤونه الخاصة وقد قرر بشكل قاطع أن يغير حياته ، آن يغادر واينسبرغ ، وفكر « سأذهب إلى إحدى المدن . فربما أحصل على عمل في إحدى الصحف » . ثم تحول تفكيره إلى الفتاة التي كان من المفروض أن يقضي أمسيته بصحبتها وتملكه شيء من الغضب لتغيُّر مجري الأحداث الذي منعه من الذهاب إليها .

راح الشاب يفكر في الغرفة الخافتة الإنارة وهو مع المرأة الميتة . كان عقله يعبث بأفكاره عن الحياة كما عبث عقل أمه بأفكار عن الموت. أغمض عينيه وتخيل أن شفتي هيلين وايت الحمراوين تلمسان شفتيه . ارتجف جسده وارتعشت يداه ، وهنا حدث أمر . نهض الفتى على قدميه مسرعاً ووقف جامداً . نظر إلى جسد الميتة المغطى وسربله شعور بالخجل من أفكاره وأخذ يبكي . وخطرت على باله فكرة جديدة ، واستدار ونظر حوله مع شعور بالذنب وكأنه يخشى أن يراه أحد .

وسيطر على جورج ويلارد الحاح مجنون لرفع الغطاء عن جسد أمه والنظر إلى وجهها . وتشبثت به الفكرة بشكل مرعب ، واقتنع بأنه ليس أمه من يسجّى أمامه على السرير بل شخص آخر . كان اعتقاده مجسماً حتى لم يعد يحتمله . كان الجسد الممدد تحت الأغطية طويلاً وقد بدا وهو ميت نضراً جميلاً . بدا الفتى ، الذي زاره

خيال غريب ، إنه جميل بشكل يفوق الوصف وغالبه شعور بأن الجسد الذي أمامه كان حياً ، وانه بعد برهة أخرى ستنتفض امرأة جميلة خارجة من السرير لتواجهه حتى لم يكد يحتمل ترقّبه . ومد يده أكثر من مرة ، ثم وصلت ورفع الغطاء الأبيض الذي يغطيها قليلاً ، لكن شجاعته خذلته واستدار ، كما فعل الدكتور ريفي ، ليخرج من الغرفة . وفي الردهة خارج الباب وقف وارتجف حتى اضطر لإسناد يده على الجدار ليوازن نفسه . وهمس لنفسه « إنها ليست أمي . ليست من بالداخل أمي » . وعاد جسمه يرتعش رعباً وشكاً . حين خرجت العمة اليزابث سويفت ، التي أتت لتعتني بالجثة ، من غرفة مجاورة وضع يده في يدها وبكى ، وهو يهز رأسه من طرف إلى طرف ، والحزن يكاد يعميه . قال « لقد ماتت أمي » ثم نسي وجود المرأة واستدار وحملق بالباب الذي خرج منه لتوه « العزيزة ، العزيزة ، آه العزيزة الحبيبة ، » هكذا غمغم الفتى بصوت عال ، يلح عليه دافع خارج ارادته .

* * *

أما بالنسبة الثمانمائة دولار التي خبأتها الميتة فترة طويلة وكانت جديرة بدعم جورج ويلارد ليبدأ مستقبله في المدينة ، فهي باقية في علبة التنك خلف الملصقة الموجودة عند قدم سرير أمه . كانت اليزابث قد وضعتها هناك بعد زواجها بأسبوع ، بعد أن كسرت الملصقة بعصا .

ثم أحضرت أحد العمال الذين كان زوجها يستخدمهم من أجل الفندق، لإصلاح الجدار . « لقد الصقت زاوية السرير به » هكذا علّلت السبب لزوجها . بعد أن عجزت عن التخلي عن حلمها بالتحرر ، التحرر الذي شعرت به مرتين في حياتها ، حين ضمها عشيقاها بين ذراعيهما : الموت والدكتور ريفي .

* * *



كان الوقت بداية المساء من أحد أيام أواخر الخريف وقد استجلب معرض واينسبرغ الريفي حشوداً غفيرة من الناس إلى البلدة . كان النهار رائقاً وقد حل المساء دافئاً ممتعاً . وبات الترنيون بايلك ، حيث يمتد الدرب ، بعد أن يترك البلدة ، بعيداً بين حقول التوت البري مغطى بالأوراق البنية ، وارتفع سحاب الغبار الذي تثيره العربات المارة . ونام الأطفال ، وقد التفوا على أنفسهم ككرات صغيرة ، على القش المنثور على أسرّة العربات . شعورهم مملوءة بالغبار وأصابعهم سوداء ودبقة . وامتد الغبار فوق الحقول وجعلته الشمس الغاربة يتوهج بالألوان .

في الشارع الرئيسي لبلدة واينسبرغ ملأت الحشود المتاجر والأرصفة . حل المساء ، وصهلت الخيول ، وراح العاملون في المتاجر يتنقلون بجنون ، وضاع الأطفال وصاروا يزعقون بعنف ، وعملت بلدة أميركية بيأس على أن تسلي نفسها .

شق الفتى جورج ويلارد طريقه خلال الحشود في الشارع الرئيسي ثم اختبأ في مصعد الدرج الموصل إلى عيادة الدكتور ريفي وراح يراقب الناس . راقب بعينين محمومتين الجو ، تتدافع مارة تحت أضواء المتجر . وتزاحمت الأفكار في رأسه ولم تكن به رغبة في التفكير . خطا بصبر نافذ على الدرج الخشبي ونظر حوله بحدّة . وتمتم « هل تنوي أن تبقى معه طوال النهار ؟ هل سيكون انتظاري عبثاً ؟ » .

كان جورج ويلارد ، فتى أوهايو الريفي ، ينمو حثيثاً نحو الرجولة وكانت تهب أفكار جديدة في رأسه . وطوال ذاك النهار ، وسط زحمة الناس في السوق ، كان يشعر بالوحدة . كاد يغادر واينسبرغ ويذهب إلى إحدى المدن حيث أمل في أن يحظى بعمل في صحيفة مدنية وشعر انه ناضج . كان المزاج الذي يغلب عليه معروفاً لدى الرجال وغير معروف لدى الصبية . شعر بنفسه مكتملاً وتعباً قليلاً . واستيقظت فيه الذكريات . ورأى ان الأحساس الجديد بالنضج قد فصله عن الآخرين ، جعل منه شخصية شبه مأساوية . كان بحاجة لمن يفهم شعوره الذي استولى عليه بعد وفاة أمه .

ثمة في حياة كل فتى وقت يلقي فيه نظرة إلى حياته الماضية . ربما هي االحظة التي يعبر فيها الخط إلى الرجولة . الفتى يمشي الآن في شارع من بلدته ، يفكر في المستقبل والأثر الذي سيتركه في العالم ، وانبعثت الطموحات والندامات داخله ، وفجأة حدث أمر ، فقد وقف تحت شجرة وكأنه ينتظر صوتاً ينادي بأسمه ، وزحفت الخيالات إلى وعيه ،

كانت الأصوات التي خارجه تهمس له برسالة حول حدود الحياة ، وانتقل من الثقة التامة بنفسه وبمستقبله إلى الشك التام ، ولما كان فتى خصب الخيال انشق أمامه باب مفتوحاً ولأول مرة في حياته أطل على العالم ، ورأى ، وكأنهم يمشون في موكب أمامه ، الأشكال الغفيرة لرجال أتوا ، قبل أن يخلق ، من العدم إلى العالم ، عاشوا حيواتهم واختفوا من جديد داخل العدم . وعاود الفتى حزن الحيرة . ورأى نفسه وهو يلهث قليلاً مجرد ورقة يابسة تذروها الرياح في شوارع قريته. انه يعرف انه بالرغم من كلام أقرانه القوي يجب أن يعيش ويموت وهو غير واثق ، شيء تذروه الرياح ، شيء مقدّر له أن يكون كما الذرة ، يذوي تحت الشمس . ويرتعش وينظر حوله بشوق. بدت له السنوات الثماني عشرة التي عاشها كأنها لحظة ، فترة التقاط للأنفاس في مسيرة الانسانية . انه يسمع الموت ينادي منذ الآن . يريد من كل قلبه أن يتقرّب من بشرى آخر ، ان يلمسه بيديه ، ان تلمسه يد مخلوق آخر . فاذا كان يفضل أن يكون المخلوق الآخر امرأة ، فذلك لأنه يؤمن ان المرأة ستكون ألطف ، وستفهم . انه يطلب ، قبل كل شيء ، التفاهم [.]

حين تأتيه لحظة الحيرة كان عقل جورج ويلارد يتحول إلى هيلين وايت ، ابنة صاحب البنك واينسبرغ . كان واعياً دائماً لنمو الفتاة نحو الأنوثة بينما هو ينمو ليغدو رجلاً . وذات مرة في ليلة صيفية ، وكان في الثامنة عشرة ، تنزّه معها على طريق الريف وقد ترك المجال لنفسه

أمامها بالتفاخر ، بجعل نفسه يبدو كبيراً ومهماً في نظرها . والآن هو يريد أن يراها لغرض آخر . أراد أن يخبرها عن الدوافع الجديدة التي عرفها . حاول أن يدفعها للتفكير فيه كرجل في حين لم يكن يعرف شيئاً عن الرجولة وهو يريد الآن ان يظل معها ويحاول أن يجعلها تشعر بالتغير الذي يعتقد انه طرأ على طبيعته .

هيلين وايت أيضاً وصلت إلى مرحلة التغير . ان ماشعر به جورج ، شعرت به هي أيضاً بطريقتها الأنثوية الغضة . لم تعد فتاة صغيرة وباتت تتوق للوصول لامتياز وجمال الأنوثة . كانت قد أتت إلى المنزل عائدة من كليفلاند ، حيث التحقت بالجامعة ، لتقضي يوماً أثناء المعرض . لقد بدأت بدورها تتعامل مع الذكريات . كانت تقضي النهار جالسة في المدرّج المسقوف مع شاب ، هو مدرّس في الكلية ، وينزل ضيفاً عند امها . كان الشاب من النوع المتحذلق وشعرت على الفور انه لن يلائمها في السوق كانت تفرح لأن الناس يرونها معه وهو الحسن المظهر والغريب. كانت تعرف ان وجوده جديد بخلق الانطباعات . أثناء النهار تكون سعيدة ، ولكن ما ان يحل المساء حتى يتفاقم قلقها . لقد أرادت ان تبعد المدرّس عنها ، ان تغيب عن ناظريه . وحين كانا يجلسان معاً في المدرج المسقوف وتراهما عيون اصدقاء المدرسة السابقين ، كانت تركز انتباهها على مرافقها وهو يزداد اهتماماً ، فيقول متأملاً « ان المثقف يحتاج إلى النقود . يجب أن أتزوج امرأة ثرية » .

كانت هيلين وايت تفكر في جورج ويلارد بينما هو يتجول كئيباً

خلال الحشود مفكراً بها . تذكرت الأمسية الصيفية حين تمشيا معاً ورغبت بالتحدث إليه من جديد . لقد وجدت أن الأشهر التي قضتها في المدينة ، والتردد على المسارح ومشاهدة الحشود الهائلة تتجول في الشوارع العامة المضاءة ، قد غيّرتها بعمق . وودت لو إنه شعر وانتبه للتغير الذي طرأ على طبيعتها .

والأمسية الصيفية التي أمضياها معاً تركت أثرها على ذاكرة كل من الشاب والفتاة ، حين ينظر إليها بتعقّل ، قد قضيت بشكل أبله . فقد خرجا من البلدة على طريق ريفية ، ثم توقفا قرب سياج لحقل ذرة لاتزال يافعة ، وقد خلع جورج معطفه وتركه يتدلى على ذراعه ، قال « حسن ، سأبقى هنا في واينسبرغ — نعم — لم أكتسب خبرة كثيرة لكنني أكبر . إنني أقرأ الكتب وأفكر . سأحاول أن أصل إلى هدف ما في الحياة ».

وعلّل متابعاً « حسن ، ليس هذا هو المهم . ربما من الأفضل أن أكف عن الكلام » .

وضع الفتى المضطرب يده على ذراع الفتاة ، وارتعش صوته ، وانطلق الأثنان عائدين على طول الطريق المؤدية إلى البلدة . وفي غمرة يأسه راح جورج يتفاخر معلناً « سأغدو رجلاً عظيماً ، أعظم من وُجِد في واينسبرغ . أريدك أن تحاولي أن تكوني مختلفة عن بقية النساء . أنت تفهمين ماأقصد . أقول لك إنه ليس من شأني . أريدك ان تكوني امرأة جميلة . أنت تفهمين ماأريد » .

أختنق صوت الفتى وعاد الاثنان إلى البلدة يشملهما الصمت ،

وتوجها إلى منزل هيلين وايت . عند البوابة حاول أن يقول شيئاً مؤثراً مرت في رأسه جميع الأحاديث ، لكنها بدت له خالية من المعنى . « ظننت — أقصد ذات مرة — انك ستتزوجين سث ريتشموند . والآن صرت أعرف أنك لن تفعلي » كان هذا كل ما استطاع قوله لها عند دخولها البوابة إلى باب بيتها .

وقف جورج ويلارد على الدرج ، في ليلة خريف دافئة ، ينظر إلى الحشد المتدافع في الشارع الرئيسي ، وراح يفكر في الحديث الذي تم بجانب حقل الذرة الخضراء ، وخجل من الصورة التي رسمها لنفسه . وفي الشارع حث الناس خطاهم في الاتجاهين كقطيع محجوز في زريبة. وكانت هناك عربات صغيرة وكبيرة تكاد تسد الطريق الضيقة ، وثمة فرقة موسيقية تعزف وأولاد صغار يتسابقون على الرصيف ، مختفين بين أرجل الناس ، وشبان بوجوه متوردة لامعة يمشون مشية خرقاء تتعلق بأذرعتهم فتيات . وفي غرفة فوق أحد المتاجر ، حيث يتم الاستعداد لإقامة حفلة رقص . يدوزن العازفون آلاتهم . طفت الأصوات المتكسرة من خلال نافذة مفتوحة. وعبرت غمغمة الأصوات والهدير العالي لأبواق الفرقة . أثّر مزيج الأصوات على أعصاب الفتى ويلارد . وفي كل مكان ، من جميع الجهات ، حاصره الاحساس بالازدحام ، والحياة المائجة . ودّ لو ركض ليبقى وحده ويفكر . وهرّ قائلاً « إذا أرادت أن تبقى مع ذاك الشاب فلتبق .ولماذا أهتم ؟ أي فرق بالنسبةلي ؟ ». وتابع طريقه من الشارع مروراً ببقالية هيرن إلى شارع جانبي .

أحس جورج بوحشية عظيمة واكتئاب حتى رغب في البكاء لكن كبرياءه دفعه لحث خطاه ، هز ذراعيه . وصل إلى مخزن ويسلي موير لإيواء الخيول ، ووقف في الظل لينصت إلى مجموعة من الرجال يتحدثون عن سباق كسبه حصان ويسلي والمدعو توني تب ، في المعرض خلال بعد الظهر . واجتمع حشد أمام مخزن الخيول وقد راح ويسلي يتمشى أمامهم قافزاً متفاخراً . كان يحمل سوطاً يضرب به الأرض . وارتفعت نفخات من الغبار في وجه ضوء المصباح ، وهتف ويسلي « هيا كفاكم ثرثرة . أنا لم أكن خائفاً ، كنت أعرف أن المدي الأفضل طول الوقت . لم أكن خائفاً » .

عادة كان جورج ويلارد يهتم كثيراً بتفاخر موير ، صاحب الخيول . أما الآن فقد أغضبه . واستدار مبتعداً في الشارع . وتمتم . « متبجح عجوز ولماذا الادعاء ؟ لماذا لايخرس ؟ » .

دخل جورج أرضاً جرداء ، وأثناء إسراعه وقع على كومة أغراض ، ومزق مسمار ناتىء من برميل فارغ بنطاله . ثم جلس على الأرض وأخذ يسب . أصلح مكان الشق بدبوس ثم نهض وتابع طريقه ، وهتف « سأذهب إلى منزل هيلين وايت ، سأفعل . وسأدخل فوراً . سأقول إني أريد رؤيتها . سأدخل من فوري وأجلس ، هذا ماسأفعل » واجتاز سياجاً وبدأ يركض .

* * *

كانت هيلين جالسة على شرفة منزل بانكر وايت ، قلقة ذاهلة . وجلس المدرس بين الأم والأبنة ، وأسأم حديثه الفتاة ، ورغم إنه بدوره قد نشأ في بلدة من أوهايو . إلا انه راح يتصرف كأهل المدينة . أراد أن يبدو من أهل المدن الكبرى . وأعلن « تعجبني الفرصة التي منحتني إياها لادرس الخلفية التي خرجت منها معظم فتياتنا ، كانت لفتة طيبة منك ، سيدة وايت ، ان تدعيني لقضاء النهار » ثم التفت إلى هيلين وضحك « ألا تزال حياتك مرتبطة بالحياة في هذه البلدة ؟ هل ثمة من تهتمين بأمره هنا ؟ » وبدا صوته للفتاة نفّاجاً ثقيلاً .

نهضت هيلين ودخلت إلى المنزل ، ثم وقفت عند الباب المؤدي إلى الحديقة في المؤخرة وأنصتت . قالت أمها « ليس في البلدة من يستحق أن يقترن بفتاة ذات نسب مثل هيلين » .

أسرعت هيلين تهبط الدرج في خلفية المنزل ، ومنه إلى الحديقة . توقفت وسط الظلام وراحت ترتجف . لقد بدا لها إن العالم مملوء بأناس تافهين يلفظون الكلمات . وركضت عبر الحديقة وقد ألهبها الشوق قاصدة بابها ، وانحدرت عند زاوية مخزن بانكر ، وولجت شارعاً جانبياً . وصرخت ،يحذوها التوتر العصبي « جورج ! أين أنت ياجورج ! » كفّت عن الركض ، ومالت على شجرة وأخذت تضحك بهستريا . ومن الشارع الجانبي المظلم برز جورج ويلارد ، وهو لايزال يقول « سأدخل إلى بيتها رأساً . سأدخل دون استئذان وأجلس » أعلن هذا وهو يقترب منها . وتوقف وحملق أمامه ببلاهة ، وقال ممسكاً بيدها «هيا ».

ومشيا مرفوعي الرأس في الشارع تحت الأشجار . وخشخشت الأوراق الجافة تحت أقدامهما . والآن بعد ان عثر عليها تساءل جورج عن أفضل مايمكنه فعله وقوله .

* * *

في الأعلى لأرض المعرض ، في واينسبرغ ، مدرّج مسقوف قديم شبه متهدم . لم يُدهَن أبداً وقد باتت ألواح الخشب لاشكل لها . تقع أرض المعرض على قمة تل منخفض ينهض من وادي نهر واين ، ويمكن للمرء أن يرى من المدرج المسقوف ليلاً ، عبر حقل الذرة ، أضواء البلدة منعكسة على صفحة السماء .

ارتقى جورج وهيلين التل قاصدين أرض المعرض ، مارين ببحيرة محطة الماء.في حضور هيلين تحطّم وتكشّف شعور الفتى بالوحدة والعزلة الذي انتابه وهو في وسط الشوارع المزدحمة لبلدته . وانعكس شعوره عليها .

في مرحلة الشباب تكون هناك قوتان تتصارعان داخل الناس ، الحيوان الصغير الدافىء اللاعقلاني يصارع الجانب المتأمل المتفكّر ، والجانب الأقدم ، الجانب الأكثر تعقيداً هو الذي سيطر على جورج ويلارد . أحست هيلين بما يشعر به ، فمشت إلى جانبه يملؤها الاحترام . حين وصلا إلى المدرج المسقوف دخلا تحت السقف ، وجلسا على أحد المقاعد الطويلة .

ثمة في التجربة شيء يستحق التذكّر ، ويمكن اكتسابه بالذهاب إلى

أرض معرض يقوم في طرف بلدة من منطقة الغرب الوسطى ، ليلاً بعد انتهاء المعرض السنوي . لايمكن نسيان ذاك الاحساس . على الجانبين أشباح ، ليس الموتى ، بل الأحياء . إلى هنا ، خلال النهار الذي انصرم ، جاء الناس ينصبّون من البلدة والريف المجاور . مزارعون مع زوجاتهم وأطفالهم ، وقد اجتمع جميع سكان مئات البيوت الخشبية الصغيرة داخل هذه الجدران الخشبية . فتيات يضحكن ورجال ذوو لحى يتحدثون عن مشاكل حياتهم . لقد كان المكان مزدحماً حتى الامتلاء بالحياة . كان يضج ويعج بالحياة. وها قد حل الليل واندثر كل أثر للحياة . الصمت مرعب ، ويخفي المرء نفسه بوقوفه صامتاً بجانب جذع شجرة ، ويتضاعف ميله الفطري للتأمل . إن الإنسان يرتجف لدى التفكير في خواء الحياة في حين إنه في الوقت نفسه ، إذا كان أهل البلدة هم أهله ، يعشق الحياة بقوة حتى تنهمر الدموع عن عينيه .

في الظلام ، تحت سقف المدرج جلس جورج ويلارد مجاوراً لهيلين وايت وأحس إحساساً حاداً بتفاهته وسط نسيج الوجود . الآن وقد خرج من البلدة حيث يهيّجه الناس بحضورهم ، بمشاغلهم بالقضايا العديدة ، زال عنه الغضب كله . وجدّد نشاطه حضور هيلين وأنعشه ، وكأن يدها الأنثوية كانت تساعده على إعادة تنظيم فورية لآلية حياته . بدأ يفكر بأهل البلدة التي عاش فيها بشيء من التبجيل . كان يحترم هيلين ، وأراد أن يـُحِب وأن يُحَب من قِبَلها . ولكن في هذه اللحظة لم يكن يريد أن تزعجه بأنوثتها . في الظلام تناول يدها وحين زحفت

مقتربة وضع إحدى يديه على كتفها . بدأت الريح تهب فارتعش . حاول بكل قواه أن يحيط بمزاجه الذي حل عليه ، ويفهمه . في ذلك المكان المرتفع في الظلام ضم كل منهما الآخر بقوة وانتظر ، ذرتان بشريتان حساستان بشكل غريب . وجالت في رأس كل منهما الفكرة نفسها « لقد أتيت إلى هذا المكان الموحش وهاهو الآخر معي » واختصت جوهر شعورهما .

انتهى نهار واينسبرغ المزدحم داخل ليل طويل في وقت متأخر من الخريف . اقتيدت خيول المزارع بعيداً على الطرق الريفية الطويلة الموحشة ، وهي تجر حصتها من الناس المرهقين . وبدأ المستخدمون يدخلون نماذج بضاعاتهم عن الأرصفة ويغلقون أبواب المتاجر . وفي دار الأوبرا احتشد جمعٌ لمشاهدة أحد العروض ، وبعيداً عن الشارع الرئيسي سال عرق العازفين ، وآلاتهم تصدح ، ليجعلوا أقدام الشبان تتحرك خفيفة على حلبة الرقص .

في الظلام على المدرج ظلت هيلين وايت وجورج ويلارد صامتين ، وبين الحين والآخر يُكسَّر السحر الذي يجسِّدهما ويلتفت واحدهما إلى الآخر ويحاولا في النور الخافت أن ينظرا في عينيّ أحدهما للآخر . تبادلا القبل لكن هذه الرغبة لم تدم . وفي الطرق الأعلى من أرض المعرض كان دزينة من الرجال يعملون مع جياد كانت تتسابق خلال بعد الظهر ، وقد أضرموا ناراً يسخنون عليها إبريقاً من الماء . لم تكن يرى منهم أي غير أرجلهم وهم يمرون جيئة وذهاباً تحت الضوء ، وحين تهب الريح تتراقص ألسنة اللهب القصيرة بجنون في كل اتجاه .

نهض جورج وهيلين وابتعدا في الظلام . مشيا على درب يحاذي حقل ذرة لم يحصد بعد . همست الريح بين أوراق الذرة الجافة . وانكسر السحر الذي أسكتهما اللحظة أثناء عودتهما إلى البلدة . حين وصلا إلى أعلى تلة محطة الماء توقفا قرب شجرة ووضع جورج يده على كتفي الفتاة ثانية . عانقته بشوق وارتدت ثانية تقاوم اندفاعها . وقفايتبادلان القبل ثم تباعدا . ونما احترام متبادل بينهما . شملهما ارتباك واحد ولكي يتخلصا من ارتباكهما انغمسا في بهيمية الشباب . وبدءا يضحكان ويتجاذبان ويتشادّان . وبنحوٍ ما طهّرهما مزاجهما وعفّفهمافتحولا ، ليس إلى رجل وامرأة ، ليس إلى ولد وبنت ، بل إلى حيوانين صغيرين مشبوبين .

انحدرا من التل وهما على هذه الحال . تعابثا في الظلام ككيانين صغيرين رائعين في عالم نضر . ومرة ، وهما يتقدمان بركضٍ سريع ، دفعت هيلين جورج ويلارد فوقع ، وراح يتلوى ويصرخ ويهتز من الضحك ، وتدحرج أسفل التل . وتبعته هيلين ركضاً . ووقفت لحظة في الظلام . لاأحد يعرف ماهي الأفكار التي تدور في رأس امرأة ولكن بعد أن بلغا أسفل التل وتلاقت بالفتى ، تناولت ذراعه ومشت إلى جواره بصمت جليل ، ولسبب ما كان بوسعهما ان يعترفا بأنهما كانا يحصلان من سكون المساء على مايحتاجان إليه . رجل أم فتى ، امرأة أم فتاة ، لايهم ، لقد أمسكا لبرهة بالشيء الذي يجعل حياة الرجال والنساء الناضجة ممكنة في العالم الحديث .

رحيل

غادر الفتى جورج ويلارد السرير في الرابعة صباحاً . كان الشهر هو نيسان وقد بدأت أطراف الأوراق تبرز من براعمها ، وكانت أشجار شوارع المنطقة المأهولة من وايتسبرغ هي أشجار القيقب والبذور مجنّحة . حين تهب الريح تدور بجنون ، مالئة الجو وفارشة بساطاً تحت الأقدام .

هبط جورج إلى مكتب النزل حاملاً حقيبة جلدية بنية ، وقد حزم أمتعته استعداداً للرحيل . كان مستيقظاً منذ الساعة الثانية صباحاً يفكر بالرحلة التي سيقوم بها ، متسائلاً عما سيجده في نهاية رحلته . الصبي الذي ينام في مكتب الفندق مستلق على سرير نقال قرب الباب ، فمه مفتوح ويشخر بقوة. زحف جورج ماراً بالسرير وخرج إلى الشارع الرئيسي الصامت المقفر . كان الشروق بلون قرمزي ، وقد امتدت خطوط طويلة من الضوء مرتفعة في السماء حيث لاتزال تلمع بضع نجمات .

بعد آخر بيت في الترنيون بايك في واينسبرغ امتداد شاسع من الحقول المنفتحة ، يملكها مزارعون يعيشون في البلدة ويعودون إلى البيت في المساء على عربات على طول الترنيون بايك في عربات خفيفةتصرّ. في الحقول زرعت شجيرات التوت البري والفاكهة الصغيرة . في أوقات بعد الظهر في الصيف حين تكسى الطرق والحقول بالتراب ، يستقر ضباب دخاني فوق منخفض عظيم من الأرض . إن النظر عبره يشبه النظر عبر البحر . وفي الربيع حين تخضرّ الأرض يكون الانطباع مختلفاً نوعاً ما . فتصبح الأرض بساطاً أخضرَ واسعاً كطاولة البليارد ، تكدّ عليها هبوطاً وصعوداً حشرات إنسانية صغيرة .

طوال فترة طفولته وشبابه الأول كان جورج ويلارد معتاداً على التمشي على الترنيون بايك . كان يقف في وسط مكان منفسح ممتد في الليالي الشتوية وقد غطاه الثلج لايطل عليه سوى القمر ، كان يقف هناك في الخريف حين تهب الريح الكئيبة ، وفي الليالي الصيفية حين يضج الجو بغناء الحشرات . في الصباح النيساني ودّ لو يذهب إلى هناك من جديد ، أن يمشي بصمت . وسار على الطريق الغائرة بمحاذاة نهير صغير على بعد ميلين من البلدة ، ثم استدار عائداً يلفه الصمت . حين بلغ الشارع الرئيسي كان المستخدمون يكنسون الأرصفة المقابلة للمتاجر . وسألوه « هيه ، جورج ، كيف يشعر المرء عند الرحيل ؟ » .

يغادر قطار الغرب واينسبرغ في السابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً . سائق القطار هو توم ليتل . ينطلق قطاره من كليفلاند إلى حيث

يتصل بمحطة إتصال كبيرة لها خطوط إلى تشيكاغو ونيويورك . يتمتع توم في مجال خطوط الحديد بما يدعى « السير السهل » . وكل مساء يعود إلى عائلته . وكل خريف وربيع يقضي أيام الآحاد يصطاد السمك في بحيرة إرى . كان له وجه أحمر مستدير وعينان صغيرتان زرقاوان . يعرف الناس في البلديات التي يمر عليها قطاره أكثر مما يعرف رجل مدينة الناس الذين يقطنون معه في البناية نفسها .

هبط جورج الانحناء الصغير عن بيت ويلارد الجديد في الساعة السابعة . حمل توم ويلارد له الحقيبة . لقد بات الولد أطول من أبيه .

على رصيف المحطة صافح الجميع يد الفتى ، وكان هناك دزينة من الناس . بعد ذلك انصرفوا للحديث عن مشاغلهم الخاصة . حتى ويل هندرسن ، الذي كان كسولاً وغالباً ماينام حتى التاسعة ، نهض من سريره . وارتبك جورج . وأتت إلى الرصيف أيضاً غرترود ويلموت ، المرأة الطويلة النحيلة البالغة الخمسين وتعمل في مكتب بريد واينسبرغ . لم تكن من قبل قد أولت أي انتباه إلى جورج ، والآن هاهي تتقدم وتمد يدها . وبكلمتين لخصّت ماشعر به الجميع ، قالت بحدة « حظاً سعيداً » ثم استدارت مبتعدة .

حين دخل القطار المحطة شعر جورج بالارتياح ، وهرع يستقبله . أتت هيلين وايت راكضة على طول الشارع الرئيسي آملة أن تتبادل كلمة وداع معه ، لكنه كان قد وجد لنفسه مقعداً ولم يرها . حين تحرك القطار هز توم ليتل التذكرة ، وهمهم ، ورغم انه كان يعرف جورج جيداً

ويعرف نوع المغامرة التي ينطلق إليها ، لم ينبس بتعليق . لقد رأى توم ألفاً من أمثال جورج ويلارد يغادرون بلدياتهم إلى المدينة ، وكان أمراً مبتذلاً بالنسبة له . في عربة التدخين جلس رجل كان قد دعا توم للقيام بنزهة صيد إلى مرفأ صاندسكي . ورغب أن يقبل الدعوة ويناقشه في أمر التفاصيل .

جال جورج ببصره في أرجاء العربة ليتأكد من أن أحداً لاينظر إليه ثم أخرج محفظته وعدّ نقوده . كان ذهنه مشغولاً بأمل أن لايبدو غراً . كانت آخر كلمات أبيه له تدور حول سلوكه في المدينة . قال توم ويلارد « كن واعياً . انتبه إلى نقودك . كن يقظاً . هاك التذكرة . لاتدع أحداً يظن إنك غر » .

بعد ان عدّ جورج نقوده أطل من النافذة ودهش حين رأى إن القطار لايزال في واينسبرغ .

أخذ الفتى ، المغادر بلدته لمواجهة مغامرة الحياة ، يفكر لكن تفكيره لم يكن في أمر كبير أوهام . أمور مثل أمه ، ورحيله عن واينسبرغ ، وقلقه حول حياته المقبلة في المدينة ، ولم تخطر على ذهنه الجوانب الجادية والكبيرة من حياته .

كان يفكر بأمور صغيرة — بترك سمولت وهو يدحرج ألواح الخشب على طول الشارع الرئيسي في البلدة صباحاً ، بامرأة ممشوقة ، صارت جميلة ، وقضت ذات مرة ليلة كاملة في فندق والده ، زوبتش

ويلر مشعل أضواء واينسبرغ وهو يهرع خلال الشوارع في الأمسيات الصيفية ، حاملاً مشعلاً في يده ، وهيلين وايت واقفة قرب النافذة في مكتب بريد واينسبرغ تضع طابعاً على ظرف .

انجرف عقل الفتى بعيداً بفعل توقه المتنامي للأحلام . لو نظر إليه أحدهم لما رأى فيه فتى واعياً . وعلى هذه الذكريات عن أشياء صغيرة تشغل ذهنه أغمض عينيه ومال إلى الخلف على مقعد العربة . ظل هكذا لوقت طويل وحين أفاق وعاد النظر من نافذة العربة كانت بلدة واينسبرغ قد اختفت ، وقد باتت حياته هناك مجرد خلفية مرسوم عليها أحلام طفولته .

* * *



ملاحظات أندرسن

حول « واينسبرغ ، أوهايو »

١ ـ اللغة والقالب :

يقول اندرسن في مذكراته (. . . كانت مفرداتي قليلة . فلا كلمات لاتينية ولا يونانية لا فرنسية ، وحين أردت أن أتوصل إلى التعبير عن أي شيء أقرب إلى ظلال مرهفة من المعنى كان عليّ أن أفعل ذلك بمفرداتي الخاصة المحدودة جداً .

حتى قراءاتي لم تغن مفرداتي . آه ، كم من الكلمات تعلّمتها من الكتب ولم أعرف كيف تلفظ .

ولكن هل كان عليّ أن استخدم في كتابتي كلمات لاتكون من صميم حديثي اليومي ، من تفكيري اليومي ؟

لاأعتقد ذلك .

طالما قلت لنفسي « لا ، يجب أن تبقى حيث وضعت نفسك » . كانت هناك لغة الشوارع ، لغة البلدان والمدن الأميركية ، لغة المصانع والمستودعات التي عملت فيها ، ومنازل إيواء العمال ، والحانات ، والمزارع .

انها لغتي أنا ، بمدوديتها . يجب أن أعمل بها . كان ثمة نوع من الشعر كنت أبحث عنه في نثري ، بكلمة أضعها بجانب كلمة أخرى بطريقة معينة ، كالتلوين بالكلمات ، كعرض للكلمات والجمل ، بعصر اللون من كلمات بسيطة ، من بناء جملة بسيطة ، أمامكم تحقق مما ذكرت هنا فهذا مالا أعلمه . ماأعرفه هو أن وعيي بالقيود التي عليّ أن أواجهها ، وشعوري بأن الكتابة ، ورواية الحكايا قد ابتعدت كثيراً عن أسلوب حياتنا نحن أناس هذا الزمان) .

وفي موقع آخر يقول (ان الأقاصيص متصلة معاً . وقد شعرت أنني إذا جمعتها معاً سأجعل منها شيئاً أشبه بالرواية ، بالقصة الكاملة . . . وقد اعتبرت عندئذ ، كما أعتقد الآن ، أن قصتيّ الأوليين « ويندي ماكفرسن » في طريقة كتابتها على الأقل ، و « المشاة » لم تعبّرا كثيراً عن شعوري بالحياة بقدر ماكانتا نتيجة لتأثير قراءة روايات الآخرين . كان فيها كثير من تأثير هـ . ج. ويلز وماشابه . كنت مملوءاً بمشاعر البطولة. وهبطت من عليائي . بل انني أحياناً اعتقدت أن شكل الرواية لايناسب الكاتب الأميركي ، وأنه شكل مستورد من الخارج . والمطلوب كان انفلاتاً جديداً ، وجعلت هذا الشكل هدفي في (واينسبرغ . .) . هناك أقاصيص منفردة فيه ولكن كلها تدور حول حيوات أشخاص تربطهم صلة ما . وأعتقد أني نجحت بهذه الوسيلة باعطاء الاحساس بحياة فتى ينمو إلى مرحلة الرجولة الأولى في بلدة صغيرة . والحياة دفق منفلت . وفي الحياة لاتوجد حبكات محكمة لحكايات) وفي رسالة قال « إن

كتّابنا ، قصّاصينا ، بتغليفهم الحياة داخل حزم صغيرة أنيقة انما يخونونها فقط »

وفي رسالة أخرى قال « واضح أن قصصي كتبها شخص لايعرف كيف يجيب على التساؤلات . انها أقاصيص صغيرة بسيطة عن أحداث ، عن أشياء لاحظها وأحس بها . لايوجد بها رعاة بقر ولا هواة صيد قساة شجعان . لاأحد من أناس الأقاصيص يضيع في صحارى لاهبة أو ينطلق باحثاً في القطب الشمالي »

٢ ــ واينسبرغ وأهلها :

في المذكرات يقول (. . . طبعاً لم تكن واينسبرغ تدل على بلدة بعينها . بل كانت بلدة خرافية ، مجموعة من البشر . كانت شخصيات الكتاب منتشرة في كل مكان من حولي ، في البلدان التي عشت فيها ، في صفوف الجيش ، في المصانع والمكاتب . وحين وضعت عنواناً للكتاب لم يكن لدي أي علم بأن ثمة بلدة في أوهايو تحمل الاسم نفسه . حتى أنني فتشت في لائحة أسماء البلدان ولكن يبدو أنها كانت لاتذكر إلا البلدان القائمة على طول الخطوط الحديدية) .

وفي إحدى الرسائل قال « . . . أعتقد أنه كان عليّ أن أدرك في وقت مبكر جداً أن هذا هو وسطي المناسب ، الحياة اليومية العامة . إن معتقدات الناس العادية من حولي ، وذاك الحب الذي لاينضب ، وذاك النجاح الذي كان يعني السعادة ، ببساطة لم تبدُ حقيقية » .

ومرة أخرى يقول في المذكرات (كان هناك كل هذا الجانب الجائع من حياة بلدة أميركية صغيرة . ولعلي حتى كنت تافهاً بما يكفي لأعتقد أنه سيكون لهذه القصص المحكية ، في النهاية ، أثر ولو قليل في إزالة العوائق العجيبة في وجه الحياة ، تلك الأسوار التي أقمناها حولنا.

وإذا كانت (واينسبرغ ، أوهايو) تحكي قصص شخصيات محصورة في حياة بلدة أميركية صغيرة قديمة ذات نزعة فردية ، فان كتبي اللاحقة لم تكن سوى محاولة لنقل هذه الشخصيات نفسها قُدماً إلى الحياة الأميركية الجديدة ، إلى هدير وزئير الآلات الحديثة) .

٣ ــ استقبال القصة :

في المذكرات نقرأ (. . . رفض كل الناشرون الكتاب . أحد الذين اتصلت بهم ناولني نسخة من رواية لكاتب أنجلو ــ أميركي كان عندئذ واعداً ، وقال لي « إقرأ هذا وتعلّم كيف تكتب »

ثم ذات يوم أحد ، يوم شتائي بارد ، وقفت أنتظر عند قارعة الشارع التاسع والخمسين والحديقة العامة في نيويورك . وكنت قد تلقيت رسالة من بن هيوبش ، وهو الآن رئيس التحرير في مؤسسة فايكنغ للنشر ، لكنه كان عندئذ يعمل لحسابه الخاص ، كتب يطلب رؤيتي في زيارتي التالية لنيويورك ، وبعد بضعة أسابيع ، أثناء وجودي في نيويورك اتصلت به هاتفياً ، وقال لي أن أقابله في السنترال بارك . وكان من المفروض أن نذهب سوية إلى مطعم معين . وقال لي عبر

الهاتف « سأقابلك هناك عند القارعة في الساعة الرابعة » وكنت هناك ، حسب مافهمت من موقع المكان ، في الثالثة .

وقفت وانتظرت ولم يأت . ومرت الساعات ، وحلت الساعة الرابعة . ثم الخامسة ، فالسادسة . وأنا متأكد من أنه سيصعب عليّ أن أشرح للقارىء كيف شعرت عندئذ .

يجب أن يوضع في الحسبان أن قصصي ، في ذلك الحين ، كانت قد رُفضت طوال ثلاث أو أربع سنين . وكنت رفيقاً مع أشخاص قصصي ، وأردت لهم أن يُعاملوا برقة ورأفة . وكنت وقتها قد عرضتها على أناس اتكلت عليهم ورفضوها .

وقفت هناك ، في المدينة ، من بعد ظهيرة يوم أحد ، أنتظر عند قارعة الطريق والدنيا برد وقلبي بارد . وأدركت أن السيد هيوبش مثل الكثيرين غيره من الناشرين ، لايريد قصصي .

يالها من لعبة قذرة يلعبها عليّ ! وسألت نفسي « لماذا أزعج نفسه بتشجيعي ؟ » . . . على الأقل كان بقية الناشرين الذين أرسلت لهم كتابي باردين بصراحة . إنهم لم يستثيروا آمالي . وعدت إلى الفندق وارتميت على السرير . وأصبح كل شيء الآن سخيفاً ولكن في المساء بينما أنا جالس في غرفتي بالفندق ، والدموع تفيض من عينيّ . . . وأحياناً كنت أكف عن البكاء لأنزل لعنتي على كل الناشرين ليذهبوا إلى الجحيم مخصّصاً مكاناً خاصاً في الجحيم المسكين بن هيوبش . . . في تلك الأمسية كنت في الحقيقة أكثر يأساً مما كنت في أي وقت آخر من حياتي .

ثم ، في آخر الأمر . . . . لابد أنها كانت حوالي التاسعة . . . رن جرس هاتفي وإذا به السيد هيوبش ونجحت في ضبط نفسي بينما هو يحكي لي كيف أنه بينما أنا واقف عند قارعة أحد الأرصفة انتظره كان هو يقف على الرصيف الآخر ينتظرني . لقد كان في الأمر سوء فهم بسيط ، أما بالنسبة للكتاب فقال بأنه لاخلاف عليه .

قال لي ، عبر الهاتف « نعم ، أريد الكتاب . أردت فقط أن أقابلك وأتحدث معك حول التفاصيل »

ـ « ألا تريد أن تعبث ، أن تغيِّر في قصصي ، وأن تقول لي كيف يجب أن تكتب ؟ »

أنا متأكد تماماً من أن صوتي قد ارتعش وأنا أسأله هذا السؤال .

ـ « ألن تقول لي أنها ليست قصصاً ؟ »

قال « لا ، طبعاً لا »

وهكذا ، نُشر ، وسرعان ماحدث رد فعل غريب ، استقبال غريب . وعلى سبيل الإنصاف أقول أن النقد انصبَّ على كل معاصريَّ في تشيكاغو منذ البداية . لقد أدركنا أن الجنس كان امرأً خاصاً في حياة الناس ، ولم يكد يذكر في الأدب الأميركي قبل زماننا . وبدا لنا أن أحداً لم يستخدم أبداً كلمة تجديف . ولما عملنا على إعادة الجنس إلى ماعتبرناه مكانه الاعتيادي في صورة الحياة سمّونا مهووسين بالجنس .

مع ذلك أذهلني استقبال « واينسبرغ . . » وأربكني . لقد أُدين الكتاب ، وسمّي فاحشاً وقذراً من قِبل معظم ناقديه . واستغرق بيع

الخمسة آلاف نسخة الأولى أكثر من سنتين . لقد كان الكتاب بالنسبة لي مسألة شخصية جداً حتى أنني وجدت عندما بدأت المقالات النقدية بالظهور أنه اعتبر ، وإلى حد كبير ، عملاً أنتجه عقل مختل . . . ومقالة بعد مقالة صار يُوصف بأنه « بالوعة » وأن الرجل الذي كتبه رجل مهووس بشكل غريب بالجنس . . . وأنه مصاب بنوع من المرض ، مرض يستمر شهوراً .

أرى من الغريب الآن ، وأنا أكتب هذا ، أن هذا الكتاب ، الذي يدرَّس الآن في العديد من كلياتنا الجامعية بوصفه مجموعة اقاصيص قد أسيء فهمه إلى ذلك الحد عند صدوره قبل عشرين عاماً . لقد أحسست وأنا أكتبه أنني نظيف وصحيح بشكل استثنائي .

بدأت أتساءل « ماذا يمكن أن يكون قد أصابني ؟ » صحيح أنني في هذه الأيام أقابل باستمرار رجالاً يكلمونني عن التأثير الذي خلّفه فيهم الكتاب حين وقع بين أيديهم للمرة الأولى ويعلن أحدهم بين الحين والآخر بأنه أعجب به ، ولكن إن كان هناك حقاً أي إعجاب به في ذلك الوقت فلا بد أنني لم ألاحظه .

لم أنزعج على الاطلاق لأن الكتاب لم يحقق مبيعات تُذكر ، بل أزعجني السباب . كان هناك سباب علني وادانة ، واستُخدمت كلمات بشعة في حقي ، وكان هناك أيضاً ، في الوقت نفسه ، نوع غريب من الإيذاء الخاص .

أصبح بريدي يمتلىء بالرسائل ، لبها غريب النوع . استمر تدفقها

لأسابيع وأشهر . كان في معظمها كلمات قذرة ، وكأنني بهذه الأقاصيص البسيطة ، إن صح التعبير ، فتحت الأبواب واسعاً لتخرج منها حيوات كثيرة غامضة مشوهة . إنها لم تعجبهم ، فكتبوا لي رسائل ، وكثيراً ما كان فيها سيل مقرف أشبه بالسم .

وقد سمّني ذات مرة .

خبر . . . رسالة من امرأة ، زوجة لأحد معارفي ، صاحب بنك . وبناء لطلب منها قابلتها ذات مرة وجلسنا معاً ، وقالت أنها بعد أن قرأت الكتاب شعرت أنها لن تعود نقية أبداً .

خبر . . . أحد أصدقائي من الرجال كان يقضي بضعة أسابيع في بلده بمقاطعة نيو انغلاند ، وذات يوم كان يغادر البلدة في قطار الصباح الباكر ، وأثناء توجهه إلى محطة السكة الحديد مرّ بحديقة عامة صغيرة في الحديقة ، في الصباح الباكر ، تجمعت فيها جمهرة صغيرة من الناس مؤلفة ، كما قال ، من رجلين وثلاث من النسوة ، كانوا منحنيين فوق نار صغيرة مضرمة في العراء . قال إن فضوله أثير واقترب .

قال « كان هناك ثلاث نسخ من كتابك » ومجموعة الناس الصغيرة من سكان نيو انغلاند تلك ، رجالاً ونساء . . . كانوا جميعاً ممّن تجاوزوا الخمسين . . . وتحدّث عن وجوه كالحة حادة التقاطيع . . . « كانوا من هيئة إدارة المكتبة العامة في البلدة » .

لقد اشتروا النسخ الثلاث من كتابي وأخذوا يحرقونها . صديقي الذي رأى كل هذا أدرك أن هناك حركة احتجاج . وقال أنه تحدّث

إلى الجماعة المتجمهرة في ساحة البلدة الصغيرة أمام مبنى المكتبة العامة . . . فأجابته امرأة منهم .

قال إنها رسمت فماً بغيضاً .

قالت « بعد أن قرأت إحدى الأقاصيص صرت لاأمسكه بيديّ بل بملقط ، وبالملقط نقلته إلى القبو ، ورميته في الفرن ، وعلمت أنني يجب أن لاأشعر أنني نظيفة طوال ماهو داخل بيتي »

واحتج أهالي واينسبرغ الحقيقيون . أعلنوا أن الكتاب لاأخلاقي وأن السكان الفعليين لواينسبرغ الحقيقية أناس أخلاقيون جداً . . . وطبعاً أن أناس كتابي الذين عاشوا مقاطع صغيرة من حيواتهم في مخيلتي لم يكونوا لاأخلاقيين أصلاً . كانوا مجرد بشر . . . وإذا كان أهل واينسبرغ الحقيقية محترمين بقدر أهالي البلدة التي تخيلتها فان واينسبرغ الأصلية هي في الحقيقة محترمة جداً ، وجدير بالمرء أن يعيش فيها .

أمر غريب آخر حدث . فقد أصبح الكتاب أشبه بالأثر الكلاسيكي ، وقال كثير من النقاد بأنه يشكل بداية لنوع من الثورة في تأليف القصة القصيرة الأميركية . والأقاصيص نفسها التي أدينت بالاجماع تقريباً في عام ١٩١٩ بوصفها لاأخلاقية ، أصبحت هذه الأيام (حوالي عام ١٩٤٠) من البراءة بحيث يمكن نشرها في(صحيفة السيدات البيتية) . إن كل تلك الصراحة الجديدة حول الحياة تسود بينماعصر انطلاق جديد يولد .

*　　*　　*

تواريخ في حياة أندرسن

١٨٧٦ ولد في مدينة كامدن بولاية أوهايو ، في ١٣ أيلول (سبتمبر) ، الولد الثالث بين سبعة . خلال السنوات الثماني التالية تتنقل العائلة في أرجاء الولاية بينما الوالد ، صانع عدة للأحصنة « وقصاص » يبحث عن عمل .

١٨٨٤ تستقر العائلة في بلدة كلايد بأوهايو ، وهي البلد التي ستصبح فيما بعد النموذج لبلدة واينسبرغ ، وكان تعليم أندرسن المدرسي غير منتظم بسبب جهوده المساعدة في اعالة العائلة فعمل بائع صحف وسائس خيول .

١٨٩٥ تتوفى والدته بداء السل .

١٨٩٦ (أو ٩٧) يغادر كلايد ليعمل محاسباً في مستودع في تشيكاغو .

١٨٩٧ ينخرط في الجيش خلال الحرب الأميركية الأسبانية ويرسل إلى كوبا بعد استسلام أسبانيا .

١٨٩٩ يلتحق بأكاديمية ويتنبرغ في سبرينغفيلد بأوهايو ، لمدة عام .

١٩٠٠ يعود إلى تشيكاغو ليكتب ويبيع منشورات للدعاية ، يكتب مقالات لمجلة دعائية دورية .

١٩٠٤ يتزوج كورنيليا لين في ١٦ أيار (مايو) .

١٩٠٦ يصبح مديراً لشركة اتحاد المصانع ، وهي شركة لتلبية الطلبات البريدية في كليفلاند .

١٩٠٧ يشتري ويدير « مصنعاً للدهان » في اليريس بأوهايو .

١٩١٢ يصاب بانهيار عقلي نتيجة ضغوط في حياته الخاصة والعملية ، مما أضاف توتراً إلى كتابته .

١٩١٣ بعد شفائه ينتقل إلى تشيكاغو ويعود للعمل في مجال الدعاية ، ويشترك ل من كارل ساندبرغ ، وفلويد ديل ، وبن هشت ، ويونيس تييتجنز ، و ا غالانتيير ، وبرتون لاسكو ، وغيرهم في تحرير صحيفة « نهضة تشيكاغو » ، ويساهم في تحرير صحيفة « ليتل ريفيو » ويكتب أول أقصوصة حول واينسبرغ في خريف ١٩١٥ .

١٩١٦ ينشر بعض أقاصيص واينسبرغ في صحف « الجماهير » و « ليتل ريفيو » و « الفنون السبعة » . وبمساعدة ثيودور درايزر وفلويد ديل يطبع روايته الأولى (ابن ويندي ماكفرسن) . يطلق كورنيليا ويتزوج تينيسي ميتشل .

١٩١٧ ينشر رواية (المشاه) .

١٩١٨ ينشر مجموعة شعرية (أغاني وسط أميركا) .

١٩١٩ ينشر (واينسبرغ أوهايو) .

١٩٢٠ ينشر رواية (الأبيض المسكين) .

١٩٢١ — ٢٢ ينشر كتاب (انتصار بيضة) وهو مجموعة انطباعات حول الحياة الأميركية على شكل حكايا وقصائد . ينال جائز « دايل » مقدارها ألفا دولار ، ويقابل أرنست هيمنغواي ، وفي أوروبا يقابل جيمس جويس ، وغرترود شتاين ، وفورد مادوكس فورد .

١٩٢٣ ينشر رواية (زيجات عديدة) ومجموعة أقاصيص (جياد ورجال) .

١٩٢٤ ينشر سيرة ذاتية (قصة قاص) . يطلق تينسي في نيسان ويتزوج من اليزابث برال .

١٩٢٥ ينشر مقالة « الكاتب الحديث » ، وروايته الوحيدة التي حققت نجاحاً تجارياً (الضحك القاتم) ، ويقيم لبضعة أشهر في نيو أورلينز ، ويصبح صديق ولهام فوكنر ومرشده المخلص .

١٩٢٦ ينشر (مفكرة شيروود أندرسن) و (تار : طفولة في قلب الغرب) . يقوم

بجولة لإلقاء المحاضرات لتساعد في جمع المال لشراء مزرعة قرب ماريون في فيرجينيا والبيت الذي أقامه عليها . وهذا المنزل سيصبح بيته باقي حياته .

١٩٢٧ ينشر قصيدة نثرية بعنوان « العهد الجديد » . يعود للسفر إلى أوروبا ، حيث يجدد معرفته بجويس وغيرترود شتاين . يتابع إلقاء محاضراته في أميركا . يشتري صحيفتين محليتين في فيرجينيا .

١٩٢٩ ينشر كتاب (مرحباً أيتها المدن) وهي مقتطفات من صحفه . ويكتب مقالة « أقرب إلى جذور العشب » ، ومجموعة قصص (أليس والرواية الضائعة) . زواجه الثالث ينتهي بالطلاق .

١٩٣٠ يقوم بجولات في المدن الجنوبية ، ويدعم حركات احتجاج العمال .

١٩٣١ يقوم بنشر مجموعة مقالات (لعلهم نساء) .

١٩٣٢ ينشر رواية (أكثر من رغبة) .

١٩٣٣ ينشر (موت في الغابة وأقاصيص أخرى) . يتزوج اليينور كوبنهافر .

١٩٣٤ ينشر مقالة « لا اختيال » . نسخة (واينسبرغ ، أوهايو) المسرحية تقدم على مسرح هيدجرو .

١٩٣٥ ينشر مجموعة مقالات تحت عنوان « أميركا المحتارة » .

١٩٣٦ ينشر رواية (كيت براندون) .

١٩٣٧ ينشر مجموعة مسرحيات « واينسبرغ وغيرها » ومسرحيات أخرى من ذوات الفصل الواحد مثل « انتصار بيضة » و « أم » و « انهم يتزوجون متأخرين » . ينتخب رئيساً للمؤسسة القومية للفنون والآداب .

١٩٣٩ ينشر مقطوعات نثرية تحت عنوان « بلدتي » .

١٩٤١ يتوفى مصاباً بالتهاب الصفاق في كولون ، في منطقة قناة بناما . في بداية جولة ودية إلى جنوب أميركا بتشجيع من الدولة .

١٩٤٢ تنشر (مذكرات شيروود أندرسن) .

فهرس الكتاب

شيروود أندرسن وشركاه ٥

نظرة سريعة

كتاب الغرائب ١١

يدان ١٧

حبيبات الورق ٢٧

أم ٣٣

الفيلسوف ٤٥

لا أحـــد يعلم ٥٥

ورع ٦١

قصبة في أربعة أجزاء

الجزء الأول ٦٣

الجزء الثاني ٧٥

الجزء الثالث ٨٩

استسلام

الجزء الرابع ١٠١

رعـــب

رجل أفكار ١٠٩
مغامرة ١٢١
احترام ١٣١
المفكر ١٤١
تاندي ١٥٩
قدرة الله ١٦٥
المعلمة ١٧٧
وحشية ١٨٩
يقظة ٢٠٣
شـــاذ ٢١٧
الكذبة غير المروية ٢٣١
شراب ٢٤١
مـــوت ٢٥٥
حيرة ٢٧١
رحيل ٢٨٣
ملاحظات أندرسن ٢٨٩
حول وينبرغ ، أوهاتو
تواريخ في حياة أندرسن ٢٩٩
الفهرس ٣٠٣

صدر عن وزارة الثقافة
من سلسلة روايات عالمية
حتى الآن الروايات التالية

١ ـ المبارزة	الكسندر كوبرين	ترجمة : يوسف حلاق
٢ ـ مولك	الكسندر كوبرين	ترجمة : يوسف حلاق
٣ ـ ابن لص	روخاس سيولبيدا	ترجمة : رفعت عطفة
٤ ـ الغاب	ابتون سينكلير	ترجمة : عبد الكريم ناصيف
٥ ـ حبة قمح	جيمس انغوجي	ترجمة : عبدالكريم محفوض
٦ ـ بيدرو بارامو	خوان رولفو	ترجمة : صالح علماني
٧ ـ أنت جريح	ايروال أوز	ترجمة : فاضل جتكر
٨ ـ لا تقتل عصفوراً ساخراً	هاربر لي	ترجمة : توفيق الأسدي
٩ ـ نقود لماريا	فالنتين رسبوتين	ترجمة : يوسف حلاق
١٠ ـ عنف	فستسوس ايايي	ترجمة : هاني الراهب
١١ ـ أطفال منتصف الليل	سلمان رشدي	ترجمة : عبد الكريم ناصيف
١٢ ـ أبلوموف	ايفان الكساندروفيتش غونتشاروف	ترجمة : يوسف سلمان

٤٠٠٠ ط ١ / ١٩٨٦


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرواية العالمية

هذه هي الرواية الثالثة عشرة من سلسلة روايات عالمية التي لاقت رواجا كبيرا حيث وصلت نسخها الى اقطار الوطن العربي . ولا عجب ، فالرواية تلعب في القرن العشرين الدور الذي كانت تلعبه الملحمة في العصور القديمة ، نقصد انها خير تعبير فني ـ وايضا فكري ـ عن طبيعة المرحلة .

وسلسلتنا كشكل ، مع تكامله ، لوحة عن هذه المرحلة تتسم بالاحاطة والعمق .

من الروايات القادمة في هذه السلسلة :

المعلم ومرغريتا	بولجاكوف	ترجمة : يوسف حلاق
ترنيمة عيد الميلاد	شارلز ديكنز	ترجمة : محمود منقذ الهاشمي
الحصن	اسماعيل كادراه	ترجمة : عبداللطيف الارناؤوط
الجندي الطيب شفايك	هاتشيك	ترجمة : توفيق الاسدي
صورة سيدة	هنري جيمس	ترجمة : هاني الراهب
بينما ارقد محتضرة	وليم فوكنر	ترجمة : توفيق الاسدي

الطبع وفرز الالوان
مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق - ١٩٨٦

سعر النسخة
١٦ ل.س.ل